سلسلة مؤلفات السيد الديباجي المطبوعة

(٣٨)





دروس عرفانية ألقاها سماحة

السيد أبو القاسم الديباجي

دام ظله الوارف

الجزء الأول

(المنزل ١ - المنزل ٢٠)

من ١٠٠٠ منزل


بسم الله الرحمن الرحيم

نفحات الرحمن في منازل العرفان

دروس عرفانية ألقاها سماحة

السيد أبو القاسم الديباجي

دام ظله الوارف

الجزء الأول

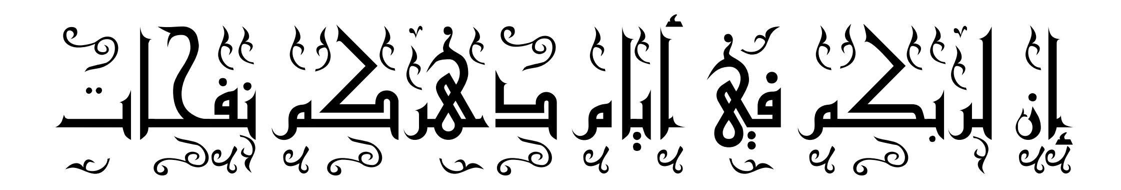
(المنزل ١ - المنزل ٢٠)

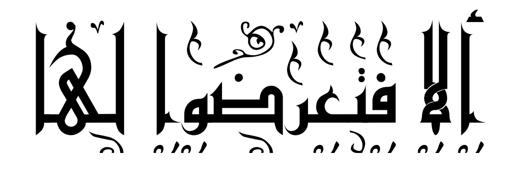
من ١٠٠٠ منزل

الطبعة الالكترونية الاولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م

عن سيد المرسلين

محمد بن عبدالله ﷺ





عن قطب العارفين

أمير المؤمنين عليه السلام

العلم نهر

والحكمة بحر

والعلماء حول النهر يطوفون

والحكماء وسط البحر يغوصون

والعارفون في سفن النجاة يسيرون

صورة الإجازة الروائية والعرفانية التي كتبها العالم الرباني والحكيم الإلهي سماحة آية الله العلامة الشيخ حسن زاده الآملي لسماحة السيد أبي القاسم الديباجي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ألهمنا حقائق الإيمان، وهدانا إلى جنابه بنور العلم والعرفان، ودعانا إلى مأدبته القرآن الفرقان؛ والصلوة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، المخاطب بقوله سبحانه: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً»، وعلى آله عيبة وحيه وغيبه.

أما بعد فيا أيها الإنسان إنما أمرك الأهم أن تنال غايتك القصوى التي هي التخلق بأخلاق الله والاتصاف بأوصافه، وحيث كنت قابلاً للاعتلاء إلى جنابه دعاك في عدة مواضع من كتابه الكريم بقوله القويم: «تعالوا». وقد قال عز من قائل: «ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون»، «يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم»، «ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق»، «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة».

أما سمعت ما أفاضه أسوة العارفين وقدوة المتألهين إمام الكل في الكل أمير المؤمنين علي الوصي المرتضى عليه السلام: «مغبون من ساوى يوماه»؟؛ على أنك لم تك شيئاً مذكوراً وبعد ذلك كنت نطفة قذرة لا تعلم شيئاً والآن أنت ذو أجنحة من القوى الباطنة والظاهرة، قابل للارتقاء إلى معارج القدس والطيران إلى حظائر الأنس فتنبه واستعد لأمدك الأبدي.

ثم اعلم -أصلحك الله تعالى مكنون سريرتك وفتح عين بصرك وبصيرتك- أنه لا بد للنفوس الشيقة إلى الكمال من فاتح مفخم يهديها ويرقيها إليه، وإني أوصي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يغتنم الفرصة بالاستفاضة والاستضاءة من الأستاذ النبيل الحائز لمنقبتي العلم والعمل أعني به العيلم التقي النقي سماحة العالم الجليل الناجي حجة الإسلام السيد أبي القاسم الديباجي -أيده الله سبحانه بإفاداته السبوحية- لإيصال تلك النفوس الكريمة إلى ما يليق بها من التوحيد الصمدي الذي هو قرة عيون العارفين ويرزق به الأبرار على ما بيّنه الكشف الأتم المحمدي بقوله الثقيل: «وسقاهم ربهم شراباً طهوراً»، وبيّنه إمام الملك والملكوت، كشاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق ببيانه القويم كما في مجمع الطبرسي: «أي يطهرهم عن كل شيء سوى الله إذ لا طاهر من تدنس بشيء من الأكوان إلا الله».

ثم أجزته -زيد مجده ودام وجده- أن يروي عني ما صحت لي روايته من كتب أصحابنا الحديثية والدعائية، وهذه صورة شجرة طوبى الطيبة الروائية التي بها أباهي وأبتهج من حيث انتسابي إلى حملة العلم ورواة أحاديث آل طه ويس:

فإني أروي الصحيفة الكاملة السجادية الملقبة بزبور آل محمد وإنجيل أهل البيت، وجميع روايات

المعصومين عليهم السلام عن شيخي واستاذي ابي الفضائل معلم العصر العلامة ذي الفنون المفرد في جميع العلوم الزاهد الذي عزفت نفسه عن الدنيا وما فيها فتساوى عنده حجرها وذهبها، آية الله الكبرى الحاج الميرزا ابي الحسن بن المولى محمد بن المولى غلام حسين بن المولى ابي الحسن الطهراني، الشهير بالعلامة الشعراني - افاض الله سبحانه علينا من بركات انفاسه النفيسة القدسية -، عن الشيخ العالم الفقيه المحدث الرجالي الشيخ محمد محسن الطهراني صاحب الذريعة، عن المحدث الماهر متتبع حفظة المتأخرين الحاج الميرزا حسين النوري عن العالم المتفقه المتبحر جامع العلوم العقلية والنقلية الشيخ عبد الحسين الطهراني؛ عن استاذ الفقهاء المتأخرين الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر؛ عن السيد الفقيه المتبحر السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة؛ عن شيخ الاصوليين الشهير بالوحيد الآغا محمد باقر البهبهاني؛ عن والده محمد الاكمل؛ عن المحدث البارع المتبحر محمد باقر المجلسي صاحب بحار الانوار؛ عن السيد الاديب اللغوي الفاضل والحكيم الكامل جامع الفضائل السيد عليخان المدني الهندي الشيرازي؛ عن الشيخ الفاضل الشيخ جعفر بن كمال الدين البحراني؛ عن الشيخ الفاضل الشيخ حسام الدين الحلبي؛ عن الشيخ الاجل خاتمة المجتهدين وبحر العرفان واليقين الشيخ بهاء الدين العاملي بالاسناد الذي نصه في اول كتابه الاربعين - رضوان الله تعالى عليهم اجمعين.

وايضا برواية صاحب البحار المجلسي عن العالم الجامع بين العقل والعرفان والنقل والوجدان والرواية والدراية مولانا محمد محسن الفيض الكاشاني صاحب الجامع الوافي عن استاذه استاذ الحكماء والفلاسفة المتألهين محمد بن ابراهيم صدر الدين الشيرازي الشهير بصدر المتألهين صاحب الاسفار؛ عن الشيخ المحقق بهاء الدين العاملي؛ عن والده العالم البارع حسين بن عبد الصمد الحارثي العاملي؛ عن السيد حسين بن جعفر الحسيني الكركي؛ عن الشيخ الجليل علي بن عبد العالي الميسي؛ عن الشيخ الامام شمس الدين الجزيني المعروف بابن المؤذن؛ عن الشيخ ضياء الدين علي؛ عن والده السعيد شمس الدين محمد بن مكي المعروف بالشهيد - قدس الله اسرارهم الزكية -. والاجازات تنتهي نوعا الى الشهيد السعيد محمد بن مكي - رضوان الله تعالى عليه.

وايضا برواية صدر المتألهين الشيرازي عن السيد المحقق اعلم المتأخرين جامع فضائل المتقدمين السيد محمد باقر المعروف بالداماد صاحب القبسات؛ عن الشيخ العالم الفقيه المتبحر عبد العالي بن علي الكركي؛ عن والده الشيخ المحقق مروج المذهب علي بن عبد العالي الكركي؛ عن الشيخ علي بن هلال الجزائري؛ عن الشيخ الفقيه الزاهد ابي العباس احمد بن محمد بن فهد الحلي الاسدي؛ عن الشيخ الفاضل مقداد السيوري؛ عن مشايخه الى الائمة المعصومين عليهم السلام.

ولذلك قد اجزته - دامت بركاته الوافرة - ان يروي عني ويفيض على من هو متعلم على سبيل نجاة من النفوس الزكية المستعدة ما افاض على مشايخي في العرفان الاعلى للآيات العظام العلامة الحاج السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب التفسير العظيم الميزان، واخوه العلامة الحاج السيد محمد حسن الطباطبائي، والمعمر الزاهر الحاج الشيخ محمد تقي الآملي - رفع الله درجاتهم -؛ وكان هؤلاء المشايخ من اكابر المستفيدين من صاحب المقامات العالية والمكرمات الباهرة ابي جوهر الدهر الحاج السيد علي القاضي التبريزي، وهو من العلم الآية السيد احمد الكربلائي، وهو من آية الله الكبرى الآخوند المولى حسينقلي الهمداني، وهو من آية الله العظمى الحاج السيد علي الشوشتري الذي ادرك المولى على الجولا على التفصيل الذي حررته في بعض مصنفاتي - قدس الله اسرارهم ونفعنا ببركات انفاسهم القدسية -. ثم الملتمس من جناب المولى المكرم المرتاض المحترم ان لا ينساني من الدعاء في مواطن الاجابة. وقد حرره بيمناه الداثرة الاحقر: الحسن عبد الله بن الحسن الطبري

الإجازة الروائية والعرفانية التي كتبها العالم الربّاني والحكيم الإلهي سماحة آية الله العلامة الشيخ حسن زاده الآملي لسماحة السيد أبي القاسم الديباجي في الثاني والعشرين من شهر جمادى الثانية عام ١٤١٩ هجرية في قم المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي ألهمنا حقائق الإيمان، وهدانا إلى جنابه بنور العلم والعرفان، ودعانا إلى مأدبته القرآن الفرقان، والصلاة والسلام على أفصح من نطق بالضاد، المخاطب بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وَدَاعِياً إِلَى الله بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيراً﴾، وعلى آله عيب وحيه وغيبه.

أما بعد، فيا أيها الإنسان إنما أمرك الأهم أن تنال غايتك القصوى التي هي التخلق بأخلاق الله والاتِّصاف بأوصافه، وحيث كنت قابلا للاعتلاء إلى جنابه دعاك في عدة مواضع من كتابه الكريم بقوله القويم: ﴿تَعَالَوْا﴾، وقد قال عزَّ من قائل: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ....﴾، ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ الله وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ....﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ....﴾.

أما سمعت ما أفاضه أسوة العارفين وقدوة المتألهين إمام الكل في الكل أمير المؤمنين علي الوصي المرتضى عليه السلام: «مَغْبُونٌ مَنْ سَاوَى يَوْمَاهُ» ؟ على أنك لم تكن شيئا مذكورا وبعد ذلك كنت نطفة قذرة لا تعلم شيئا والآن أنت ذو أجنحة من القوى الباطنة والظاهرة قابل للارتقاء إلى معارج القدس والطيران إلى حظائر الأنس فتنبَّه واستعد لأمدك الأبدي.

ثم اعلم - أصلحك الله تعالى مكنون سريرتك وفتح عين بصرك وبصيرتك - أنما لابد للنفوس الشيِّقة إلى الكمال من فاتح مُفهِم يهديها ويرقيها إليه، وإني أوصي لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد أن يغتنم الفرصة بالاستفاضة والاستضاءة من الأستاذ النبيل الحائز بمنقبتي العلم والعمل أعني به العدل التقي النقي سماحة العالم الجليل الناجي حجة الإسلام السيد أبي القاسم الديباجي - أيده الله سبحانه بإلقاءاته السبّوحية - لإيصال تلك النفوس الكريمة إلى ما يليق بها من التوحيد الصمدي الذي هو قرة عيون العارفين ويرزق به الأبرار على ما بيَّنه الكشف الأتم المحمَّدي بقوله

الثقيل: ﴿.... وَسَقَيهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوراً﴾، وبيّنه إمام الملك والملكوت كشّاف الحقائق جعفر بن محمد الصادق ببيانه القويم كما في مجمع الطبرسي: «أي يطهّرهم عن كل شيء سوى الله إذ لا طاهر من تدنُّسٍ بشيء من الأكوان إلاَّ الله».

ثم أجزته - زيد مجده ودام وجده - أن يروي عني ما صحَّت لي روايته من كتب أصحابنا الحديثية والدعائية، وهذه صورة شجرة طوبى الطيبة الروائية التي بها أباهي وأبتهج من حيث انتسابي إلى حملة العلم ورواة أحاديث آل طه ويس:

فإني أروي الصحيفةالكاملةالسجّادية الملقبة بزبور آل محمَّد وإنجيل أهل البيت، وجميع روايات المعصومين - عليهم السلام - عن شيخي وأستاذي أبي الفضائل، معلِّم العصر، العلاّمة ذي الفنون، المفرد في جميع العلوم، الزاهد الذي عزفت نفسه عن الدنيا وما فيها فتساوى عنده حجرها وذهبها، آية الله الكبرى الحاج الميرزا أبي الحسن بن المولى محمد المولى غلام حسين بن المولى أبي الحسن الطهراني الشهير بالعلاّمة الشعراني - أفاض الله سبحانه علينا من بركات أنفاسه النفيسة القدسيّة - عن الشيخ العالم الفقيه المحدّث الرجالي الشيخ محمد حسن الطهراني صاحب الذريعة، عن المحدّث الماهر، متتبّع حَفَظَة المتأخرين الحاج الميرزا حسن النوري، عن العالم المتفَقِّه المتبحر جامع العلوم العقلية والنقلية الشيخ عبدالحسين الطهراني، عن أستاذ الفقهاء المتأخرين الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، عن السيد الفقيه المتبحّر السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة، عن شيخ الأصوليين المشهور بالوحيد الآغا محمد باقر البهبهاني، عن والده محمد الأكمل، عن المحدّث البارع المتبحّر محمد باقر المجلسي صاحب بحار الأنوار، عن السيد الأديب اللغوي الفاضل والحكيم الكامل جامع الفضائل السيد علي خان المدني الهندي الشيرازي، عن الشيخ الفاضل الشيخ جعفر بن كمال الدين البحراني، عن الشيخ الفاضل الشيخ حسام الدين الحلبي، عن الشيخ الأجل خاتمة المجتهدين وبحر العرفان واليقين الشيخ بهاء الدين العاملي بالإسناد الذي نصَّه في أول كتابه الأربعين - رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

وأيضا برواية صاحب البحار المجلسي عن العالم الجامع بين العقل والعرفان والنقل والوجدان والرواية والدراية مولانا محمد محسن الفيض الكاشاني صاحب الجامع الوافي عن أستاذه أستاذ الحكماء والفلاسفة المتألهين محمد بن إبراهيم صدر الدين الشيرازي الشهير بصدر المتألهين صاحب الأسفار، عن الشيخ المحقق بهاء الدين العاملي، عن والده العالم البارع حسين بن عبدالصمد الحارثي العاملي، عن السيد حسين بن جعفر الحسيني الكركي، عن الشيخ الجليل علي بن عبدالعالي الميسي، عن الشيخ الإمام شمس الدين الجزيني المعروف بابن المؤذن، عن الشيخ ضياء الدين علي، عن والده السعيد

شمس الدين محمد بن مكي المعروف بالشهيد - قدس الله أسرارهم الزكية -، والإجازات تنتهي نوعا إلى الشهيد السعيد محمد بن مكي - رضوان الله تعالى عليه.

وأيضا برواية صدر المتألهين الشيرازي عن السيد المحقق أعلم المتأخرين جامع فضائل المتقدمين السيد محمد باقر المعروف بالداماد صاحب القبسات، عن الشيخ العالم الفقيه المتبحر عبدالعلي بن علي الكركي، عن والده الشيخ المحقق مروّج المذهب علي بن عبدالعالي الكركي، عن الشيخ علي بن هلال الجزائري، عن الشيخ الفقيه الزاهد أبي العباس أحمد بن محمد بن فهد الحلّي الأسدي، عن الشيخ الفاضل مقداد السيوري، عن مشايخه إلى الأئمة المعصومين - عليهم السلام.

وكذلك قد أجزته - دامت بركاته الوافرة - أن يروي عني ويفيض على من هو متعلّم على سبيل نجاة من النفوس الزكيّة المستعدة ما أفاض عليّ مشايخي في العرفان العملي الآيات العظام العلامة الحاج السيد محمد حسين الطباطبائي صاحب التفسير العظيم الميزان، وأخوه العلامة الحاج السيد محمد حسن الطباطبائي، والبحر الزاخر الحاج الشيخ محمد تقي الآملي - رفع الله درجاتهم -، وكان هؤلاء المشايخ من أكابر المستفيدين من صاحب المقامات العالية والكرامات الباهرة أعجوبة الدهر الحاج السيد علي القاضي التبريزي، وهو من العلم الآية السيد أحمد الكربلائي، وهو من آية الله الكبرى الآخوند المولى حسينقلي الهمداني، وهو من آية الله العظمى الحاج السيد علي الشوشتري الذي أدرك المولى قلي الجولا على التفصيل الذي حرّرته في بعض مصنفاتي - قدس الله أسرارهم ورزقنا بركات أنفاسهم القدسيّة.

ثم الملتمس من جناب المولى المكرم الديباجي المحترم أن لا ينساني من الدعاء في مواطن الإجابة، وقد حرّره بيمناه الداثرة الأحقر: «الحسن بن عبدالله بن الحسن الطبري الآملي المشتهر بحسن زاده آملي» في يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر ج ٢ من سنة ١٤١٩ هـ ق = ٢١/ ٧/ ١٣٧٧ هـ ش، على هاجرها آلاف التحية والثناء.

حسن حسن زاده آملي



الحمد لله بما حمد به نفسه والصلاة والسلام على رسوله الأمين وخاتم المرسلين الذي بعثه رحمة للعالمين محمد وآله الطيبين الطاهرين.

نستعرض طي الصفحات التالية نبذة مختصرة عن حياة معلم الأخلاق والعرفان العالم الجليل والأستاذ المحقق والمفكر الإسلامي سماحة حجة الإسلام والمسلمين السيد أبي القاسم الديباجي (دام ظله) والتي تشمل نسبه الشريف ومولده ودراساته وأساتذته الأجلاء وعرض مؤلفاته التي صدرت له والمؤلفات التي هي بصدد الإصدار ونشاطاته الدينية والعلمية والفلسفية.

نسأل الله تبارك وتعالى أن يمده بعونه ويسدد خطاه لأداء رسالته ويوفقه إلى مناهج السداد ويهديه سبل الرشاد وينفع به الناس إنه ولي التوفيق.

الترجمة

حجة الإسلام والمسلمين الحاج السيد أبو القاسم الديباجي، ينتهى نسبه الشريف إلى جده السادس والثلاثين السيد الأغر محمد بن الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه الصلاة والسلام المعروف بالديباج وإلى العلامة الكبير النسَّابة الخبير المروزي السيد إسماعيل بن الحسين الديباجي أبي البركات المشهدي رضوان الله تعالى عليه وهو من أعلام القرن السادس الهجري ومؤلف كتاب أنساب آل أبي طالب وغيره من الكتب المعروفة العتيقة.

نسبه

السيد الحاج أبو القاسم الديباجي (١) ابن الحاج السيد نصر الله (٢) ابن الحاج السيد أحمد (٣) ابن السيد محمد حسين (٤) ابن السيد أحمد (٥) ابن السيد مرتضى (٦) ابن السيد حسين (٧) ابن السيد زين الدين علي (٨) ابن السيد محمد جعفر (٩) ابن السيد محمد محسن (١٠) ابن السيد محمد سعيد (١١) ابن السيد عبد الكاظم (١٢) ابن السيد عبد الرضا (١٣) ابن السيد علي (١٤) ابن السيد بابا (١٥) ابن السيد أحمد (١٦) ابن السيد بابا (١٧) ابن السيد ركن الدين (١٨) ابن السيد جمال الدين (١٩) ابن السيد علي (٢٠) ابن السيد حمزة (٢١) ابن السيد إسماعيل (٢٢) ابن السيد محمود (٢٣) ابن السيد محمد (المعروف بجمشيد) (٢٤) ابن السيد إسماعيل أبي البركات الحسيني المشهدي (٢٥) ابن السيد حسين (٢٦) ابن السيد محمد (٢٧) ابن السيد حسين (٢٨) ابن السيد أحمد (٢٩) ابن السيد محمد (٣٠) ابن السيد عزيز (٣١) ابن السيد حسين (٣٢) ابن السيد محمد الأطروش (٣٣) ابن السيد علي (٣٤) ابن السيد حسين (٣٥) ابن السيد علي (٣٦) ابن السيد محمد الديباج (٣٧) ابن الإمام أبى عبدالله جعفر الصادق عليه السلام ابن محمد بن علي ابن حسين ابن علي بن أبي طالب عليهم صلوات الله الملك

الحق المبين وسلامه.

والسيد أبو القاسم الديباجي (دام ظله) عالم فاضل ومحقق مدقق له إجازات كثيرة من كبار الفقهاء المجيزين في النجف الأشرف وقم المقدسة وداعية إسلامي فعال ونشط لا يفتر عن العمل المتواصل والدؤوب في خدمة الإسلام والمسلمين وإعلاء المذهب الشيعي، هذا ويتصف سماحته بتواضع النفس ورحابة الصدر ودماثة الخلق وذو فضائل خلقية كريمة.

ولادته ودراساته وأساتذته

ولد سماحته فى مدينة إصفهان عام ١٣٦٨ هـ (١٩٤٨ م) ثم انتقل برفقة والده العلامة حجة الإسلام الحاج السيد نصر الله الديباجي إلى مدينة أهواز في جنوب إيران ونشأ وترعرع هناك وتلقّى دروسه في المراحل الابتدائية والمتوسطة حسب المناهج التعليمية الحديثة وأكمل دراسته في المرحلة الثانوية ثم اتجه إلى دراسة العلوم الدينية وبدأ بمقدمات العلوم الحوزوية عند أخيه الأكبر وأستاذه الأول الشهيد آية الله الحاج السيد أحمد الديباجي (قده) وكان أول عالم روحاني استشهد فى إيران بعد قيام الثورة الإسلامية فيها مع ولديه الشهيدين السيد محمد الديباجي والسيد علي الديباجي وذلك فى الجامع المحسني في العاصمة طهران.

وبعدما أكمل مقدمات العلوم الدينية تعمَّم بعمامة أجداده الطاهرين عليهم السلام ودخل في سلك رجال الدين بمباركةٍ من المرحوم آية الله العظمى الحاج السيد علي البهبهاني (قده) الذي كان فى حينه مرجعا دينيا كبيرا داخل إيران وخارجها.

ولإكمال الدراسات المتقدمة في العلوم الحوزوية انتقل إلى مدينة قم المقدسة وتوطَّنها لسنوات عديدة حيث حضر دروس السطح العالي عند كبار الأساتذة ألمعروفين كالأستاذ الشيخ رحمة الله الفشاركي والأستاذ سُتوده والأستاذ طاهر شمس والأستاذ صلواتي.

وبعد إكماله دروس مرحلة السطح العالي التحق بدروس الخارج فى العلوم العقلية والنقلية ودروس الفلسفة والعرفان عند رجال العلم وأساتذة الفن منهم الفيلسوف الأكبر المهذب الأتقى الحاج الشيخ يحيى الأنصاري الشيرازي (دام ظله العالي) والأستاذ الكبير العلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي (قده) - صاحب التفسير الكبير «الميزان في تفسير القرآن» - ولفرط حبه لأستاذه السيد العلامة فقد كان يسكن فى جواره، كما أنه حضر دروس الفقه والأحكام عند المرحوم آية الله العظمى الشيخ مرتضى الحائري (قده) نجل المرحوم آية الله العظمى الحاج الشيخ عبد الكريم الحائرى (قده) - مؤسس الحوزة العلمية في قم المقدسة - كما حضر في علم الأصول دروس المرحوم المقدس آية الله

الحـاج الشـيخ ميرزا كاظم التبريـزي (قده) وهو من أعاظم علماء النجف ومـن تلامذة الإمام المقدس السيد الخوئي (قده).

ثم سافر إلى النجف الأشرف وعاش في رحاب مولانا أمير المؤمنين الإمام علي بن أبى طالب عليه آلاف التحية والصلاة، وفي جنبات حوزة النجف – الحوزة الأم – المشعة بأنوار باب مدينة علم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله حضر دروس وأبحاث أساطين العلم وفطاحل الفقه كالأستاذ آية الله العظمى الإمام الخوئي (قده) فى مباحث الفقه والأستاذ آية الله العظمى الإمام الخميني (قده) فى مباحث الخلل من كتاب الصلاة فتدرَّج في مراتب دراسة الفقه والعلوم.

مراتبه العلمية

حاز سماحته على شهادات علمية وإجازات تأهيل من كبار أساتذته الأجلاء من العلماء والمراجع، ولمزيـد مـن التفاصيل فى شرح نسـب سـماحته الشريـف وإجازاته العلميـة يمكن الرجـوع إلى كتاب «العلـماء ومراجـع التقليـد (المرجعية الدينيـة ومراجع الإماميـة)» الطبعة الثانية – طهران – للأسـتاذ الدكتور نور الدين الشاهرودي.

ومثلـما اسـتفاد من أسـاتذته الأعاظم في مراحل الـدرس والبحث والتقصي العلمـي المختلفة كان بـدوره يفيـد الآخريـن من خلال إلقاء الـدروس والمحاضرات لجمـع من الفضلاء وطلبـة العلم وفي مستويات مختلفة.

وفي هـذا المقـام لابـد أن نشـير إلى أن المراتب العلميـة التي نالها سـماحته لم تقتصر على الشـهادات الحوزوية فحسب بل أنه حاز على شهادات من جامعات ومعاهد علمية عالمية حديثة مثل :

- منحته جامعة أكسفورد البريطانية درجة الدكتوراه سنة ١٩٩٦ م ، إضافة إلى نيـل العضـويـة العلميـة في تلك الجامعـة .

- شهادة دكتوراه الإبداع في العلوم الإسلامية من الاتحاد العالمي للمؤلفيـن باللغـة العربيـة في فرنسا في الثامن والعشرين من شهر محرم سنة ١٤٢١ هـ الموافق الثاني من شهر مايو سنة ٢٠٠٠ م .

- شهادة دكتوراه دولة من كلية الفقه و المذاهب – جامعة الحضارة الإسلامية المفتوحة – برتبة علامة مجتهد بتاريخ ١٠ شعبان ١٤٢٨ هـ الموافق ٢٤ أغسطس ٢٠٠٧ م .

مناصبه العلمية :

- إمام مسجد جامع الإمام زين العابدين (ع) في دولة الكويت.
- ممثل و وكيل السيد السيستاني في دولة الكويت.
- الأمين العام للهيئة العالمية للفقه الإسلامي .

هجرته إلى الكويت

في عام ١٤٠٦هـ جاءته دعوة كريمة من جمع غفير من الشيعة المخلصين والمحبين لأهل البيت الأطهار عليهم السلام في الكويت يطلبون من سماحته القدوم إليهم فيكون لهم إماما وقائدا ومرشدا وقائما بالأمور الدينية في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد لبَّى سماحته طلبهم وهاجر إليهم، ومنذ ذلك الحين وإلى يومنا هذا وهو يقوم بأداء واجبه الشرعي على أتم وجه.

نشاطاته المختلفة في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام

لقد جعل سماحته بجِدِّه واجتهاده من مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام دار علم وثقافة إسلامية عامة ومنطلقا لنشاطاته الدينية والثقافية وبحوثه العلمية الفلسفية التي استفاد منها الإخوة والأخوات على حدٍّ سواء.

ومن جملة نشاطاته الدينية الهادفة إقامة صلاة الجماعة في المسجد الجامع وإفاداته ودروسه ألقيِّمة التي يلقيها كل ليلة بعد صلاتي المغرب والعشاء، وقد خصَّص في كل ليلة درسا خاصا من تلك الدروس وهي كما يلي:

ليلة السبت: دروس في تفسير القرآن

ليلة الأحد: دروس في الفقه والأحكام

ليلة الإثنين: دروس في الأخلاق

ليلة الثلاثاء: دروس في العقائد

ليلة الأربعاء: دروس في الفقه والأحكام

ليلة الخميس: دروس في الأحاديث والروايات

ليلة الجمعة: منازل العرفان النظري والعرفان العملي

(وقد درَّس سماحته إلى وقت طباعة الجزء الثاني ٤٩٦ منزلا من أصل ١٠٠٠ منزل)

يوم الجمعة: إلقاء خطبة في مباحث عامة نهار كل جمعة بين صلاتي الظهر والعصر.

هذا ويشارك الكثير من الإخوة المؤمنين والشباب والمثقفين من البلدان المجاورة في هده الدروس وذلك بالسفر إلص الكويت والحضور شخصيا إلى المسجد الجامع.

ويمكن القول أن هذا الجامع - جامع الإمام زين العابدين‍عليه السلام - غدا مركزا تثقيفيا وروحيا فريدا من نوعه حيث أنه يغذّي تلامذته والمنتسبين إليه بالدروس والبحوث الدينية المختلفة وإن كانوا خارج الكويت وكذلك الذين يسافرون إلى الخارج لإتمام دراساتهم العليا في جميع أنحاء العالم حيث يبقى الجامع على اتصال معهم عبر لجنة ثقافية يتولى سماحته رئاستها والإشراف المباشر عليها.

وتجدر الإشارة هنا أن سماحته امتاز بجلب الأكابر والأفاضل من رجال العلم من الأقطار المختلفة إلى رحاب مسجد جامع الإمام زين العابدين‍عليه السلام في جميع المناسبات الدينية طوال العام حتى يمكن الاستفادة من علومهم وبحوثهم فصار الجامع مهبطا للعلماء ومنهلا للعلوم ومركزا للبحوث الإسلامية المختلفة.

ومن جملة هؤلاء العلماء: سماحة آية الله الشيخ مجد الدين المحلاتي - زعيم الحوزة العلمية في شيراز - وسماحة آية الله السيد إسماعيل المرعشي وسماحة المرحوم آية الله السيد محمد الفيروزآبادي (قده) وسماحة آية الله الشيخ عبد الجليل الجليلي وسماحة آية الله الشيخ محمد رضا الجعفري وسماحة آية الله العلامة الدكتور السيد مصطفى محقق داماد وسماحة آية الله الأستاذ الشيخ أبوالقاسم الروحاني وسماحة آية الله الشيخ جواد السهلاني وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ عباس الجمالي وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشيخ محمد باقر المدرس وسماحة حجة الإسلام والمسلمين الشهيد السيد محمد تقي الخوئي (قده) وسماحة حجة الإسلام السيد عبدالمجيد الخوئي وسماحة الشيخ محمد محمدي الاشتهاردي وغيرهم من العلماء الأجلاء.

سائر نشاطاته خارج مسجد جامع الإمام زين العابدين‍عليه السلام

إلى جانب نشاطاته العلمية والدينية الدائمة التي قام ويقوم بها سماحته في نطاق مسجد جامع الإمام زين العابدين‍عليه السلام فإن له إسهامات وأيادي بيضاء في دعم المشاريع الخيرية والدينية والتربوية الإسلامية وكل ما يخدم الدين الإسلامي الحنيف من قريب أو بعيد، كما أن سماحته بخلقه الكريمة عون للمحتاجين والمعوزين.

وكذلك فإن لسماحته أيضا اهتمامات بمؤسسات دينية خارج الكويت، فقد أنشئ بسعيه المبارك مركز دار الثقلين في الهند ومدارس خاصة للأيتام وحوزة علمية باسم الإمام المهدي (عج) في مدينة بمباي إضافة إلى مراكز علمية أخرى، وإن خدماته الجليلة في تلك المناطق معروفة لدى الجميع.

مؤلفاته

يعتبر سماحته مؤلفا مكثرا إذ ألَّف كتبا ورسائل عديدة تتناول مختلف العلوم والبحوث الدينية وبأسلوب شيِّق ومنطق رصين، وقد طبعت مؤلفاته لأكثر من مرة، ومن الكتب والرسائل التي تم إصدارها ما يلي:

١- العرفان نهج خاص - طبع في الكويت عام ١٩٩٢م .

٢- رسالة عقائدية (رد على كتاب «الشيعة والتصحيح» للدكتور الموسوي) - ويتضمن جملة من الأطروحات لمناقشة وتفنيد دعاوى صاحب كتاب «الشيعة والتصحيح» وإبطال حججه استنادا إلى الآيات القرآنية وروايات أهل البيت عليهم السلام - طبع فى إيران عام ١٩٩٣م

٣- خطر الأفيون - كتاب مختصر مفيد بيَّن فيه مؤلفه خطر الأفيون والإدمان وآثاره السلبية في حياة الإنسان وطرق الوقاية منها وعلاجها - طبع في الكويت عام ١٩٩٣م

٤- الحج أحكاما وفلسفة ودعاء - كتاب توضَّح فيه الأحكام الفقهية لمناسك الحج والفلسفة الخاصة بكل منسك والتي تهدف إلى تقوية الصلة الروحية بين الحاج وأعماله ثم تخصيص جانب من الكتاب للأدعية الخاصة بكل الأعمال التي يؤديها الحاج ابتداء من خروجه من دياره متوجهاً إلى الديار المقدسة ومروراً بمناسك الحج وانتهاءً بعودته إلى دياره وكذلك الزيارات الخاصة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأهل بيته الأطهار عليهم السلام والزيارات الخاصة بالأماكن المقدسة في المدينة المنورة ومكة المكرمة - طبعت الطبعة الأولى في إيران عام ١٩٩٣ م والطبعة الثانية في الكويت عام ١٩٩٧ م

٥- مبحث في أصل التوحيد - دراسة معاصرة - الحلقة الأولى من سلسلة دراسات في أصول الدين - ويشرح فيه المؤلف أقسام التوحيد وآثارها الحسنة وأنواع الشرك وآثارها السيئة باعتماد رؤية الأفق القرآني العظيم واستقراء الروايات الصحيحة المنقولة عن أهل البيت عليهم السلام، وكذلك عرض الأدلة الدقيقة والواسعة لمبدأ التوحيد والاستدلال بالشواهد والحقائق الكونية، ويُدَرَّس هذا الكتاب الآن في الحوزات والمراكز العلمية بوصفه مصدرا من المصادر المعتمدة فى دراسة أصول الدين - طبع في لبنان عام ١٩٩٥م

٦- مبحث في أصل النبوة - دراسة معاصرة - الحلقة الثانية من سلسلة دراسات في أصول الدين - مبحث في تعريف النبوة وعلة بعثة الأنبياء عليهم السلام والوحي السماوي وأنواعه والبحث في عصمة الأنبياء عليهم السلام ومعجزاتهم وأولي العزم من الرسل وبيان شخصية ومراتب مقامات خاتم الأنبياء الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتأسي به في الحياة الفردية والاجتماعية.

٧- مبحث في أصل العدل - دراسة معاصرة - الحلقة الثالثة من سلسلة دراسات في أصول الدين - ويتطرق فيه المؤلف إلى مفهوم العدل في الشرائع السماوية وبحث حول الوعد والوعيد والجبر والتفويض والقضاء والقدر بين الفرق الإسلامية المختلفة وتنزيه الذات الإلهية عن الظلم - طبع في لبنان عام ١٩٩٦م.

٨- مبحث في أصل الإمامة - دراسة معاصرة - الحلقة الرابعة من سلسلة دراسات في أصول الدين - مبحث فى مفاهيم الإمامة ودور الإمامة في حياة الأمة والدلائل العقلية والنقلية من القرآن الكريم والأحاديث الشريفة الموجبة للإمامة وأن المذهب الاثنا عشري هو المذهب الحي الوحيد الذي يمكن أن يكون له إماما حيا وهو الحجة بن الحسن المهدي (عج) - طبع في الكويت عام ١٩٩٧م

٩- مبحث في أصل المعاد يوم القيامة - دراسة معاصرة - الحلقة الخامسة من سلسلة دراسات في أصول الدين - وتطرق المؤلف فيه إلى الدلائل في المعاد والمعاد في القرآن الكريم والروايات الشريفة وتساؤلات وردود حول المعاد والآثار المعنوية والتربوية المترتبة على الاعتقاد بالمعاد - طبع في الكويت عام ١٩٩٨ م

١٠- أجود المناظرات - إشراف وتحقيق المترجَم له - تمت ترجمته إلى اللغتين الإنجليزية والأردو ويشمل على نماذج من مناظرات النبي الأكرمﷺ والأئمة المعصومين(عليهم السلام) وتلامذتهم مع مختلف الطوائف والمذاهب وفي شتى المواضيع والأمور الإسلامية وكذلك نماذج من مناظرات كبار علماء الدين ومفكري الإسلام في الماضي والحاضر مع مختلف الأشخاص والتي تبين طريقة وأسلوب مواجهتهم للمنكرين والملحدين وتأثر الناس بمنطقهم السليم، هذا ويضم الكتاب بين دفتيه ١٠١ مناظرة - طبع في لبنان عام ١٩٩٥م

١١- الإمام المهدي الحقيقة المنتظرة - طبع في إيران عام ١٩٩٥ م - يستعرض فيه المؤلف بعض الجوانب الهامة في حياة الإمام المهدي (عج) وأهدافه وبرامج دولته العادلة، ويقدم فيه المواضيع المهمة بشكل يحيط - رغم اختصاره - بأهم الأبعاد الخاصة بهذا البحث الدقيق والمهم، وفصول الكتاب تختص بالمباحث التالية:

- ما يتعلق بولادته(عليه السلام) وستر أبيه له في ألسنين الأولى من عمره الشريف.
- الغيبة الصغرى وصلته(عليه السلام) بشيعته.
- الغيبة الكبرى وانتظار شيعته لظهوره(عليه السلام).
- تساؤلات مع الإمام المهدي(عليه السلام).

– الإمام المهدي‌عليه‌السلام غذاء الروح.

– حكومته‌عليه‌السلام وعصره المزدهر بالخير والعطاء.

١٢– منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر‌عليهم‌السلام – تحقيق وإشراف المترجَم له – ويقع هذا الكتاب القيِّم في ثلاثة أجزاء من أربعة عشر مجلد وهو عبارة عن سلسلة ذهبية لامعة في سيرة كل معصوم مع مختارات لطيفة من حياته على مختلف الأصعدة، ويمتاز هذا الكتاب عن غيره بأنه:

– يعرض عرضا شاملا وسريعا ومبسطا لتاريخ حياة المعصوم‌عليه‌السلام منذ ولادته ومرورا بمراحل صباه وشبابه وفترة إمامته ومعاصريه من الحكام الى يوم أن اختاره الله عز وجل لجواره.

– يسرد الحقائق التاريخية الجليلة والقيِّمة التي طمستها أقلام المناوئين وألسنة الحاقدين وتجاهلها أكثر المؤلفين والمؤرخين.

– يكشف عمق الأحداث والمصائب التي تجرَّعوها لله وفي الله ولتحقيق العدالة ونشر المعارف الإسلامية.

والأجزاء الثلاثة هي كالتالي:

(١)– تحقيق وإشراف خمسة مجلدات منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر – خمسة أهل الكساء

(٢)– تحقيق وإشراف خمسة مجلدات منتقى الدرر في سيرة ألمعصومين الأربعة عشر – من الإمام السجاد‌عليه‌السلام إلى الإمام الرضا‌عليه‌السلام

(٣)– تحقيق وإشراف أربعة مجلدات منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر – من الإمام الجواد‌عليه‌السلام إلى الإمام المهدي المنتظر (عج)

١٣– زينب الكبرى‌عليها‌السلام بطلة الحرية – طبع في الكويت عام ١٩٩٦م – وقد قوبل كتابه هذا باستحسان وإقبال كبيرين وجرى طبعه لعدة مرات، وقد صنَّف المؤلف مواضيع الكتاب في أربعة فصول رئيسية هي كالتالي:

– زينب‌عليها‌السلام من المهد إلى أحداث كربلاء ولمحات من فضائلها.

– زينب‌عليها‌السلام وأحداث كربلاء.

– زينب‌عليها‌السلام بعد عاشوراء إلى وفاتها.

– مرقد زينب الكبرى‌عليها‌السلام وبعض كراماتها.

١٤– العباس بن علي‌عليهما‌السلام بطل النهضة الحسينية – طبع في الكويت عام ١٩٩٧م – وأستعرض فيها المؤلف شخصية أخرى من أبطال فاجعة الطف الأليمة وهو العباس بن أمير المؤمنين‌عليه‌السلام حيث تناول

فيه أبعاد شخصية قمر العشيرة وساقي عطاشى كربلاء، وقد صنف المؤلف هذا الكتاب فصولا أربعة هي كالتالي:

- العباس عليه السلام في عهد والده أمير المؤمنين عليه السلام - حوالي أربعة عشر عاما.
- العباس عليه السلام في عهد إمامة الإمام الحسن عليه السلام والإمام الحسين عليه السلام - حوالي عشرون عاما.
- العباس عليه السلام في واقعة الطف وبطولاته واستشهاده.
- مرقد العباس عليه السلام وما طرأ عليه من التجديدات وبعض كراماته.

١٥- أجوبتنا على مسائلكم الدينية - وفيه يرد على ثلاثمائة سؤال يتعلق بالعقائد والفلسفة والفقه ومواضيع دينية متفرقة، وتم تصنيف الكتاب في عشرة مجلدات كل مجلد يضم ثلاثين سؤالا وجوابا - طبع المجلد الأول في الكويت عام ١٩٩٧م

١٦- القصص الهادفة عن سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام - تحت إشراف الأستاذ المحقق المترجَم له - كتاب مكمِّل لمنتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر عليهم السلام ولكنه أقوى تحقيقيا وعلميا - طبع عام ١٩٩٦ م

١٧- المنتخب من قصص المثنوي - تحقيق وإشراف المترجَم له - وهو ترجمة وشرح بعض أشعار العارف والشاعر الكبير جلال الدين الرومي المعروف بـ«مولانا» أو «المولوي» ويحتوي على المنتخب من الآيات والروايات الإسلامية المبينة للحقائق الملموسة والمعنوية التي يحتاج إليها الجسم والروح - طبع عام ١٩٩٦م

١٨- حوار حول الإمام المهدي (عج) - طبع في لبنان عام ١٩٩٧م

١٩- الفتنة العظمى - الحلقة الأولى من سلسلة دراسات تاريخية - دراسة معاصرة للسياسة الأموية في صدر الدعوة الإسلامية - طبع في لبنان عام ١٩٩٨م

٢٠- حقوق الإنسان في الإسلام - دراسة وتحقيق في بحث حقوق الإنسان الإسلامية وأنواعها والمبارزة مع الظلم والسياسات الاستعمارية - طبع عام ١٩٩٩م.

٢١- حقوق المرأة في الإسلام - دراسة معاصرة - كتاب جامع عن شخصية المرأة وحقوقها والحقوق المتقابلة بين المرأة والرجل عامة - طبع عام ١٩٩٩م.

٢٢- مظاهر الفرقة بين المسلمين وعلاجها - مشروع بحث قدمه المترجَم له في ندوة اجتماع دولي لوضع استراتيجية مشتركة للتقريب بين المذاهب الإسلامية - دمشق ١٠-١٢ أبريل ١٩٩٩م.

مؤلفات تحت الإشراف والتحقيق والطبع

١- دراسة في الفقه الإسلامي - خلاصة الفقه الإسلامي الحي والمبتلى به الناس مع توضيح مبادىء الفقه وأسس الفقه.

٢- دراسة في علم التفسير - بحث في علم تفسير القرآن المجيد وهي دروس طرحها سماحته في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام، وقد تم تخزينها في الكمبيوتر.

٣- دراسة في الفلسفة الإسلامية - دراسة في مبادىء الفلسفة الإسلامية ومقارنتها بالمكاتب الفلسفية الأخرى.

٤- السنّة النبوية المطهرة - دراسة وتحليل - دراسة وتحليل السنَّة النبوية المطهرة مع بيان أراء الفرق الأسلامية وعلاقتها بالحياة الاجتماعية للمسلمين.

٥- الإمام الحسين عليه السلام رسالة الإنسانية - دراسة معاصرة - كتاب يستعرض شخصية سيد الشهداء أبي عبدالله الحسين عليه السلام وفلسفة ثورته الخالدة، وقد تمت ترجمة شطر كبير من هذا الكتاب إلى اللغة الإنجليزية.

٦- دراسة في الأخلاق - دروس ومحاضرات ألقاها سماحته في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام مع توضيح أهم البحوث الأخلاقية مقارنة بالقضايا العلمية والعصرية.

٧- من الجمعة إلى الجمعة - سلسلة محاضرات ألقاها سماحته في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام من خلال خطب الجمعة حسب ما يتطلبه الواقع الاجتماعي مع العلم أن جميع هذه الخطب مسجلة في أشرطة.



سماحة السيد أبو القاسم الديباجي

المقدِّمة

الحمـد لله الواحـد بلا عدد والدائم بلا أمد والقائم بلا عمـد المقتدر بالآلاء الممتنع بالكبرياء النائي عـن العيـون لشـدة جماله والمختفـي عن الأنظـار لفرط نوره فلـم تره العيون بمشـاهدة العيـان ورأته القلـوب بحقائق الإيمان ثـم أشرف الصلوات وأنمى البركات على المبعوث مـن تهامة المظلَّل بالغمامة صاحب الشـفاعة يوم القيامة أول الأنبياء نورا وآخرهم ظهورا الأحمد من الأوصاف والمحمد لسـائر الأشراف المغمـوس في بحـر الفضائـل والملبَّس حلل المفاخر وعلى آل بيته العترة الزكية السـادة الولاة والأئمـة الهداة والقادة الحماة لا سـيما نامـوس الدهر وإمام العصر بقيـة الله في الأرضين والقائم بالحق المبين صاحب الزمان وإمام الإنس والجان الحجة بن الحسن المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف.

اعلمـوا عبـاد الله أن الله تعـالى جلَّـت عظمته خلـق الخلائق وهو غنـي عن خلقهـم لا لغاية إلا ما أشارإليها في مكنون كتابه حيث قال جل جلاله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الإنسَ وَالْجِنَّ إلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1] فالعبادة غايـة الخلقة والتكوين وفي حد ذاتها وسـيلة للقرب إلى الكمال المطلـق والذات الأحدية المتعالية، ومن هنا كان قوله عز من قائل في حديث قدسي: « كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيّاً فَأَحبَبْـتُ أنْ أعـرَفَ فَخـلَـقْـتُ الخَـلْـقَ لكَـي أعــرَفَ»[2]، ومـع الجمع بين الآيـة والحديث نخرج بهـذه الحصيلة النورانيـة الملكوتية وهي أن العبادة الحقيقية ليست حركات الأبدان وسكناتها فحسب إنما هي معرفة الله حق معرفته وعبادته حق عبادتـه كما قال قطب العارفيــن أميـر المؤمنيـن علي بن أبي طالب عليه السلام: «أَوَّلُ الـدِّيــنِ مَـعْـرِفَـتُـهُ»[3]، فمعرفة الله تبارك وتعالى هي الوسيلة المؤدية إلى التوحيد الخالص له دون غيره، ولا يخفى أن معرفة الله تبـارك وتعالى محـدودة في نعوته وصفاته الجلالية منها والجماليـة وأما التفكـر في ذاته وإدراك كنهه فلا سـبيل لأحد إليه كما قال سيد البشر صلى الله عليه وآله: «مَا عَرَفْناك حَقَّ معْرِفَتِك»[4]، وكذلك قول الإمام الحسين بن عـلي عليه السلام: «إنَّ اللهَ احْـتَـجَــبَ عَنِ الـعُـقـولِ كَما احْـتَـجَـبَ عَـنِ الأبصـار»[5]، بـل منهيٌّ عنه كما قال

الإمـام عليعليه السلام: «تـفَكَّـرُوا في آلاءِ اللهِ وَلا تـفَكَّـرُوا في ذاتـهِ»[٦]!! وأما دون ذلك فإن الله سبحانه وتعالى لم يحجب الخلائق عن وجوب معرفته بل كلَّفهم ذلك كلٌّ حسب قابليته وطاقاته واستعداداته، وقـد قال الإمام الصـادقعليه السلام في ذلك: «إنَّ أفـهـامَ النـاسِ وعقـولـهُمْ مُـتَفـاوتــةٌ في قَبـولِ مَـراتبِ العِـرْفـانِ وتحْصيـلِ الاطمِـئـنـانِ كَمًّـا وكَـيْـفـاً شِـدَّةً وضـعْـفـاً سُـرْعَـةً وبـطْـئـاً حـالاً وعلْماً وكَـشْـفاً وعيـاناً وإنْ كانَ أصْـلُ المعـرِفَـةِ فِـطْـرِيـا إمَّـا ضـروريٌّ أو يُـهْـتَـدَى إليهِ بأدنى تَـنبـيـهٍ فلِـكُلِّ طَرِيقَـةٌ هَـداهُ اللهُ عـزَّ وجَـلَّ إلَيْـها إنْ كانَ مِـنْ أهْـلِ الهـدايـةِ والطُّرُقُ إلى اللهِ بعَـدَدِ أنـفـاسِ الخَـلائـقِ وهمْ دَرَجـاتٌ عِنـدَ اللهِ»[٧]!!

ولابد الإشـارة هنا إلى أن هناك فرق بين العلم والعرفان فالعلم هو الاطلاع على ذات الشيء وأما العرفان فهو العلم بآثار الشيء ومصاديقه أو هو إدراك الشيء بفكر وتدبر وهو أخص من العلم وضده الإنكار وما أحسـن ما قاله الأسـتاذ العلاّمة السيد محمد حسـين الطباطبائيرضي الله عنه في معنى العرفان أنه: «تـطـبـيـقُ الصـورَةِ الحـاصلَـةِ في المُـدْرِكَـةِ على مـا هـو مَـخْـزونٌ في الذهـنِ ولذا قـيـلَ أنــَّهُ إدْراكٌ بعْـدَ عِـلْـمٍ سـابـقٍ»[٨].

يقول العرفاء أن الإنسـان يشـعر على الـدوام بالنقص والاحتياج، وبفطرتـه الأصيلة يميل إلى من يسـد نقصـه واحتياجه، ولجبران هاتـين النقيصتين يتحرك نحـو الكمال، هذه الحركـة المعنوية الباطنية والذاتية الخفية التي تنشـأ في روح الإنسـان وقلبه وترتقي بهما تجاه الذات القدسـية وكل الكمال تُعرَف بالسير والسلوك إلى الله.

عِـبـاراتُـنا شـتَّـى وحُـسْـنُـكَ واحِـدٌ
وكُـــلٌّ إلـَـى ذاكَ الـجَـمـالِ يُـشِـيـرُ[٩]

فالسـلوك هـو طـي الطريق للوصـول إلى لقـاء جمال ذي الجـمال المطلق والسـير هو مشـاهدة آثار وخصائص المنازل التي يطويها السـالك منزلا بعد منزل والمترتبة بعضها على بعض وكلما يطوي منزلا يرقى إلى الكمال أكثر فأكثر حتى يصل إلى أوج الكمال وهو مقام الإنسان الكامل.

وعلى هذا فمبدأ السـير والسـلوك إلى الله هـو النقص والاحتياج الفطري كما قال سـبحانه وتعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَـعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[١٠]، ومنتهاه جناب الحق المنزه عن كل نقص: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[١١].

ولا شك أن الجذبة الإلهية والنفحات الرحمانية هي التي تدفع الإنسان إلى التعرف على عوالم الغيب وكشـف حقائـق عالم الوجـود، فحينما خلـق الله العباد وهو ذو المـن القديم هيأ لهم الأسـباب والعلل ليفيض عليهم من شـمائم ألطافه الغيبية ونسـائم نفحاته القدسـية التي تهبُّ عليهم بين حين وآخر كما

قال سيد المرسلين ﷺ: «إنَّ لِرَبِّكُمْ في أيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحاتٌ ألاَ فَتَعَرَّضوا لَها»[١٢]، فعلى العبد أن يقف في مهَبِّ تلك النسائم والأطياب الإلهية ويشد رحله للسير فيها والسفر إلى الله حتى تسلك به إلى لقاء مبدأ الفيض الأزلي والوجود السرمدي.

ولما كانت المعرفة والعرفان وسيلة السالك إلى الله في السير والسلوك إلى حظيرة القدس ورياض الأنس فلابد من تجرد القلب والروح من مظاهر الطبيعة المادية وكدوراتها وتطهير النفس من علائق الدنيا الدنية وشوائبها والتخلص من الإنِّية والأنانية والآثار الوجودية شيئا فشيئا والدوام في جهاد النفس ومراقبتها ومحاسبتها ثم التزين بزينة الأخلاق والتحلي بحسنات الصفات والعروج نحو التكامل المعنوي والسمو الروحي بالاستمداد من العون الإلهي والمدد الرحماني حتى تُرفع الحجب الظلمانية الناشئة في النفس وتُفتح من هذا العالم المادي منافذ تطل على ما وراء الطبيعة والعوالم العلوية والعقول المجردة عن المادة وتتصل الروح بأنوار الملأ الأعلى وتُنال بذلك المدارج العليا في الكمالات إلى أن يصل إليمقام الفناء في الله فيخرق بصر قلبه حجب النور ويكون مظهرا من مظاهر تجليات الحق تبارك وتعالى وينتهي به المقام إلى رَوْح الله ورضوانه والخلود في جنة لقائه.

والسالك في سفره إلى الله تعالى يحتاج إلى مرشد ودليل لكي يأخذ بيده ويرشده إلى الطريق المستقيم حينما تفترق أمامه الطرق فينقذه من المتاهات والظلمات والوقوع في خطر الآفات والمهلكات ويكون سبيل الله في هدايته والوصول إلى مقصده: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِينَّهُمْ سُبُلَنَا....﴾[١٣]، وخير الأدلاء على الله نور الله الأعظم النبي الخاتم الهادي البشير والسراج المنير محمد بن عبدالله ﷺ الذي قال فيه الله عز وجل: ﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ....﴾[١٤]، ومن بعده قطب العارفين ودليل القاصدين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وذريته الأئمة المعصومين عليهم السلام وهم العروة الوثقى وحبل الله المتين، ثم أولياءالله الصالحين والعلماء العاملين والعرفاء الكمَّلين الذين وصلوا إلى حقائق عالم الوجود وأسرار المُلك والملكوت وتغلغلوا في المكاشفات والمشاهدات باتباع أحكام الله من أوامره ونواهيه وجاهدوا بالرياضات الشرعية والتكاليف الإلهية حتى صاروا مظهرا من مظاهر تجليات رب العالمين، فعلى السالك أن يتخذ أحدهم مرشدا يرشده ويأخذ بيده ويوصله من حالة القوة والاستعداد المحض إلى الفعلية المعنوية.

وأما سلسلة مراشدنا الأعاظم الذين وصلوا إلى المقامات الإلهية المثلى والمراتب المعنوية العليا في عصرنا هذا فهي كما يلي:

١- الحكيم الإلهي والعارف الرباني العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي رضي الله عنه صاحب كتاب «الميزان في تفسير القرآن» (١٣٢١ هـ - ١٤٠٢ هـ).

٢- الأستاذ الأعظم عبقري الأخلاق والعرفان السيد علي القاضي التبريزي رضي الله عنه (١٢٨٥ هـ - ١٣٦٦ هـ).

٣- العارف الكامل والحكيم الإلهي السيد أحمد الكربلائي رضي الله عنه (؟ - ١٣٣٢ هـ).

٤- العالم الرباني والعارف الصمداني جمال السالكين الملا حسينقلي الهمداني رضي الله عنه (١٢٣٩ هـ - ١٣١١ هـ).

٥- العالم الفقيه والعارف الجليل السيد علي الششتري - التستري - رضي الله عنه.

٦- الملا قلي الجولا - الجولائي - رضي الله عنه.

إلى أن تنتهي حلقات سلسلة أهل العرفان إلى قطب العارفين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولقد كان المسلك العرفاني لكل مرشد من هؤلاء المراشدالعظام مطابقا للمسلك العرفاني لأستاذه والمبني أساسا على الحديث النبوي الشريف المتواتر: «مَنْ عَرَفَ نفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[١٥] فمعرفةالنفس مقدمة لمعرفةالرب وكلما عرف الإنسان نفسه تخلى عنها حتى تتلاشى تماما وتُمحى ولا يبقى منها رسم أو أثر «وعندَ الفَناءِ عَنِ النَّفْسِ بمَراتِبِها يَحْصُلُ البَقاءُ بالرَّبِّ»، وقد سُئل رسول الله صلى الله عليه وآله كيف الطريق إلى معرفة الحق فقال صلى الله عليه وآله معرفة النفس فقيل فكيف الطريق إلى موافقة الحق فقال صلى الله عليه وآله مخالفة النفس!! ولا يمكن الحصول على هذا المقام إلا بالالتزام بالمراقبة الدائمة والمناسبة لكل مرحلة من مراحل السير والسلوك إلى الله.

ويجدر بالذكر هنا أن المنهج العرفاني الذي اتبعه سلسلة مراشدنا الأعلام قائم على آيات القرآن الحكيم وأحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وآله وروايات أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام ولا يشذ عنه ولو بمقدار حبة من خردل، فالخروج عن مسار الشريعة المحمدية الغراء ليس إلا الوقوف على مفترق الطريق ثم الوقوع في المهالك وقد يؤول إلى الكفر والعياذ بالله.

وأما المسافة التي يقطعها السالك في سفره إلى الله فتنقسم إلى مراحل ومقامات علمية وعملية متتالية ويسمى كل مقام من هذه المقامات منزلا، وما لم يطوِ السالك أي منزل من المنازل لا يمكنه الانتقال إلى المنزل التالي.

وقد اختلفت أقوال العارفين في عدد المنازل وترتيبها مستندين في أقوالهم على الآيات القرآنية والروايات، فقال البعض أنه منزل واحد لا غير وهو «الفصل والوصل» أو «القطع والوصل» أو «معرفة النفس»، وقال بعضهم أنه منزلان هما الظاهر والباطن أو الشريعة والطريقة أو الشهود والغيب أو الحجب الظلمانية والحجب النورانية، وقال البعض الآخر أنه ثلاث منازل بعدد العوالم وهي عالم الطبيعة وعالم المثال وعالم العقل أو عالم المُلك وعالم الملكوت وعالم الجبروت، وقال البعض أن الحجب

والمنـازل أربعة وهي تـرك الدنيا وترك العقبى وترك المولى وترك الترك، والبعض قال أنه خمسـة منازل وهي الحضرات الخمس أو العوالم الخمس الطبيعة والمثال والروح والسر والذات، وعدَّد آخرون سبعة منازل اسـتنادا إلى ما ذكر من الآيات في «السـماوات السـبع والأرضين السـبع» فالسماوات السبع دالة عـلى الحجـب النورانية التي تتناسـب مع مراتب النفس والأرضين السـبع دالة عـلى الحجب الظلمانية التي تتناسب مع حواس الإنسان الظاهرية أو عوالم الحس والمثال والعقل والسر والسر المستسر والسر المقنَّع بالسر والذات، وبعضهم قسـمها إلى عشر منازل حسـب مراتـب الإيمان «الإيمان عشر درجات وسلمان في العاشرة» (منهم الملا هادي السبزواري رضي الله عنه)، والبعض استند إلى عدد الحجب التي كشفت عن رسول الله في المعراج فقال أنها سبعون منزلا، واستنادا إلى أسماء الله المائة قسَّم البعض طريق السير والسـلوك إلى مائة منزل (وقد قسَّـم الشـيخ عبدالله الأنصاري رضي الله عنه المنازل إلى عشرة أقسام في كل قسم عـشرة أبـواب فكان مائة منزل)، واسـتند البعـض الآخر إلى روايـات أخرى في عدد أسـماء الله فذكر ثلاثمائة وواحدا وسـتين منزلا، وذكر آخرون ألف منزل (كالمرحوم الشـيخ الشاهآبادي رضي الله عنه)، وذهب آخرون في تقسيم منازل السالكين إلى سبعين ألف منزل.

وأما منهجنا العرفاني فقد بُنِي على أساس ألف منزل من منازل السالكين إلى الله – كما استفدنا ذلك مـن فيوضات وبركات مراشـدنا الأجـلاء، ولدعوة الخلق إلى معرفة الله تبـارك وتعالى بدأنا بحول الله وقوته بطرح هذه المنازل كدروس عرفانية منذ عام ١٤٠٥ هـ في مسجد جامع الإمام زين العابدين عليه السلام ولا زالـت مسـتمرة إلى وقت طباعـة الجزء الأول من الكتـاب والذي يحتوي عـلى عشرين منزلا (من المنزل ١ إلى المنزل ٢٠).

هذا وقد ارتأينا التصرف في متون هذه الدروس ومحتوياتها مع الحفاظ على قالبها وجوهرها حسب ما يقتضيه الحال.

اللهـم إنا نسـألك يـا دليل المتحيرين ويا غاية همـم العارفين ويا نور قلوب المشـتاقين أن تصلي على محمدوآلـه الطيبين الطاهرين وأن تسـلك بنا سـبل الوصول إليك وتمهد لنا طـرق الوفود عليك وتملأ ضمائرنا من حبك وتُشرب قلوبنا بشراب أنسك وتقرَّ أعيننا بفرحة لقائك وتجعلنا من صفوتك الذين أحللتهم بحبوحة جنانك آمين إله الحق رب العالمين.

٢٠ جمادى الآخرة ١٤٢٠ هجرية

الهوامش

(١) سورة الذاريات: آية ٥٦

(٢) كشف الأسرار: ج ٨ ص ٣٨٧، بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٣٤٤

(٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٧٢

(٤) مشارق أنوار اليقين: ص ١١٢، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٣

(٥) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣٠١ نقلا عن تحف العقول

(٦) الوافي: ج ٤ ص ٣٨٣

(٧) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ١٣٧، علم اليقين: ج ١ ص ١٤

(٨) الميزان في تفسير القرآن: ج ٢ ص ٢٤٨

(٩) للشيخ البهائي رضي الله عنه

(١٠) سورة النحل: آية ٧٨

(١١) سورة النجم: آية ٤٢

(١٢) بحار الأنوار: ج٧١ ص ٢٢١

(١٣) سورة العنكبوت: آية ٦٩

(١٤) سورة آل عمران: آية ٣١

(١٥) غرر الحكم: ص ٢٦٨

منازل العرفان

(المنزل ١ - المنزل ٢٠)

المنزل (١)

التَّوْبَةُ عِنْدَ المُحِب

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم: ﴿.... وَتـُوبـُوا إِلَى اللهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنونَ لَعَلَّكُمْ تـُفْلِحُونَ﴾[١]!!

وقال سيدنا رسول الله ﷺ: «التائبُ مِنَ الذنبِ كَمَنْ لا ذَنبَ لَهُ»[٢]!!

وقال مولانا قطب العارفين أمير المؤمنين علي عليه السلام: «تُوبوا إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وادْخُلوا في مَحَبَّتِهِ»[٣]!!

فأولى مراحل دخول المحب والسالك إلى الله في العرفانيات والأخلاقيات وفي دائرة محبة الله سبحانه وتعالى هي التوبة، فهي محبوبة عند الله لقوله عزَّ وجلَّ: «.... إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوّابينَ....»[٤]، والتوبة إلى الله بالمعنى اللغوي هي الرجوع إليه عن الذنب والمعصية رجوعا قوليا وفكريا وفعليا، والرجوع القولي هو الإدامة على ذكر صيغة الاستغفار كأن يقول المستغفر «أستغفر الله ربي وأتوب إليه»، والرجوع الفكري هو العزم على عدم العود إلى ارتكاب المعصية والتفكر فيه والعلم بحقيقة التوبة واليقين بوجوبها والإسراع إليها فورا ومعرفة ضرر المعصية وما تؤول إليه من سخط الخالق وغضبه، وأما الرجوع الفعلي فهو ترك ما سبق من ارتكاب المعصية في المستقبل ورفع ظلمة القلب الناشئة عن تراكم أوساخ ما سلف من الذنوب وأدران ما مضى من المعاصي وتدارك ما فات بأنوار الطاعات والعبادات.

ووجوب التوبة عام لجميع الأشخاص ولكن كلٌّ مأمور بها حسب مقامه ومرتبته، فقد قال الصادق عليه السلام: «التَّوبةُ حبْلُ الله ومَدَدُ عنايتهِ ولابدَّ للعَبْدِ من مُداوَمَةِ التوبةِ عَلَى كلِّ حالٍ وكُلُّ فِرقةٍ من العباد لهم توبةٌ فتوبةُ الأنبياءِ من اضطرابِ السرِّ وتوبةُ الأولياءِ من

تَلويـــنِ الـخَـطَـراتِ وتوبـــةُ الأصفـيــاءِ من التنفيـسِ وتوبةُ الخاصِّ من الاشـــتـغـالِ بغيـرِ الله وتوبـــةُ العامِّ من الذنوبِ»[٥]، ولكل صنف من أصناف التوبة حقيقة ومعنى لا يسعنا شرحها في هذاَ المنزل وسوف نتطرق إليها في المنازل القادمة.

وأما مقامات التوبة فهي ثلاثة:

- المقام الأول: الندم
- المقام الثاني: الاستغفار
- المقام الثالث: الحقيقة

ولكل مقام آفة:

- آفة الـنـــــدم: طول الأمل
- آفة الاستغفار: الغفلة
- آفة الحقـيقـة: الشهوة

والتوبـة مـن الذنـوب والمعاصي والندم على ارتكابهـا لا تكون حقيقية وجادة مـا لم تكن قائمة على الأسس التالية:

- أولا: العزم على ترك ما مضى من ارتكاب الذنوب والمعاصي في الحال.
- ثانيا: حفظ حالة الندم.
- ثالثا: العزم والجزم على عدم الرجوع إلى الذنب والمعصية في المستقبل.
- رابعا: تدارك ما فات من القصور والتقصير «أتـبِْـعِ السَّـيِّـئَـــةَ الـحَـسَـنَـةَ تَـمْـحُـهـا»[٦]

قـال أبو جعفر الباقر‌عليه‌السلام في مقـام الندم: «كَفَى بـالـنَّـــدَمِ تَـوْبَـةً»[٧]!! وكفايـــة التوبـــة بالندم دليـل على أهمية الندم في التوبة لا انفراده دون غـيره فهو على وزن قول النبي‌صلى‌الله‌عليه‌وآله: «الحَـجُّ عـرَفَـــةَ»[٨] أي أن ثقل الحج في الوقوف بعرفة وهو من أهم أركان الحج وليس بمعنى أنه الركن الوحيد في الحج!! وحينما يندم الإنسـان من السـلوك في طريق الذنوب والمعاصي والآثام لابد أن يرجع ويدخل في طريق آخر، فالرجوع علامة الندم.

وثـاني مقامـات التوبة الاسـتغفار وهو كما قال أمـير المؤمنين‌عليه‌السلام درجة العليـين [٩] وقال‌عليه‌السلام أيضا: «الـعَـجَـــبُ مِـمَّـــنْ يَـقْـنَـــطُ ومَـعَـهُ الـمِـمْـحَـاةُ» فقيـل له: ومـا المِـمْـحـاة؟! فقـال‌عليه‌السلام: «الاسـْـتِـغْفـارُ»[١٠] وأفضل ساعات الاستغفار الأسحار لقوله سبحانه وتعالى: ﴿وبـالأسْـحـارِ هُمْ يَسْـتَغْـفِرون﴾[١١] وما ورد في قصة إخوة يوسـف‌عليه‌السلام حينما اعترفوا بذنوبهم وطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم فأخرهم إلى السَّحر لدليل على أن الدعاء والاستغفار مستجاب فيه.

وأما المقام الثالث من مقامات التوبة فهي الحقيقة، بمعنى أن الإنسان إذا علم علما يقينيا أن كل ذنب سمٌّ هالك يؤثر على قلبه وإيمانه وعقيدته وأن ارتكاب الذنب يجعل بينه وبين الله سدا وحائلا فيندم ويستغفر ويرجع إلى الله هنالك يتبدل العلم واليقين إلى حقيقة راسخة في قلبه فلا يتفكر يوما أن يعود الإنسان إلى الذنب ثانية.

عن كميل بن زياد قال: قلت لأمير المؤمنينعليه السلام يا أمير المؤمنين العبد يصيب الذنب فيستغفر الله منه فما حد الاستغفار؟! قال: يا ابن زياد التوبة، قلت: بس؟! قال: لا، قلت: فكيف؟! قال: إن العبد إذا أصاب ذنبا يقول أستغفر الله بالتحريك، قلت: وما التحريك؟! قال: الشفتان واللسان يريد أن يتبع ذلك بالحقيقة، قلت: وما الحقيقة؟! قال: تصديق في القلب وإضمار أن لا يعود إلى الذنب الذي استغفر منه، قال كميل: فإذا فعل ذلك فإنه من المستغفرين؟! قال: لا، قال كميل: فكيف ذاك؟! قال: لأنك لم تبلغ إلى الأصل بعد، فقال كميل: فأصل الاستغفار ما هو؟! قال: الرجوع إلى التوبة من الذنب الذي استغفرت منه وهي أول درجة العابدين [١٢]!!

أيها السالك إلى الله!! إذا أحببت إنسانا في هذه الدنيا وتعلم أنك إذا عملت عملا يجعل بينك وبين محبوبك حجابا وبعدا ونفورا فمن الاستحالة أن تعمله ابتغاءً لرضاه وأملا في قربه وما ذلك الحب إلا حب مجازي زائل فكيف بالمحبوب الحقيقي الدائم وهو الله سبحانه وتعالى!!

إذا طلعت الشمس على مكان ما وكان ذلك المكان في ظلام حالك فما آثار طلوع الشمس عليه؟! من البديهي أن آثاره ليست إلا الضياء والنور، كذلك إذا أشرقت شمس الحقيقة واليقين والعلم على قلبك فهذا ضياء كل خير ونور كل سعادة.

ومن آثار حقيقة التوبة تألم القلب على ما فات من البعد عن المحبوب والاحتجاب عنه والتأسف على ما صدر من المعاصي والذنوب، وهذا التألم هو عين الندم وحقيقته، وكما قال الفيض الكاشانيرضي الله عنه [١٣] في كتابه «الحقائق في محاسن الأخلاق»: «مهما أشرق نور الإيمان على القلب أثمر نار الندم على الذنب فيتألم به القلب حيث يبصر بإشراق نور الإيمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يشرق عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فسطع عليه النور بانقشاع سحاب أو انحسار حجاب فرأى محبوبه قد أشرف على الهلاك ويشتعل نيران الحب في قلبه فتنبعث بتلك النيران إرادته للانتهاض للتدارك»[١٤]!!

حينما ينظر الإنسان إلى محبوبه المجازي فهو ينظر إلى الوجود العيني الخارجي لهذا المحبوب والمعشوق فيحترق قلبه وترتعد فرائصه، وكذلك إذا وصل السالك إلى الله إلى الحقيقة وعاشها على الدوام يحترق قلبه شوقا ولا يفكر بالرجوع إلى الذنوب والمعاصي.

وأما آفات المقامات الثلاثة في منزل التوبة فهي على التوالي:

آفة مقام الندم طول الأمل، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾[١٥]!! والأمل خصيصة موجودة في كل طبيعة بشرية وتدعو الإنسان إلى البقاء والإبقاء على حاله، وطول الأمل هو الاعتقاد بالبقاء إلى مدة متمادية، وما لم يكن لدى الإنسان يقين بالبقاء إلى يوم أو شهر أو شهرين أو سنوات ويعتقد اعتقادا راسخا بأنه قد يموت في أية لحظة فكيف تكون له الجرأة على المعصية؟!

لذا فطول الأمل آفة في طريق الندم وتعطيله، فالإنسان قد يندم على ارتكاب الذنوب والمعاصي ولكنه لا يرجع إليها إلا لطول الأمل، فيقول مثلا أنا الآن شاب وفي مقتبل العمر والطريق أمامي طويل وسوف أتوب بعد الأربعين من عمري!!

لنسمع في هذا المقام قول سيد العارفين أمير المؤمنين عليه السلام حينما سأله رجل أن يعظه فقال: «لا تَكُنْ مِمَّنْ يَرْجو الآخِرَةَ بغيرِ العَمَلِ ويَرْجُو التَّوبةَ بطولِ الأمَلِ»[١٦]!!

وقال عليه السلام أيضا: «أيُّها النَّاسُ إنَّ أخْوَفَ ما أخافُ عليكُمْ اثنتانِ اتباعُ الهَوَى وطولُ الأملِ»[١٧]!!

وعنه عليه السلام أيضا: «لَوْ رَأى العَبْدُ أجَلَهُ وَسُرْعتَهُ إلَيْهِ لأبغض الأملَ وطَلَبَ الدُّنيا»[١٨]!!

وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم: «يا هِشامَ لَوْ رَأيتَ مَسيرَ الأجَلِ لألهاك عَنِ الأملِ»[١٩]!!

فما علاج طول الأمل؟!

علاجه زيارة القبور وذكر الموت وقراءة القرآن، وفيها آثار كثيرة، وكثيرا ما كان يوصي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أصحابه بذكر الموت فيقول: «أكْثِروا ذِكْرَ المَوتِ فَإنَّهُ هادِمُ اللَّذاتِ حائلٌ بينكمْ وبينَ الشَّهَواتِ»[٢٠]!!

رضوان الله على أرواح أساتذتنا ومراشدنا وأفاض الله علينا من بركات تربتهم فقد كانت زيارة القبور ضمن برامجهم ومناهجهم، لأن النظرية والبحث دون النظر والمعاينة، وأنت حينما تدخل في المقبرة وترى قبور الوزراء والوكلاء ورجال الثروة والأغنياء وترى ما تركوه من القصور والأموال تقول هذه قصورهم وهذه قبورهم!! أولئك الذين رتبوا برامجهم من الناحية العقلية والفكرية والتخطيطية ومع تلك البيوت والقصور والثروة وتلك الإرتباطات العالمية وعدم التمييز بين الحلال والحرام والاستهانة بارتكاب المعاصي والذنوب و.... و.... ومن ثم سافروا إلى العالم الآخر!! هنالك تعرف معنى طول الأمل وآفته!!

أيها الإنسان لابد من يوم تدخل هذا القبر الموحش، فهل فكرت في بيتك الجديد وأعددته لغدك؟!

كانت هناك فتاة (وكانت لديها بعض المقامات الروحانية) تعيش في النجف الأشرف، ولما توفي والدها دفن في مقبرة وادي السلام – مدفن العلماء والعرفاء – ، وفي الليلة الأولى من دفنه أبت أن تترك قبر والدها وترجع إلى بيتها فجلست عند قبره باكية حزينة، وفي بعض حالات الكشف رأت منكرا ونكيرا يدخلان قبر والدها، وأخذا يسألانه: من ربك؟! من نبيك؟! ما كتابك؟!....، ثم رأت الملكين وهما يضربانه ضربات موجعة وهو يصرخ وينادي، فلم تتحمل الفتاة ذلك وقامت من مكانها وقد اشتعل رأسها شيبا من شدة تأثرها بذلك المنظر المهول!!

أيها الإخوة!! من لم يستفد من ضياء معرفة الله ونور العرفان في حياته ولم يتبدل إيمانه إلى حقيقة في ذاته وملكوته كيف لا تؤثر عليه أهوال الموت؟!

نحن نرى أن هذا الإنسان الضعيف حينما يعتل في حياته الدنيا وترتفع حرارة بدنه تراه يهذي ويهجر ويفقد خلفياته، فكيف به حينما يُسأل من ربك لا يعرف كيف يتكلم ويجيب!!

عجباً لهذا الإنسان الذي كان لسنوات عديدة يقول لا إله إلا الله لكنه اليوم لا يقدر على التكلم!! لماذا؟! لضعف إيمانه وعرفانه.

وأما الاستغفار فآفته الغفلة، ونعوذ بالله من الغفلة فهي أساس كل جرم وذنب ومعصية كما يقول الإمام الصادق﵇: «الغَفلَةُ مِصطادُ الشَّيطانِ ورأسُ كُلِّ بَليَّةٍ وسَبَبُ كُلِّ حِجابٍ»[٢١]!!

هذا الإنسان الغافل يحارب مَن؟! يحارب الله عزَّ وجلَّ!! فاحذر أخي من الغفلة لأنها مصيدة الشيطان الذي يجعل الإنسان في غفلة عن ربه وعن نفسه من حيث لا يشعر ويظهر الأمور على غير ما هي عليه فيبرز الباطل في صورة الحق والكذب في هيئة الصدق.

وأما آفة الحقيقة فهي الشهوة، (وكلما ارتفعت المقامات تقوى الآفات) فكل شهوة ذميمة دخلت في ذاتك وضميرك وقلبك بعد دخول الحقيقة فهي آفة كبرى.

وقد قال الإمام الصادق﵇: «مَنْ رَعَى قَلْبَهُ عَنِ الغَفْلَةِ ونَفْسَهُ عَنِ الشَّهْوَةِ وعَقْلَهُ عَنِ الجهلِ فَقَدْ دَخَلَ في ديوانِ المُتَنَبِّهينَ»[٢٢]!!

إلهنا!! نسألك أن تأخذ بأيدينا ولا تكتبنا في الغافلين المبعدين!!

إلهنا وسيدنا ومولانا!! اجعلنا من الآملين بك لا بسواك وهيء لنا أسباب الانتباه واليقظة ولا تجعلنا من أهل الجهالة والغفلة آمين رب العالمين.

الهوامش

(١) سورة النور: آية ٣١
(٢) وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٧٥
(٣) بحار الأنوار: ج ٦ ص ٢١ نقلا عن خصال الشيخ الصدوق
(٤) سورة البقرة: آية ٢٢٢
(٥) بحار الأنوار: ج ٦ ص ٣١ نقلا عن مصباح الشريعة
(٦) من أقوال رسول الله ﷺ - بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٣٩٣
(٧) أصول الكافي: ج ٢ ص ٤٢٦، وسائل الشيعة: ج ١٦ ص ٥٩
(٨) مستدرك الوسائل: ج ١٠ ص ٣٤، عوالي اللآلئ: ج ٢ ص ٩٣
(٩) قال عليه السلام لقائل بحضرته أستغفر الله: «ثكلتك أمك أتدري ما الاستغفار!! إن الاستغفار درجة العليين» - شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٥٦
(١٠) بحار الأنوار: ج ٦ ص ٢١ نقلا عن أمالي الشيخ المفيد رضي الله عنه
(١١) سورة الذاريات: آية ١٨
(١٢) بحار الأنوار: ج ٦ ص ٢٧ نقلا عن تحف العقول
(١٣) الملا محسن محمد بن شاه مرتضى بن شاه محمود الكاشاني الملقب بـ«المحسن» والمعروف بـ«الفيض الكاشاني» من علماء الإمامية الأجلاء في القرن الحادي عشر الهجري وصهر صدر المتألهين الشيرازي المعروف بالملا صدرا، جامع المراتب العالية في العلوم العقلية والنقلية والفقهية والأصولية وجامع بين الشريعة والطريقة ذهب إلى شيراز لتحصيل العلم وحضر درس السيد ماجد البحراني في الحديث وتعلم الحكمة من الملا صدرا، ومن تلامذته العلامة المجلسي والسيد نعمة الله الجزائري والقاضي سعيد القمي ضاهت مؤلفاته الـ ١٢٠ مؤلفا منها: الوافي، الصافي، المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء، علم اليقين، ولد عام ١٠٠٧ هـ وتوفي رحمه الله عام ١٠٩١ هـ.
(١٤) الحقائق في محاسن الأخلاق: ص ٢٨٦
(١٥) سورة الحجر: آية ٣
(١٦) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٣٥٦
(١٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢ ص ٣١٨
(١٨) بحار الأنوار: ج ١٠ ص ٣٦٨
(١٩) بحار الأنوار: ج ١ ص ١٥٦
(٢٠) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٣٢ نقلا عن أمالي الشيخ المفيد
(٢١) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ١١٠ نقلا عن مصباح الشريعة
(٢٢) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٦٨ نقلا عن مصباح الشريعة

المنزل (٢)

الإخْلاصُ عِنْدَ المُحِب

أيها السالك إلى الله!! لا يتحقق الإخلاص لله عزَّ وجلَّ دون العلم والمعرفة، فبهما تعرف معنى الإخلاص ومقامات الإخلاص وآفات الإخلاص ثم تدخل في السلوك إلى الله وتصل إلى المقامات والدرجات.

والإخلاص لله عزَّ وجلَّ هو تجريد العمل وتصفيته عن كل شائبة وقصد القربة إليه وحده دون قصد شيء آخر، وقال بعض أرباب هذا الفن أن الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين!! وقال بعض أصحاب القلوب أن الإخلاص إخراج الخلق عن معاملة الحق.

ودرجة الإخلاص عظيمة المقدار رفيعة المعنى صعبة المرتقى إلا لمن اجتهد فيها مجاهدة تامة، فقد قال النبي المصطفى ﷺ مخبرا عن جبريل عليه السلام عن الله عزَّ وجلَّ: «الإخْلاصُ سِرٌّ مِنْ أسْراري اسْتَوْدَعْتُهُ قَلْبَ مَنْ أحْبَبْتُ مِنْ عِبادي»[(١)]!!

ومقامات الإخلاص ثلاثة:

- الإخلاص في التوحيد
- الإخلاص في الأحوال
- الإخلاص في الأفعال

وأما المقام الأول: الإخلاص في التوحيد:

وللتوحيد أقسام أربعة:

- التوحيد الذاتي

- التوحيد الصفـاتي
- التوحيد الأفـعـالي
- التوحيد العبـادي

فالتوحيد الذاتي هو الاعتقاد بأن الله لا شريك له ولا نظير ولا شبيه ولا مثيل والذات الإلهية تكون بحيث لا تقبل التعدد والتكثر، والتوحيد الصفاتي هو الاعتقاد أن صفاته عين ذاته، والتوحيد الأفعالي هو التوحيد في أفعال الله وأنه لا مؤثر في الوجود إلا هو وأنه مبدأ كل وجود وفعل، والتوحيد العبادي إفراد خالق الكون بالعبادة وهو الأصل المشترك في جميع الشرائع السماوية.

وعلى السالك إلى الله أن يكون مخلصا في جميع أقسام التوحيد، وبعد طي مقام الإخلاص في التوحيد يدخل في مقام الإخلاص في الأحوال.

المقام الثاني: الإخلاص في الأحوال:

إذا كان التوحيـد حسـب منهـج السـالكين والعارفين فكل لحظـة يكون لهذا الإنسـان حال وعليه أن يكـون في كل الأحـوال مخلصا لله سـبحانه وتعـالى، ولابد من معرفة آفـات الإخلاص في الأحوال والأفعـال حتـى يمكـن تفاديها والدخـول في طريق الإخـلاص في كل من الأحـوال والأفعال، وعند العرفاء وعلماء الأخلاق الكثير من الأقوال في هذا المقام ولكن منهجنا هو منهج أسـاتذتنا ومراشـدنا رضوان الله تعالى عليهم.

والمقام الثالث: الإخلاص في الأفعال:

والفعـل ينتـج بعد الحال، وقبول كل فعل وعمل يحتـاج إلى النية الخالصة وقصد وجه الله عزَّ وجلَّ وحده.

وآفـة الإخـلاص في الأحـوال والأفعال هي مطلق الدعـوى دعوى العلم، دعـوى الكرم، دعوى السـخاء، دعـوى الفقه، دعوى الأصول... إلخ والناتجة كلها عن حب النفـس واتباع أهوائها الباطلة وملذاتهـا الكاذبة، فإذا وجد الإنسـان يوما في نفسـه وضميره مقدمات الدعوى وقـال أنا الكاتب، أنا القائـل، أنـا العارف، أنا الفقيه، أنـا...، أنا... وأية أنانية من هذا القبيل تلك هي الدعوى، وتنكشـف هذه الآفة الباطنية المهلكة والمسـتقرة في سر القلب عند ظهور أحد من الأقران أكثر علما منه وأحسـن حالا بحيث يصرف الناس عنه فيشق عليه ذلك!! فما هو العلاج؟!

إذا عرفـت أن آفـة الإخـلاص في الأحـوال هي مطلق الدعـوى فعلاجها إخراج دافـع النفس من الأحوال.

وبما أن آفة الإخلاص في الأفعال هي مطلق الدعوى فعلاجها إخراج رضا الخلق من الأفعال.

وهنا لفتة عرفانية دقيقة وهي أن الأحوال تموجات نفسية باطنية وليست لها مظاهر خارجية وعينية وأما الأفعال فلها مظاهر خارجية وعينية، ولذا يذكر العرفاء كلمة «النفس» في علاج آفة الإخلاص في الأحوال ويذكرون كلمة «الخلق» في علاج آفة الإخلاص في الأفعال.

إذا أردت أن تفعل شيئا فهذا الفعل إما أن يكون للخلق أو الخالق، والإخلاص للخالق هو إخراج الخلق عن كل قصد وعمل، والإخراج يحتاج إلى فاعل والفاعل هو أنت أيها السالك، فإخراج رضا الخلق لا يتحقق إلا إذا كنت تريد ذلك.

قد يعتاد الإنسان أحيانا على القيام ببعض الأعمال العبادية الشاقة كالتيقظ من النوم في الشتاء البارد لأداء صلاة الليل أو صوم شهر رمضان في الصيف الحار والنهار الطويل أو الذهاب إلى الحج كل عام في حين أنه إذا طلب منه إنسان ماء استثقل ذلك وأبدى بعض الضجر والكسل!! فهل كانت تلك العبادات إلا عادة تخلو من الإخلاص وحقيقة القربة إلى الله تعالى!!

يحكى أن أبا محمَّد المرتعش حج إلى بيت الله الحرام ١٣ مرة وقال علمت يوما أن حجي لم يكن لله بل للشيطان لأن أمي طلبت مني ذات يوم ماء وقالت لي: يا أبا محمَّد أعطني ماء فقلت: يا عجوز، لِمَ لَمْ تناديني يا حجي أبو محمَّد وناديتني يا أبو محمَّد!! من هنا عرفت أن حجي لم يكن لله بل للاسم والشهرة فتبت إلى الله وحجيت للمرة الرابعة عشر!

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿.... فَمَن كانَ يَرْجو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً....﴾[٢] أي لا يشوبه فساد، ثم يقول: ﴿.... وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً...﴾ أي لا يذل نفسه إلا لله تعالى، وهنا نتوقف عند كلمة ﴿ولا يُشْرِكْ﴾!! فنحن بين خطين، بين الخلق والخالق، فإذا أخرجنا من أنفسنا رضا الخلق فلا يبقى أمامنا طريق إلا رضا الخالق، وعلى هذا فعدم الشرك بالله هو الإخلاص له.

حينما تبني مسجدا هل كان بناء المسجد لنفسك واسمك أم لله!! هل كان وَقفا باسمك أم لمطلق الخيرات!!

ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿.... فَمَن كَانَ يَرْجو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أحَداً....﴾، فإذا ما عملت لرضا الناس وكلام الناس بل كان عملك خالصا لوجه الله وحده ورجاؤك لقاء الله سبحانه وتعالى هنالك يمكنك أن تقول بكل وجودك: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ الْعَالَمينَ﴾[٣]!!

العالم العامل والعارف الكامل جمال السالكين مرحوم آية الله الميرزا جواد آقا الملكي التبريزي رضي الله عنه[٤] كان عالما مجتهدا وفقيها ومرجعا دينيا يقلده الكثيرون، ولكن انظر إلى مصداق ﴿مَن كانَ يَرْجو لِقاءَ رَبِّهِ﴾ وكيف إذا أراد الله شيئا هيأ له أسبابه!!

رأى الميرزا أنه بحاجة إلى العرفان والمرشد الروحي ليأخذ بيده ويدخله في هذا السبيل حتى يصل إلى الله سبحانه وتعالى، فجاء إلى النجف ودخل في درس (مرشدنا الأكبر) الآخوند ملا حسينقلي الهمداني رضي الله عنه [٥]!!

(صحيح أن دروس العرفان التي نطرحها قد أخذناها من أساتذتنا ومراشدنا لا سيما سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه والذي كان تلميذا للميرزا جواد آقا الملكي التبريزي رضي الله عنه والسيد علي القاضي رضي الله عنه إلا أن سلسلة هؤلاء العلماء والعرفاء وأولياء الله تنتهي إلى المرشد الأكبر الآخوند ملا حسينقلي الهمداني رضي الله عنه).

وقد لاحظ الميرزا قبل أن يدخل في دروس الآخوند أن العلماء الذين يحضرون تلك الدروس في المسجد يخرجون من المجلس كأنهم سكارى يتمايلون يمينا وشمالا، حتى سأل ذات يوم رجلا وقال: أي درس يحضر هؤلاء العلماء؟! فقال الرجل: درس الآخوند!! فقال: وما درسه؟! قال: لا أعرف ولكن كل ما أعرفه أن في درسه نَفَس خاص يؤثر في النفوس!!

دخل الميرزا الملكي - وهو فقيه ومرجع - وجلس في درس الآخوند فلم يعره الآخوند أي اهتمام فذهب إليه يوما وقال له: مولاي جئتكم من مكان بعيد لكي أستفيد من محضركم، فردَّ عليه الآخوند قائلا: هل أنت صادق في كلامك؟! فقال الميرزا: بالتأكيد، فقال: للعرفان منازل وأنماط، ولتطبيق النمط الأول عليك أن تأتي غدا عند أذان الفجر وتقف عند باب حرم أمير المؤمنين عليه السلام وتقوم بترتيب نَعْل الزوار الذين يخرجون من الحرم!!

(أيها السالكين إلى الله، قد يكون العرفان النظري سهلا ويتحدث فيه الكثيرون ولكن تطبيق العرفان العملي أمر صعب ولابد من المجاهدة والرياضة [٦]، فهل نحن مستعدون يوما أن نقف عند باب المسجد أو الحسينية ونرتب نعل المصلين والزائرين!! هيهات أن يكون ذلك إلا بتهذيب النفس، وكما قيل «أحب الصالحين ولست منهم»، فلابد من الممارسة والتطبيق العملي للإخلاص في الأحوال والأفعال وإخراج دافع النفس من الأحوال وإخراج رضا الخلق من الأفعال، وجَعْل النفس كالسجادة التي لا يمكن إخراج الغبار منها إلا بضربها بقوة!!)

فكَّر قليلا كيف يراه الناس وهو عالم مجتهد وشيخ كبير محترم بين الناس على هذا الحال!!

فقال الميرزا في نفسه: يا ميرزا جواد!! لقد دخل الكثير من الغبار في نفسك وضميرك وأحوالك وأفعالك، وأنت بحاجة إلى ضربات قوية حتى تُخرِج ذلك الغبار، وبعد الإخلاص في الأحوال والأفعال تدخل للقاء الله سبحانه وتعالى!!

بدأ الصراع بينه وبين نفسه، بين دافع النفس وتهذيبها!! بين رضا الخلق ورضا الخالق!! فوقف عند

الباب وهو يتفكر مليّاً ويقول: أفعل أم لا أفعل!! ولكنه تغلب في النهاية على هوى نفسه فعزم وبدأ بالدخول في هذا المسلك والطريق وشرع بترتيب النعل، وكان ذلك عمله في كل صباح!!

بعد مرور أيام ذهب الميرزا إلى الآخوند وقال له: مولانا، والآن ما هو النمط الثاني؟! فقال الآخوند: لا تتكلم، إذا حان الوقت أخبرتك، إلى أن ناداه يوما من الأيام وقال له: يا جواد، الآن حان وقتك!!

(طوبى لمن وصل إلى المقام الذي يناديه مرشده الروحي ويقول له تعال!!)

ثم بدأ معه النمط الثاني، والثالث، والرابع،..... حتى أصبح الميرزا جواد آقا الملكي التبريزي المعروف بصاحب أسرار الصلاة!!

«اللَّهم لك قلبي ولساني وبك نجاتي وأماني وأنت العالم بسري وإعلاني فأمِت قلبي عن البغضاء وأصمت لساني عن الفحشاء وأخلص سريرتي عن علائق الأهواء واكفني بأمانك عن عوائق الضراء واجعل سري معقودا على مراقبتك وإعلاني موافقا لطاعتك وهب لي يقينا صادقا في حبك وهمة متصلة بك إنك ولي الحمد والمستولي على المجد برحمتك يا أرحم الراحمين».

الهوامش

(١) إحياء علوم الدين: ج ٤ ص ٣٢٢

(٢) سورة الكهف: آية ١١٠

(٣) سورة الأنعام: آية ١٦٢

(٤) درس الميرزا جواد آقا الملكي التبريزي (قده) في النجف الأشرف وأكمل دراساته الدينية عند كبار العلماء الأعلام وتتلمذ في الفقه والأصول على الأستاذ العلامة الشيخ آقا رضا الهمداني﵀ والعلامة النوري﵀ والآخوند الخراساني﵀ وغيرهم وأخذ علوم الأخلاق والسلوك والفضائل النفسانية من مظهر أنوار الهداية العالم الملكوتي المعروف بالملا حسينقلي الهمداني﵀، ثم انتقل إلى مدينة قم المقدسة وأقام فيها وبدأ بوظائفه العلمية والعملية هناك، وقد كان (قده) مصداقا بارزا لعلامات الإيمان وآثار اليقين وكان قلبه الشريف كقطعة لهيب يتأجج من حب الله سبحانه وتعالى وخلفائه على الأرض وهم أهل بيت النبوة﵈ وقد توفي﵀ في يوم عيد الأضحى عام ١٣٤٣ هـ ومن مؤلفاته المشهورة: - أسرار الصلاة - لقاء الله والسلوك إليه المعروفة بالرسالة اللقائية - المراقبات أو أعمال السنة - رسالة في الفقه - رسالة في الأصول.

(٥) العارف الكامل آية الله العظمى الآخوند ملا حسينقلي دَرْجَزيني الهمداني، ولد عام ١٢٣٩ هـ في مدينة همدان في إيران، درس في مدرسة مروى في مدينة طهران وحضر دروس الفقيه الشيخ عبدالحسين تهراني المشهور بشيخ العراقين، ثم اتجه إلى سبزوار للاستفادة من دروس الفلسفة في حوزة فيلسوف العصر الحكيم الإلهي الملا هادي السبزواري﵀، ومن ثم توجه إلى العتبات المقدسة وحضر دروس خاتم الفقهاء وجمال الزاهدين الشيخ مرتضى الأنصاري (المتوفي عام ١٢٨٣ هـ)، وعن طريق الشيخ الأنصاري حضر دروس السيد علي الشوشتري﵀ وأولاه السيد عناية خاصة ووصل إلى مراتب عالية من العلم والعمل، وبعد وفاة الشيخ الأنصاري عام ١٢٨٣ هـ قرر الآخوند على إتمام الدروس الفقهية التي توقف عندها الشيخ الأنصاري فأرسل إليه السيد علي الشوشتري رسالة يبين له أنه لم يكمل السير بعد وأمامه مقامات لابد من الوصول إليها، تأثر الآخوند بكلمة أستاذه فترك تدريس الفقه ورجع ثانية إلى دروس السيد الشوشتري إلى أن أصبح قائم مقام السيد الشوشتري في مكتبه الأخلاقي وغدا آية عظمى في تربية وتهذيب النفوس المستعدة والسير بها من عالم المادة إلى عالم المعنى وعالم القدس والملكوت، وكان من أبرز تلامذته السيد أحمد الكربلائي والسيد أبو القاسم الإصفهاني والشيخ محمد بهاري الهمداني والميرزا جواد آقا الملكي التبريزي والسيد محمد سعيد الحبوبي وغيرهم من أساطين العرفان والتوحيد، وتوفي الآخوند الهمداني في ٢٨ من شهر شعبان عام ١٣١١ هـ وهو في طريقه إلى زيارة سيد الشهداء﵇ ودفن جثمانه الطاهر في الحائر الحسيني.

وقد ذكر المرحوم العلامة آية الله الشيخ آقا بزرك الطهراني في المجلد الثاني من «نقباء البشر» نقلا عن «أعيان الشيعة» من ص ٦٧٤ - ٦٧٨ في شرح أحوال الآخوند ملا حسينقلي الهمداني ما يلي: «وهو في خُصوصِ

هـذا العلـمِ (يعني علم الأخلاق) أمْـرٌ عظيم لا يحدُّه وصْف فقد مَضَت حُقبـةٌ طويلةٌ لم يجـدْ خلالها الزمنُ بـمَـنْ ماثلَـه في علمِ الأخْلاقِ وتهذيبِ النفوسِ وقد خُـتِـم به هذا الفنُّ فلَمْ يَـنْـبَـغِ بعـدَه مَـنْ يكونُ له ما كَانَ للمترجَمِ له بحيث يُعَـدُّ نظيـراً له».

(٦) الرياضة من أهم المباحث والمصطلحات العرفانية وهي بمعنى تهذيب الأخلاق النفسـية، وخير تعريف لها ما ذكره الشيخ الرئيس ابن سينا فقال: «ثم أنه – أي السالك – ليحتاج إلى الرياضة، والرياضة متوجهة إلى ثلاثة أغراض: الأول تنحية ما دون الحق عن مسـتن الإيثار، والثاني تطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة لينجـذب قـوى التخيل والوهم إلى التوهمات المناسـبة للأمر القدسي منصرفة عن التوهمات المناسـبة للأمر السفلي، والثالث تلطيف السر للتنبه، والأول يعين عليه الزهد الحقيقي والثاني يعين عليه عدة أشياء العبادة المشـفوعة بالفكـرة ثم نفس الـكلام الواعظ من قائل زكي بعبارة بليغة ونغمة رخيمة وسـمت رشـيد وأما الغـرض الثالـث فيعين عليـه الفكر اللطيف»، وقال بعـض العرفاء أن الرياضة تذليـل الصعب من الأمور فمـن ذلـل صعبا فقد راضـه وأزال عن النفس جموحها فإنها تحب الرياسـة والتقدم على أشـكالها والرياضة تمنـع النفـس من هذا الخاطـر وسـلطانه،والمجاهدة مصطلح عرفاني عمـلي وتعني حمل النفس على المشـاق البدنية ومخالفة الهوى وتحريم النفس من المألوفات وكل ما يبعد السالك عن الله ويقربه من حظوظ النفس، وتتضمن الرياضة المجاهدات البدنية ولا تتضمن المجاهدات الرياضة النفسية.

المنزل (٣)

الإِرادَةُ عِنْدَ المُحِب

كل عمل وفعل في عالم الوجود لا يتحقق إلا بالإرادة، وآراء العرفاء والمحققين حول مقام الإرادة كثيرة، وقد صنَّف الكثير من العرفاء والحكماء منزل الإرادة كأول منزل من منازل العارفين والسالكين إلى الله كالشيخ الرئيس أبي علي بن سينا في كتاب «الإشارات»[١].

ومن أساسيات العرفان معرفة الإرادة حتى يمكن بذلك معرفة المراد والمريد وفناء المريد في المراد إلى غير ذلك من المشتقات، والإرادة مقدمة لكل أمر، وما لم يُرِد العبد شيئا لم يفعله، مثلا تريد أن تأتي إلى المسجد فتأتي وتريد أن تسمع الدرس فتجلس لتسمع، وإذا لم تُرِد ذلك كان بإمكانك أن لا تجلس ولا تسمع.

والمريد في المصطلح اللغوي من مشتقات كلمة الإرادة وتعني من كانت له الإرادة، وفي بحثنا هذا المريد هو من تجرد عن إرادته وذابت إرادته في إرادة الله سبحانه وتعالى.

يقول الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا في «الإشارات» في مقام الإرادة: هو ما يعتري المستبصر باليقين البرهاني أو الساكن النفس إلى العَقْد الإيماني من الرغبة في اعتلاق العروة الوثقى فيتحرك سرُّه إلى القدس لينال من روح الاتصال فما دامت درجته هذه فهو مريد[٢].

ويقول بعض العرفاء أن حقيقة الإرادة هي نهوض القلب في طلب الرب وحركة القلب إلى الحق، ويقول بعض الأفاضل أن الإرادة هي تحريك الأسباب نحو الحق بحركة نفسانية، ويقول العارف الصمداني بابا طاهر العريان[٣]: من أراد الحق فارق الخلْقَ ونفسُه من جملة الخلْق!! ويقول بعض شيوخ العرفان في معنى الإرادة أنها قصد خاص في المعرفة بالله وهي أن تقوم به إرادة العلم بالله من فتوح المكاشفة لا من

طريق الدلالة بالبراهين العقلية فتحصل له المعرفة بالله ذوقا وتعليما إلهيا فيما لا يمكن ذوقه.

والمعنى الآخر للإرادة ما قاله أحد المشايخ - وهذا ما نركز عليه في بحثنا وبالذات في العرفان العملي - هو ترك ما عليه العادة، فللإنسان عادات كثيرة كونه يميل إلى العيش في المواطن المألوفة كموطن الشهوة وموطن الغضب وموطن الغفلة وموطن حب المال والجاه وموطن التمني والترجي..... وغيرها من المواطن، فإذا دخل السالك في العرفانيات والسلوك إلى الله وتاب إليه وأصبح مخلصا فعليه أن يترك العادات، أما إذا رجع إلى عاداته بعد الدخول في هذا الطريق فقد تعرَّض لآفة الإرادة، وآفة الإرادة الرجوع إلى العادات.

على هذا فالإرادة هي تجرد السالك المريد عما سوى الله وبذل كل طاقاته واستعداداته في سبيل المراد، وإذا أراد السالك أن يعرف إن كان قد وصل إلى هذا المقام أم لا فلينظر في نفسه هل ترك عاداته السابقة أم لا، ثم لينظر بعد ذلك أن لا يكون هناك أي أثر من آثار إرادته أمام إرادة المراد، أما إذا رجع إلى عاداته فإن في ذلك خطر عظيم في حياته وسيره إلى الله ألا وهو السقوط عن تلك المقامات، ولذا عليه - بعد التوبة والإخلاص والوصول إلى مقام الإرادة - أن ينتبه ويحذر الشيطان كي لا يفتح له بابا للرجوع إلى العادات!!

يقول العرفاء في بحث الإرادة (وقد يكون كلامهم صعبا ولكن لا بأس من الإشارة إليه) أن الإرادة هي إسقاط الإرادة، فإذا أراد الله سبحانه وتعالى بعبد خيرا أسقط عنه الإرادة وصار مريدا متفانيا في إرادة المراد وهو الله سبحانه وتعالى، وقد أوحى الله إلى داودعليه السلام: «يا داوُدُ! تُرِيدُ وأُرِيدُ ولا يكون إلا ما أُرِيدُ فإنْ سَلَّمْتَ لِما أُرِيدُ أعطَيتُكَ ما تُرِيدُ وإنْ لَمْ تُسَلِّمْ لِما أُرِيدُ أتْعَبْتُكَ فيما تُرِيدُ ثُمَّ لا يَكونُ إلا ما أُرِيدُ»[٤]!!

فكل ما يريد العبد لا يتحقق وإن كان من عباد الله الصالحين إلا إذا أُسقِطَت إرادته وذابت في إرادة المراد وهو المولى عزَّ وجلَّ.

هذا ما يكون عليه عباد الله الصالحون وأما بالنسبة للآخرين فهناك مصاديق كثيرة منها على سبيل المثال لا الحصر حينما قتل فرعون ثلاثمائة ألفا من أبناء بني إسرائيل الذكور يريد بذلك تغيير المقادير والإرادة الإلهية ولكن الله أراد لموسىعليه السلام البقاء وكان ما أراد!!

ونشير هنا إلى بعض فضائل نبينامحمَّدصلى الله عليه وآله على بعض الأنبياء في هذا المقام:

قال الخليلعليه السلام: ﴿**واجْعَلْ لي لِسانَ صِدْقٍ في الآخِرِينَ**﴾[٥] وأما الحبيبصلى الله عليه وآله فقد قال الله تعالى فيه: ﴿**ورفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ**﴾[٦]، وسأل الخليلعليه السلام ربه وقال: ﴿.... **واجْنُبْنِي**

وبَـنِـيَّ أَنْ نَـعْـبُـدَ الأَصْـنَـامَ﴾[٧] وقال الله تبارك وتعالى للحبيب ﷺ: ﴿إنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِـيُـذْهِـبَ عَـنكُـمُ الـرِّجْـسَ أَهْـلَ الْـبَيْتِ ويُـطَـهِّـرَكُـمْ تَـطْـهِـيراً﴾[٨]!!

وعلى هذا فالخليل مريد والحبيب مراد!!

قال الكليم عليه السلام: ﴿.... رَبِّ أَرِنِي أَنْـظُـرْ إِلَيكَ....﴾[٩]، فموسى عليه السلام أراد صراحة أن ينظر إلى الله ولكن الله سبحانه وتعالى قال له: ﴿.... لَـنْ تَرَانِـي....﴾[١٠]!! أراد العبد وأراد الله وما كان إلا ما أراد الله، وأما الحبيب ﷺ فقد قال الله سبحانه وتعالى له: ﴿أَلَمْ تَـرَ إِلَـى رَبِّـكَ كَـيْـفَ مَـدَّ الظِّـلَّ....﴾[١١]!!

وقال الكليم عليه السلام: ﴿.... رَبِّ اشْـرَحْ لِي صَدْرِي * وَيَـسِّـرْ لِي أَمْـرِي *﴾[١٢]!! ولكن الله سبحانه وتعالى يخاطب الحبيب ﷺ ويقول: ﴿أَلَـمْ نَـشْـرَحْ لَـكَ صَـدْرَكَ﴾[١٣]!!

وعلى هذا فالكليم مريد والحبيب مراد!!

نقل الشيخ أبو الحسن البكري أستاذ الشهيد الثاني قدس الله سرهما في كتابه المسمى بكتاب «الأنوار»: لما خلق الله نور نبينا محمَّد ﷺ بقي ألف عام بين يدي الله عزَّ وجلَّ يسبحه ويحمده، والحق تبارك وتعالى ينظر إليه ويقول: «يـا عَـبْـدِي أَنـتَ الـمـرادُ والـمـريـدُ وأنـتَ خِـيَـرَتـي مِـنْ خَـلْـقـي وعِـزَّتي وجـلالي لَـولاك مـا خَـلَـقْـتُ الأفـلاك مَـنْ أَحَـبَّـكَ أَحْـبَـبْـتُـهُ ومَـنْ أَبْـغَـضَـكَ أَبْـغَـضْـتُـهُ»[١٤]!!

ولذا يقال أن هناك فرقا بين المريد والمراد، فالمريد من سلك الطريق للوصول إلى الحق وأما المراد من فاضت عليه العناية الإلهية ابتداءً، المريد متحمل والمراد محمول، المريد مبتدأ والمراد منتهى، المريد يسير والمراد يطير!! وهذه عبارات عرفانية يطول شرحها ولكن بإشارة مختصرة نبين بعضها: المريد متحمل أي أن التحبب إلى المراد لجلب محبته يقتضي تحمل المصائب والمشاكل والبلايا في سبيل المراد كما قال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل بن زياد: «يـا كُـمـيـلَ إنَّ أَحَـبَّ مـا امْـتَـثَـلَـهُ الـعِـبـادُ إلَى الله بـعـد الإقـرارِ بـه وبـأولـيـائـهِ الـتَـعَـفُّـفُ والـتَّـحَـمُّـلُ والاصـطِـبـارُ»، ثـم قـال عليه السلام: «واعْـلَـمْ أَنَّ الـمُـدَبِّـرَ لَـكَ أَعْـلَـمُ بـالـوَقـتِ الَّـذي يَـصْـلُـحُ حـالـك فـيـه فَـثِـقْ بـخِـيَـرَتِـهِ فـي جَـمـيـعِ أمـورِك يَـصْـلُـحُ حالُـكَ»[١٥]!!

المريد يسير والمراد يطير، وشتان بين سير المريد وطيران المراد، لما بلغ رسول الله ﷺ إلى سدرة المنتهى وانتهى إلى الحجب قال له جبريل عليه السلام: «تَـقَـدَّم يـا رَسـولَ الله لـيـسَ لـي أَنْ أجـوز هـذا الـمَـكـانَ ولـو دَنَـوتُ أنْـمُـلَـةً لاحْـتَـرَقْـتُ»[١٦]!!

يقول بابا طاهر العريان في باب المريد والمراد: «النـاسُ في هـذا الأمـرِ (الوصولِ) على ضـرْبـيـن:

مُريـــدٌ حـافـظٌ ومـراد مـحـفـوظٌ فـالـمـريـدُ طـالِـبٌ مُـبـيـنٌ والـمُـــرادُ مـطـلـوبٌ مَـصُـونٌ والـمـريـدُ عَـمَـلَ فـوَجَـدَ والـمُـرادُ وَجَـدَ فَـعَـمَـلَ»[١٧]!!

ويقول أبو المعالي (الشارح لهذه الكلمات): أن أهل الوصول إثنان: مريد ومراد، فالمريد حافظ لحاله طالب مبين أي ظاهر الطلب لأنه مطلوب باطنا، والمراد محفوظ عن المخالفات مطلوب بالموافقات مصون عن الحركات أي سبق وجْده عمله وكشفه اجتهاده، والمريد بالعكس فسبق عمله وجده واجتهاده كشفه.

ويقول الخاجه عبدالله الأنصاري [١٨]: أيها العبد! لا تتحقق إرادتك إلا بإرادة الله عزَّ وجلَّ، فاستقم في قضاء الله حتى تشعر براحة وأمان واطمئنان في هذا العالم.

ويقول جمال السالكين الميرزا جواد آقا الملكي التبريزي رضي الله عنه [١٩] أن الإنسان إذا دخل في نور فضيلة من الفضائل فذلك النور يجره إلى نور آخر أما إذا دخل في ظلمة فتلك الظلمة تجره إلى ظلمة أخرى، مثلا إذا كان كلامك صدقا فالصدق نور وهذا النور يكون سببا لعمل فضيلة أخرى كالتآلف والمحبة والتآلف والمحبة نور ويكون سببا لصلة الأرحام وصلة الأرحام نور..... وهكذا، فكل نور يدخلك في نور آخر، أما إذا اتجهت إلى الذنوب والمعاصي - والعياذ بالله - فكل معصية تجرك إلى معصية أخرى، فالغيبة تجر إلى الكذب والكذب إلى البهتان والبهتان إلى التشاجر..... وهكذا، وكلها ظلمات بعضها فوق بعض.

اللَّهم إنا نسألك يا سرور العارفين وأنيس المريدين أن تصلي على محمَّد وآل محمَّد وأن تسلك بنا سبل الوصول إليك وتسيِّرنا في أقرب الطرق للوفود عليك حتى ننعم بقربك ونسعد بجوارك.

إلهنا من ذا الذي قصدك بصدق الإرادة فلم تشفعه في مراده أم من ذا الذي اعتمد عليك في أمره فلم تجد بإسعاده أم من ذا الذي استرشدك فلم تمنن بإرشاده، اللَّهم عبدك الضعيف الفقير ومسكينك اللهيف المستجير عالم أن في قبضتك أزمَّة التدبير ومصادر المقادير عن إرادتك فارزقنا من حلاوة مصافاتك ما نصير به إلى مرضاتك وهب لنا سلامة المحيا والممات برحمتك يا أرحم الراحمين.

الهوامش

(١) في ذكـر أحوال العارفين المترتبة في سـلوكهم طريق الحق من بدء حركتهـم إلى نهايتها التي هي الوصول إليه تعـالى ذكر الشـيخ الرئيس مبادئ حركاتهـم في قوله أن الإرادة هي أول درجاتهم المترتبة بحسـب حركاتهم وهـي المبـدأ القريـب من الحركـة ومبدؤها تصـور الكمال الذاتي الخـاص بالمبـدأ الأول الفائضـة آثاره على المسـتعدين من خلقـه بقدر اسـتعداداتهم والتصديق بوجوده تصديقا جازما مع سـكون النفس سـواءكان يقينيـا مسـتفادا مـن قياس برهاني أو كان إيمانيا مسـتفادا من قبـول قول الأئمةالهاديـن إلى الله تعالى فإن كل واحد منهما اعتقاد يقتضي تحريك صاحبه في طلب ذلك الفيض - شرح الإشارات ج٣ ص٣٧٨

(٢) اعتراه أي غشيه واعتلاق العروة الوثقى الاعتصام بها.

(٣) هو العارف الحقاني والسـالك الصمداني والسائر إلى الله بقدم الإخلاص الشيخ الشريف بابا طاهر العريان الهمداني، وقد سـمي بالعريان لتقشـفه وزهـده وقيل لأنه كان ينام عريانا في صومعتـه بجبل ألوند والثلوج تحيـط بـه من كل جانب، ولم يعثر على تاريخ ولادته الفعلي وكذلك تاريـخ وفاته إلا أن القدر المتيقن منه أن تاريـخ وفاتـه كان في أواخر النصف الأول مـن القرن الخامس الهجري، وقيل أنه كان معاصرا للفيلسـوف اللامـع ابن سـينا المتـوفى في همدان عام ٤٢٨ هـ، وقيـل أيضا أنه كان معاصرا للشـيخ الخواجه نصير الدين الطـوسي المتوفى عـام ٦٧٢ هـ، ويروى عن بابا طاهر قصص عجيبة وكرامات كثيرة تشـير إلى عظم مكانته وتمركزه في علم المعرفة، ويمكن تشخيص منزلة بابا طاهر العرفانية بمراجعة دقيقة لأهم أثرين من مصنفاته القيِّمة وهما كلماته القصار و رباعياته الشعرية، وقد ذكر أهل المعرفة أن بابا طاهر صنَّف ٢٢ رسالة في العلوم الغريبـة والعرفـان النظري - شرح كلمات بابا طاهـر: ص ١٨ - ص ١٩، الذريعة: ج ١٨ ص١١٣، راحة الصدور للراوندي: ص ١٦٠ - ١٦١.

(٤) بحار الأنوار: ج ٥ ص ١٠٤ نقلا عن التوحيد للشيخ الصدوق.

(٥) سورة الشعراء: آية ٨٤

(٦) سورة الشرح: آية ٤

(٧) سورة إبراهيم: آية ٣٥

(٨) سورة الأحزاب: آية ٣٣

(٩) سورة الأعراف: آية ١٤٣

(١٠) سورة الأعراف: آية ١٤٣

(١١) سورة الفرقان: آية ٤٥

(١٢) سورة طه: آية ٢٥ - آية ٢٦

(١٣) سورة الشرح: آية ١

(١٤) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٤٠٧، المناقب: ج ١ ص ٢١٧

(١٥) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٣٧٨ نقلا عن أعلام الدين.

(١٦) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٣٨٢

(١٧) شرح كلمات بابا طاهر: ص ٢٢٧

(١٨) أبو إسماعيل عبدالله أبي منصور محمد الأنصاري الهروي الملقب بشيخ الإسلام، ولد في مدينة هرات عام ٣٩٦ هـ، ويرجع نسبه إلى أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أحد صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله وصاحب رحله، وتتلمذ على يد الشيخ أبي الحسن الخرقاني، وكان حنبلي المذهب إلا أنه كان يكنّ لأهل بيت الرسالة محبة ومودة خاصة، وتوفي في ٢٢ من ذي الحجة الحرام عام ٤٨١ هـ، وكانت له آثار كثيرة منها «منازل السائرين» الذي ألفه عام ٤٧٥ هـ.

(١٩) وردت نبذة عن سيرته في المنزل (٢)

المنزل (٤)

الصِّدْقُ عِنْدَ المُحِب

الصــدق عنــد العرفــاء هو الطاعــة المحضة للشريعــة والحقيقة [١]، فــإذا كان العبــد مطيعا للشريعة والحقيقــة فبهــذه الصفــة والفضيلة يتقرب إلى أصــدق الصادقين بل مبدأ الصدق وهو الحق سـبحانه، ومع القرب إلى مبدأ الصدق يكتب اسمه عند الله في الصادقين، وإذا اعتاد العبد على الصدق ولم يشب قلبه وقوله وعمله بشائبة الكذب قط حصل على مَلَكة الصدق ودخل في مكتب الصدِّيقين.

وقد قال رسول الله ﷺ: «ما يـزَالُ الـعَـبْـدُ يَصْـدِقُ حَـتَّى يَكْـتُـبَـهُ اللهُ صـدِّيـقــاً»[٢]!! فالصدّيقية أرفـع درجـة ومقاما من الصدق، وقال الراغـب في مفرداته أن الصدِّيق من كثـر منه الصدق وقيل بل يقــال ذلــك لمــن لم يكذب قط وقيل بــل لمن لا يأتي منه الكــذب لتعوُّده الصدق وقيل مــن صدق بقوله واعتقاده وحقق صدقه بفعله، والصدِّيقون قوم دون الأنبياء في الفضيلة.

يقــول الله تبارك وتعالى في كتابه المجيد: ﴿وَمَـن يُطِـعِ اللهَ ورَسـولَـهُ فَأولـئِكَ مَعَ الَّذينَ أنْـعَـمَ اللهُ عَـلَـيْهِمْ مِـنَ الـنـَّبِــيّـيـنَ والـصِّدِّيقيـنَ والـشُّـهَـداءِ والـصَّـالـحيـنَ وحَـسُـنَ أولـئِـك رفيقـاً﴾[٣]، وورد في «فلاح السائل» في بعض أذكار الصلـوات على رسـول الله ﷺ كما هو مروي في بعض الروايات: «اللَّـهُـــمَّ واجْـعَـــلْ صَـلَـواتِـك وبَـرَكاتِــك ومـنَّـــك ومـغْـفِـرَتـــَك ورحمَـتـَـك ورِضْــوانــَك وفـضْـلَـك وسَــلامـتـَك وذِكْرَك ونـورَك وشـرَفـَك ونعْمَـتـَك وخِـيـرتــَكَ عَلَى مُحَمَّـدٍ وآلِ مُحَمَّـدٍ كما صَلَّيْتَ وبارَكْتَ وترَحَّمْتَ عَلَى إبْراهيمَ وآلِ إبْراهيمَ إنَّــكَ حَميـدٌ مَجيـدٌ.... وسَـلامٌ عَـلَى النــَّبِـيّـيــن أجْمَعيـــنَ والصِّــدِّيقـيــنَ والشُّـــهَـداءِ والصَّــالـحيـنَ وسَـــلامٌ عَلَى المُـرْسَــليـنَ أجْـمَعيـنَ»، فمرتبة الصدّيقين مرتبة عظيمة تلي مرتبة النبيين، والنبيون كلهم صدِّيقون وليس كل صدِّيق نبيا، والصدِّيقون أتم نورا من الشهداء (باللفظ القرآني دون المستشهدين في معركة القتال).

وقد بين السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في تفسيره «الميزان» الطوائف الأربعة وهم النبيين والصديقين والشهداء والصالحين قائلا: «فالنبيون هم أصحاب الوحي الذين عندهم نبأ الغيب ولا خبرة لنا من حالهم بأزيد من ذلك إلا من حيث الآثار، والشهداء وهم شهداء الأعمال فيما يطلق من لفظ الشهيد في القرآن دون المستشهدين في معركة القتال، والصالحين هم أهل اللياقة بنعم الله، وأما الصدّيقون فالذي يدل عليه لفظه هو أنه مبالغة من الصدق ومن الصدق ما هو في القول ومنه ما هو في الفعل وصدق الفعل هو مطابقته للقول لأنه حاكٍ عن الاعتقاد فإذا صدق في حكايته كان حاكيا لما في الضمير من غير تخلف وصدق القول مطابقته لما في الواقع وحيث كان القول نفسه من الفعل بوجه كان الصادق في فعله لا يخبر إلا عما يخبر صدقه وأنه حق ففي قوله الصدق الخبري والمخبري جميعا فالصدِّيق الذي لا يكذب أصلا هو الذي لا يفعل إلا ما يراه حقا من غير اتباعٍ لهوى النفس ولا يقول إلا ما يرى أنه حق ولا يرى شيئا إلا ما هو حق فهو يشاهد حقائق الأشياء ويقول الحق ويفعل الحق، وعلى ذلك فتترتب المراتب فالنبيون وهم السادة ثم الصديقون وهم شهداء الحقائق والأعمال والشهداء وهم شهداء الأعمال والصالحون وهم المتهيئون للكرامة الإلهية».

وقال أحد مشايخ العرفان في تعريف الصدِّيق: «فالصدِّيق من آمن بالله ورسوله عن قول المخبر لا عن دليل سوى النور الإيماني الذي يجده في قلبه المانع له من تردُّد أو شك يدخله في قول المخبر الرسول»، وقال: «هو صاحب النور الإيماني الذي يجده ضرورة في عين قلبه كنور البصر الذي جعله الله في البصر فلم يكن للعبد فيه كسب كذلك نور الصدِّيق في بصيرته ولهذا قال أولئك هم الصدِّيقون والشهداء عند ربهم لهم أجرهم من حيث الشهادة ونورهم من حيث الصدِّيقية فجعل النور للصدِّيقية والأجر للشهادة».

وفي حديث قدسي أن الله تبارك وتعالى قال لنبيه صلى الله عليه وآله ليلة المعراج في صفات الصديقين: «ينْظُرون في مَلَكوتِ السَّماواتِ والأرضِ فيعْلَمون أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى أهْلٌ للعِبادةِ كأنَّما ينْظُرون إلَيَّ من فوقها» فقال صلى الله عليه وآله: هل تعطي لأحد من أمتي هذا؟! قال: «يا أحمد هذه دَرَجَةُ الأنبياءِ والصدِّيقينَ من أمَّتِك وأمَّة غيرِك»[٤]!!

وأما مقام الخُلَّة فالخليل إنما يسمى خليلا لأن الصداقة إذا كملت رفع الصدِيق حوائجه إلى صديقه ولا معنى لرفعها مع عدم الكفاية والقضاء، وقد رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «إنَّ اللهَ تبارك وتعالى اتَّخَذَ إبراهيمَ عَبْداً قَبْلَ أن يَتَّخِذَهُ نَبِيّاً وإنَّ

اللهَ اتَّخَذَهُ نَبِيَّا قَبْلَ أنْ يَتَّخِذَهُ رَسولاً وإنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ رَسولاً قَبْلَ أنْ يَتَّخِذَهُ خَليلاً وإنَّ اللهَ اتَّخَذَهُ خَليلاً قَبْلَ أنْ يَتَّخِذَهُ إماماً فَلَمَّا جَمَعَ لَهُ الأشياءَ قالَ له إنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إماماً»(٥)!!

فمقام الخُلَّة الإلهية (٦) أعلى مرتبَة من مقام العبودية والنبوة والرسالة ودون مقام الإمامة، وكما قال أحد المشايخ في تعريف مقام الخُلة: «إذا تخلَّلت المعرفة بالله أجزاء العارف من حيث ما هو مركب فلا يبقى فيه جوهر فرد إلا وقد حلَّت فيه معرفة ربه فهو عارف به بكل جزء فيه».

ولكن بِمَ نال إبراهيمعليه السلام هذا المقام؟!

عن أبي الحَسن الرضاعليه السلام قال سمعت أبي يحدث عن أبيه أنه قال: «إنَّما اتَّخَذَ اللهُ إبراهيمَ خَليلاً لأنَّهُ لَمْ يُرِدْ أحَداً ولَمْ يَسْألْ أحَداً قَطُّ غيرَ الله عزَّ وجلَّ»(٧)، فمن كان على الدوام في ذكر ربه مشغولا بخدمته ممتثلا لأمره مجيبا لدعوته فذلك دليل على كونه من الصدِّيقين.

كذلك المرتبة النازلة من مقام الخلة وهي ما كانت بين المتقين في الحياة الدنيا كما في قوله تعالى: ﴿الأخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إلاَّ الْمُتَّقينَ﴾(٨)، فكل خلَّة من غير جهة التقوى ترتفع يوم القيامة إلا ما كانت في ذات الله فهي التي تثبت وتنفع.

يقول صدر المتألهين الشيرازي (قدس سره) (٩) في أسفاره:

«واعلم أن الطرق إلى الله كثيرة لأنه ذو فضائل وجهات كثيرة ولكلٍّ وجهة هو مولِّيها لكن بعضها أوثق وأشرف وأنور من بعض وأسدُّ البراهين وأشرفها إليه هو الذي لا يكون الوسط في البرهان غيره بالحقيقة فيكون الطريق إلى المقصود هو عين المقصود وهو سبيل الصدِّيقين الذين يستشهدون به تعالى عليه ثم يستشهدون بذاته على صفاته وبصفاته على أفعاله واحدا بعد واحد وغير هؤلاء كالمتكلمين والطبيعيين وغيرهم يتوسلون إلى معرفته تعالى وصفاته بواسطة اعتبار أمر آخر غيره كالإمكان للماهية والحدوث للخلق والحركة للجسم أو غير ذلك وهي أيضا دلائل على ذاته وشواهد على صفاته لكن هذا المنهج أحكم وأشرف»(١٠).

فالعامة من الناس يرون الأثر فيدلهم على المؤثر كمن تدله الكتابة على القلم والكاتب وأما في مكتب الصدِّيقين فهم يرون المؤثر أولا ومنه يرون الأثر، كمن يعرف الطبيب أولا ثم يأخذ منه الوصفة الطبية.

أيها السالك إلى الله!! لا يكون العبد صدِّيقا إلا إذا وصل إلى مقام يعبد ربه لربه ويريد بعبادته وجه الله وحده وهذه نية الصدِّيقين كما قال سيد الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام: «ما عَبَدْتُكَ خَوْفاً مِنْ نارِك ولا طَمَعاً في جَنَّتِكَ ولَكِنْ وَجَدتكَ أهلاً للعِبادةِ فَعَبَدتُكَ»[١١]، بل ذهب كثير من علماء الخاصة (أمثال السيد علي بن طاووس) والعامة (أمثال الفخر الرازي) على بطلان العبادة إذا كانت النية فيها تحصيل الثواب ودفع العقاب وعلى سبيل فرض المحال لو يدخل العاصي الجنة والمطيع النار لرأى الصدِّيقون ربهم أهلا للعبادة فيعبدوه كمن اختار في الدنيا النار فجعلها ربه عليه بردا وسلاما!!

والصدق على ثلاثة أقسام:

- الأول: الصدق في العزم
- الثاني: الصدق في العمل
- الثالث: الصدق في القول والكلام

فالصدق في العزم هو الإيتاء بما يريده الإنسان ويعزم عليه بالجد دون ضعف وتردد، أو بمعنى آخر أن تكون النية في فعل الخير صادقة وخالصة لله سبحانه وتعالى، وهذا أمر باطني، وآفة العزم العجز، فإذاكنت مخلصا ومريدا صادقا وعزمت بصدق فلابد أن تعرف آفة العزم وهو العجز حتى تدفعه أو تعالجه، وعلاج العجز ترك راحة النفس.

ثم الصدق في العمل (وهو الطاعة المحضة للشريعة والحقيقة) بأن يكون ظاهر الإنسان كباطنه أو دونه، أو هو مطابقة العمل للقول والاعتقاد، وقيل أن الصدق في العمل هو الوفاء بحق العمل ويطلق الصدق أيضا على فعل القلب والجوارح المطابقين للقوانين الشرعية والموازين العقلية، وآفة الصدق في العمل هو الكسل وهو شعور الإنسان بالفتور وعدم وجود النشاط اللازم للعمل الصادق فيعمله رياء أو يتركه كليا وفي كلاهما تقصير في حق الله سبحانه، وكما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إيَّاكُمْ والكَسَلِ فَإنَّهُ مَنْ كَسَلَ لَمْ يُؤدِّ حَقَّ الله عَزَّ وَجلَّ»[١٢]، وعلاجه أيضا ترك راحة النفس.

أيها السالك إلى الله!! لا يمكن أن ترتفع إلى المقامات مع فرض الراحة، فعليك أن تترك الفراش والنوم والراحة والاستراحة حتى لا يكون لآفات الصدق من عجز وكسل مجال للهجوم عليك وإعاقة سيرك إلى الله سبحانه وتعالى.

قرأنا في حالات بعض أولياء الله والسالكين من الكَسَبة والتجار - لا من العلماء - أنهم كانوا يتجهون ليلة الخميس من مدينتهم إلى مدينة طهران في رحلة كانت تستغرق - آنذاك - أكثر من ١٥ ساعة تقريبا لكي يحضروا يوم الجمعة ولمدة نصف ساعة فقط درسا من دروس الأخلاق والعرفان في

مسجد جامع طهران!! تركوا الراحة لمعرفة المقامات ثم السير فيها للوصول إلى الله سبحانه وتعالى فلم يعيقهم في ذلك طول الزمان ولا بُعد المكان!! ونحن نعلم أن في هذا المسجد تُلقى محاضرات ودروس في تفسير القرآن والعقائد والفلسفة والعرفان ونملك السيارة المكيَّفة بالهواء البارد والطريق أمامنا سهل ومفتوح، أي أن وسائل الراحة في مجموعها متوفرة لدينا، فلماذا لا نوفق في إعطاء نصف ساعة من وقتنا للمشاركة في تلك المجالس؟! هل كان لشيء سوى أننا لم نعرف معنى التوبة والإخلاص والإرادة والصدق وآفاتها في السلوك إلى الله سبحانه وتعالى!!

وأما المقام الثالث فهو الصدق في القول وهو أهم وأصعب أقسام الصدق في وجود العارف والسالك إلى الله وهو مطابقة الخبر الخارج أو مطابقة القول للواقع وآفته المعاريض [١٣]، وقال أمير البلغاء علي بن أبي طالب عليه السلام: «مَنْ عَدِمَ فَضِيلَةَ الصِّدْقِ فِي مَنْطِقِهِ فَقَدْ فُجِعَ بِأَكْرَمِ أَخْلاقِهِ» [١٤]، وقال عليه السلام أيضا: «لِسانُ العاقِلِ وَراءَ قَلْبِهِ وقَلْبُ الأَحْمَقِ وَراءَ لِسانِهِ» [١٥]، وكذلك عنه عليه السلام: «عَلامَةُ الإيمانِ أَنْ تُؤثِرَ الصِّدْقَ حَيْثُ يَضُرُّك عَلَى الكَذِبِ حَيْثُ يَنْفَعُكَ» [١٦]، وقال أبو جعفر عليه السلام: «تَعَلَّمُوا الصِّدْقَ قَبْلَ الحَدِيثِ» [١٧]، فإذا أردت أن تتفوه بكلمة واحدة فانتبه لآفة الصدق في الكلام وعلاجها محاسبة النفس قبل الكلام.

رأيت في حالات أحد السالكين وأولياء الله – في مقام محاسبة النفس – أنه غفل لحظة واحدة عن نفسه ولم يحاسبها قبل أن يتكلم، وتفوَّه بكلمة غير صادقة، فتأسف على ذلك أسفا شديدا وتعهد على نفسه أن يمتنع عن شرب الماء البارد لسنة كاملة مع تلك الظروف القاسية من شدة حرارة الجو والعطش، وذلك تأديبا لنفسه وتهذيبا لها كي لا يتكلم بعد ذلك بكلمة واحدة إلا بعد المحاسبة!!

وبعد معرفة مفهوم الصدق ومقاماته وآفاته لابد من معرفة التكليف لاستمرار حالة الصدق.

لماذا يقال للصدقة صدقة؟! لأن على المؤمن حينما يتصدق أن يكون في عزمه وفعله صادقا وفي سبيل الله تعالى، وقد قال الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوبَةَ عَنْ عِبادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ وَإِنَّ اللهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [١٨]، وقال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «ضمِنْتُ عَلَى رَبِّي أَنَّ الصَّدَقَةَ لا تَقَعُ في يدِ العبْدِ حتَّى تَقَعَ في يدِ الرَّبِّ» [١٩]!!

والصدقة على ثلاثة أقسام:

١ – الإنفاق بالمال

٢ – الإنفاق بالبدن

٣ - الإنـفـاق بالقـلـب

ولابـد أن تكـون الصدقـة بأنواعهـا مسـتمرة جنبا إلى جنـب حتى تسـتمر حالة الصـدق ويدخل الإنسان في مقام الصدِّيقين.

١ - الإنفـاق بالمـال: وأعـلى مراتـب الإنفـاق بالمـال هـي صدقـة الـسر، فقد قـال الإمـام علي بن الحسين عليه السلام: «إنَّ صَـــدَقَــةَ الـسِّـرِّ تُـطْـفِـئُ غَـضَـبَ الـرَّبِّ»[٢٠]!! وورد في الروايات أنه كان في المدينـة كـذا وكذا أهل بيت يأتيهم رزقهم وما يحتاجـون إليه لا يدرون من أين يأتيهم فلما مات علي بن الحسين عليه السلام فقدوا ذلك [٢١] !!

٢ - الإنفاق بالبدن: بأن يكون الإنسـان ببدنه وجسـمه ويده ولسانه في خدمة الفقراء والمحتاجين ويجدُّ ويجتهد في إيصال المال إليهم وأن لا يؤذيـهم بلسـانه والمنَّ عليهم كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيـُّـها الَّذينَ آمَـنـُوا لا تـُـبْطِلُوا صَدَقـاتِكـُمْ بالْمَـنِّ والأذَى....﴾[٢٢]

وقول نبيه نبي الرحمة صلى الله عليه وآله: «مَـنْ اسْـــتَذَلَّ مُـؤمـنـاً أوْ مُـؤمـنــةٍ أو حَـقَّـرَهُ لِـفَـقْـرِهِ وقـلَّــةِ ذاتِ يَـدِهِ شـــهَّـرَهُ اللهُ يـــومَ الـقـيـامَـةِ ثـــمَّ يـفْـضَـحُـهُ»[٢٣]!!

٣ - الإنفـاق بالقلـب: بأن يكون العبد صادق القلب عند إنفاق المال على الفقراء ويشـعر بآلامهم ويواسـيهم، فإذا سـعى ببدنـه وجهد لإنفاق المال على الفقـراء والمحتاجين رياءً ونفاقــاً فلن يتقبل الله منـه ذلك ولـن يكتب في الصادقين، وقد كان من أدب رسـول الله صلى الله عليه وآله أنه كان يجالـس الفقراء ويؤاكل المساكين ويناولهم بيده.

سـافر أحـد العلـماء إلى مشـهد الإمـام الرضا عليـه آلاف التحيـة والثنـاء وفي طريقه مـر على بلدة صغـيرة فجاءه رجل أعمى وقـال له: إلى أين أنت ذاهب؟! فقال العالم: إلى مشـهد الإمام الرضـا عليه السلام، فقـال الرجـل الأعمى: ليتني كنت بصيرا فأرافقك في سـفرك، وكم كنت أتمنى أن أزور مشـهد الإمام الرضــا عليه السلام وأطلب منه شفائي من العمى، ولكن لا بأس، أسألك نيابة عني أن تبلغ سلامي إلى الإمام الرضـــا عليه السلام، وأطلـب منك إن أمكنك ذلـك أن تحضر لي قليلا من غبار ضريـح الإمام عليه السلام، فقبل العالم ذلـك ثـم ترك البلدة وأكمل رحلته إلى مشـهد الإمام الرضـا عليه السلام فمكث فيها شـهورا ثم رجع إلى بلده وقد نسي ما أوصاه ذلك الرجل الأعمى كأن لم يكن شيئا مذكورا!!

وفي طريق عودته مر على نفس البلدة فكان الرجل الأعمى أول المسـتقبلين له، ولما أقبل إليه وسلم عليه انتبه العالم وتذكر الوصية وقال في نفســه: قد يسـألني هذا الرجل عما أوصاني فماذا أقول له وكيف أتصرف!!

فبادره الرجل الأعمى وقال: تقبَّل الله زيارتكم، ثم قال: هل أحضرتـم شيئا من غبار علي بن موسى

الرضــاﷺ؟! تخجـل العالم وقال: نعم أحضرته لك، فقال لـه: أين هو؟! فذهب العالم وأخذ قليلا من تراب جدارٍ وجعله في كيس باعتبار أن الرجل أعمى ولا يراه وقال:

هـذا غبار ضريـح الإمام الرضـاﷺ، فأخذ الأعمـى التراب وقال: يا علي بن موسـى الرضا، أنا لم أوفـق لزيارتكـم ولكن الحمد لله الذي وفقني بتراب ضريحكم!! فجعل التراب على عينيه فإذا به يفتح عيناه ويرى ما حوله والعالم ينظر إليه مستغربا متعجبا!!

ونحن نقول: إذا كان هذا الرجل الأعمى المسكين قد أخذ غبار جدارٍ ووضعه على عينيه باسم غبار ضريح الإمام الرضـاﷺ وبصدق نيته شـفي من العمى فكيف بأصل غبار الضريح الحقيقي!! وكيف إذا كان الرجل في محضر لطف الإمام الرؤوفﷺ فيمسح بيده المباركة على عينيه!!

أيهـا السـالك إلى الله!! انتبـه إلى هذه المقامات وآثارها: اسـم تراب ضريح الإمـامﷺ، أصل تراب ضريـح الإمامﷺ، محـضر الإمامﷺ!! وكيـف إذا توجهت إلى خالق الإمـامﷺ وخالق الخلق أجمعين الـرب الـرؤوف الرحيـم وقلت بكل صدق: إلهي وسـيدي ومـولاي وربي اغفر لي ذنوبي واسـتر علي عيوبي!!

أيها السالك إلى الله!! اجلس في غرفتك وفي خلوة بينك وبين ربك وفكر: كم مرة في عمرك ناديت ربـك وقلت بصـدق نية «يا الله»!! وكم مرة صليت صلاة الصادقـين ولم تكن صلاتك خوفا من النار ولا طمعـا في الجنـة بـل حبا لله وحده!! وكم مرة حاسـبت نفسـك محاسـبة الصدِّيقين قبـل أن تتكلم بكلمة!!

إلهنـا تـولَّ أمرنا كما تتولى أمر الصديقين، وأدخلنا مدخل صـدق وأخرجنا مخرج صدق واجعل لنا من لدنك سلطانا نصيرا.

الهوامش

(١) «الشريعة هي الظاهر والحقيقة هي الباطن أو الشريعة هي مجموعة الأحكام والتعاليم الإلهية التي قررها النبي الأكرمﷺ وارتضاها لأمته والحقيقة هي الفناء عن الفاني والبقاء بالباقي ورؤية ما هو خبر واقعا ودَين نقدا» - شرح كلمات بابا طاهر: ص ١٧، ويقول أحد كبار العرفاء أن «الشريعة هي التزام العبودية بنسبة الفعل إليك والحقيقة هي سلب آثار أوصافك عنك بأوصافه أنه الفاعل بك فيك منك لا أنت أو هي ظهور صفة حق خلف حجاب صفة عبد».

(٢) أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٨٢

(٣) سورة النساء: آية ٦٩

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٢٦، إرشاد القلوب: باب ٥٤

(٥) أصول الكافي: ج ١ ص ١٧٥

(٦) الخَلَّة بمعنى الفقر والفاقة والحاجة، والخُلَّة غاية الصداقة والمحبة واشتق من الخلال لأن المحبة تخللت قلبه فصارت خلاله أي في باطنه

(٧) علل الشرائع: باب ٣٢ ص ٣٤

(٨) سورة الزخرف: آية ٦٧

(٩) هو صدر الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى قوامي الشيرازي (؟ - ١٠٥٠ هـ) الملقب بـ «صدر المتألهين» والمعروف بـ «ملا صدرا»، من أعاظم الحكماء الإسلاميين، كان واسع العلم بالمكاتب الفلسفية الإسلامية المنوعة فضلا عن تبحره في الكلام والحكمة والعرفان، متمكنا من تدقيق وتحليل معضلات هذا الفن تمكنا تاما، تعلم مقدمات العلوم فرحل إلى إصفهان وحضر دروس الشيخ بهاء الدين العاملي والميرداماد، ثم ذهب إلى جبال قم وانعكف على العبادة والرياضة لمدة خمسة عشر عاما فكان كتابه العظيم «الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية» نتاج خلواته طي هذه الحقبة، فقرر مباني مدرسته المعروفة بالحكمة المتعالية في كتابه هذا وبالغ في بسطه وتحريره، وله أيضا الشواهد الربوبية في المناهج السلوكية، أسرار الآيات وأنوار البينات، شرح حكمة الإشراق، الحكمة العرشية، المشاعر، شرح الهداية، مفاتيح الغيب، تفسير بعض السور القرآنية وشرح أصول الكافي، توفي في البصرة وهو متوجه إلى الحج سنة (١٠٥٠ هـ) ودفن فيها - الترجمة مقتبسة من دائرة المعارف الإسلامية ج ١٤ ص ٢٧٩، رياض السالكين: ج ١ ص ١٥٨

(١٠) الأسفار الأربعة: ج ٦ ص ١٢

(١١) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ١٨٦

(١٢) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٢٦٣

(١٣) والتعريـض توجيه الـكلام إلى جانب وإرادة جانب آخر بخلاف التصريح، والمعاريض تغني الإنسـان عن الكـذب وذلـك عند الـضرورة والحاجة، ويجـوز التورية بالمعاريـض المباحة وهو شيء يخلـص من المكروه والحرام إلى الجائز إما لقصد الإصلاح بين الناس أو لدفع ما يضر أو لغير ذلك كالكلام اللطيف الذي يدور بـين الزوجـين لدوام الألفة بينهما أو أن يقول رجل لجيش العدو مات أميركم ليذعر به قلوبهم ويعني بذلك النـوم فهذا نوع من الخدع الجائزة والمعاريـض المباحة، وأما مع عدم الحاجة والضرورة فلا يجوز لأنه تفهيم للكذب وإن لم يكن اللفظ كذبا وهو مكروه.

(١٤) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٣٣٦

(١٥) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ١٥٩

(١٦) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ١٧٥

(١٧) أصول الكافي: ج ٢ ص ١٠٤

(١٨) سورة التوبة: آية ١٠٤

(١٩) بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ١٢٩

(٢٠) بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٨٨ نقلا عن الحلية

(٢١) بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٥٦ نقلا عن إرشاد المفيد

(٢٢) سورة البقرة: آية ٢٦٤

(٢٣) بحار الأنوار: ج ٧٢ ص ٤٩ نقلا عن جامع الأخبار

المنزل (٥)

الأدَبُ عِنْدَ المُحِب

الأدب اصطلاح عملي ومعناه الحفاظ على حدِّ الشيء، وقيل أيضا أنه الهيئة الحسنة التي ينبغي أن يقع عليه الفعل المشروع، وهو الجامع لمحاسن الأقوال والأفعال، والأدب من السلوكيات الإنسانية والإسلامية الرفيعة يتزين بها الإنسان فتضفي على شخصيته المعنوية كمالا وجمالا، وليست الآداب هي الأخلاق فالأخلاق ملكات روحية راسخة تتلبس بها النفوس بينما الآداب هيئات حسنة تتلبس بها الأعمال الصادرة عن الإنسان عن صفات نفسية مختلفة، ولنعم ما قيل في هذا المقام:

أدِّبوا النَّفْسَ أيُّها الأصْحابُ
طُرُقُ العِشْقِ كُلُّها آدابُ

وينقسم الأدب في اصطلاح العارفين إلى ثلاثة مقامات:

- المقام الأول: أدب الشريعة
- المقام الثاني: أدب الخدمة
- المقام الثالث: أدب الحق [١]

فالمقام الأول أدب الشريعة وهو تعلم أحكام الشريعة [٢] واتباع الأوامر الإلهية كما قال تعالى في كتابه: ﴿.... وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ الله....﴾[٣] وطاعة رسوله ﷺ: ﴿.... وَما آتاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذوهُ وَما نَهاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا....﴾[٤]، وقد وصف أحد العرفاء مقام أدب الشريعة بأنه الأدب الإلهي الذي يتولى الله تعليمه بالوحي والإلهام به أدَّب نبيه ﷺ وبه أدَّبنا نبيه ﷺ، وذكر بعض القدماء في أدب الشريعة أنه عدم التعدي بالحكم موضعه في جوهر كان أو في عَرَض أو في

زمان أو في مكان أو في وضع أو في إضافة أوفي حال أو في مقدار [٥].

ومن أجلِّ مصاديق الأدب وأكمله النبي الأمي محمَّد ﷺ الذي عظَّم الله عزَّ وجلَّ شأنه فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[٦] فتأدب بكمال أدب الله وتخلَّق بكرائم أخلاق الله ولم يتعلم على يد أحد غير الله تبارك وتعالى الذي علَّمه علم الشرع والتوحيد[٧] ﴿وَعَلَّمَكَ ما لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[٨] فكان كما قال ﷺ: «أدَّبَني رَبِّي فَأَحْسَنَ تَأديبي»[٩] وقال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ اللهَ تَبارك وتعالى أدَّبَ نَبِيَّهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ»[١٠]!!

وقال عليه السلام لكميل بن زياد النخعي: «يا كُمَيْل إنَّ رَسولَ الله ﷺ أدَّبَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وهو أدَّبَني وأنا أؤدِّبُ المُؤمنين وأورِثُ الأدبَ المُكَرَّمينَ»[١٢].

وقال رسول الله ﷺ في شأن التعلم: «مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى ذُلِّ التَّعَلُّمِ ساعَةً بَقِيَ في ذُلِّ الجَهْلِ أبَداً»!! [١٣]، وسئل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام أي الأدب أحسن فقال عليه السلام: «أدَبُ الدِّينِ»[١٤]!!

وآفة مقام أدب الشريعة الحرص في جمع العلوم وتعليم العلوم بترك العمل، فقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أَيُّها الَّذينَ آمَنُوا لِمَ تَقولُونَ ما لا تَفْعَلونَ * كَبُرَ مَقْتاً عِندَ اللهِ أن تَقولوا ما لا تَفْعَلونَ *﴾[١٥]!! وقال رسول الله ﷺ: «العِلْمُ وَديعَةُ الله في أرْضِهِ والعُلَماءُ أمَناؤه عَلَيه فَمَنْ عَمِلَ بِعِلْمِهِ أدَّى أمانَتَهُ ومَنْ لَمْ يَعْمَلْ بعِلْمِهِ كُتِبَ في ديوانِ الخائنينَ»[١٦]!! وقال ﷺ: «العُلَماءُ رَجُلانِ رَجُلٌ عالمٌ آخِذٌ بعِلْمِهِ فهذا ناجٍ وعالِمٌ تارِكٌ لِعِلْمِهِ فهذا هالِكٌ وإنَّ أهْلَ النارِ لَيَتأذَّونَ مِنْ ريحِ العالِمِ التَّارِكِ لِعِلْمِهِ»[١٧]، وقال علي بن الحسين عليه السلام: «العِلْمُ إذا لَمْ يُعْمَلْ بِهِ لَمْ يَزْدَدْ مِنَ الله إلا بُعْداً»[١٨]، وأما الإمام الصادق عليه السلام فقد قال: «العِلْمُ مَقْرونٌ إلى العَمَلِ فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ ومَنْ عَمِلَ عَلِمَ»[١٩]!!

وقد تعلمنا من أساتذتنا في مكاتبهم الأخلاقية والعرفانية أن العالِم يكون عالِما بقدر ما يعمل بعلمه لا بقدر ما يحفظ في ذهنه!!

والمقام الثاني أدب الخدمة وهو حسن المعاملة في خدمة الحق تبارك وتعالى ومعاشرة الخلق، ومع معرفة السالك إلى الله حقيقة المعية الإلهية ﴿.... وهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَما كُنتُمْ....﴾[٢٠] لا يجد في نفسه لحظة تخلو من أدب خدمة الحق تبارك وتعالى، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «يا مُؤمن إنَّ هذا العِلْمَ والأدبَ ثَمَنُ نَفْسِكَ فاجْتَهِدْ في تَعَلُّمِهما فما يَزيدُ مِنْ عِلْمِكَ وأدَبِكَ يَزيدُ في ثَمَنِكَ وقَدْرِكَ فإنَّ بالعِلْمِ تَهْتَدي إلى رَبِّكَ وبالأدَبِ تُحْسِنُ

خِدْمَــةَ رَبِّــكَ وبأدبِ الـخِــدْمَــةِ يَسْــتَـوجِـبُ الـعَـبْـدُ وِلايَــتَــه وقُــرْبَه»[٢١]!!

والأنبياء عليهم السلام مصاديق مُثلى في الأدب البارع وحسن معاملة الحق، والناظر في سيرتهم يعثر على لطائف وكمالات أدبية في جميع حركاتهم وسكناتهم المبنية على أساس أدب العبودية وتوحيد الربوبية للفرد الأحد عزَّ وجلَّ فقد كانوا يتبرأون من كل عمل حسن وكل وصف مذموم يضيفونه إلى أنفسهم منها، على سبيل المثال تعبير صفي الله آدم عليه السلام في قوله: ﴿رَبَّنا ظَلَمْنا أنفُسَنا....﴾[٢٢] في مقابل سوء أدب إبليس الذي قال: ﴿فَبِما أغْوَيْتَني لأقْعُدَنَّ لَهُمْ عَلَى صِراطَكَ المُسْتَقيم﴾[٢٣]، وخطاب أيوب عليه السلام لربه: ﴿وأيُّوبَ إذْ نادَى رَبَّهُ أنّي مَسَّنِيَ الضُرُّ وأنتَ أرحَمُ الراحمينَ﴾[٢٤] ولم يقل «ارحمني» وقول عيسى عليه السلام: ﴿.... إن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ....﴾[٢٥] ولَم يقل «لم أقل» أو كما قال الخضر عليه السلام في العيب: ﴿فأردتُ أنْ أعِيبَها﴾[٢٦] ولكن في الخير قال: ﴿فَأراد رَبُّكَ أنْ يَبْلُغا أشُدَّهُما﴾[٢٧]!! كل ذلك أدبا للحظرة القدسية وخضوعا لساحة الجلالة الربوبية.

ومن أعاظم مراتب أدب خدمة السالك إلى الله في معاشرة الخلق خدمته لمعلمه وأستاذه الذي يهيء له مقدمات السير والسلوك إلى الله وما يحتاجه من زاد في ذلك السبيل ثم يرقى به المدارج الواحد تلو الآخر حتى يصل به إلى المقصد والمبتغى.

وفيما حكاه الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم عن موسى عليه السلام حينما خاطب الخضر عليه السلام بقوله: ﴿هَلْ أتَّبِعُكَ عَلَى أن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾[٢٨] جملة من الآداب بين المتعلم والمعلم مع عظم شأنَ موسى عليه السلام وكونه من أولي العزم من الرسل وكماله على معلمه في جهات أخرى[٢٩]!!

وكذلك كان حال علمائنا وأساتذتنا الماضين رضوان الله عليهم أجمعين الذين تميزوا بحسن الأدب وكماله مع أساتذتهم الأفاضل كأدب السيد الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه

مع أستاذه السيد علي القاضي رضي الله عنه وأدب الشيخ الشهيد مرتضى المطهري رضي الله عنه مع أستاذه السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه الذي فاق كل أدب فكان كلما يذكر اسمه يقول: «روحي فداه»!!

ويقول سماحة آية الله الشيخ حسن زاده الآملي - حفظه الله تعالى - : كنت في محضر الأستاذ الإلهي القمشه اي رضي الله عنه وبينما كان جالسا متربعا وظهرت رجله اليمنى من تحت عباءه انحنيت وقبَّلت رجله فسألني: لِمَ فعلت ذلك؟! فقلت له: لم أكن أهلا لأن أقبِّل يدكم فقبَّلت رجلكم وكفاني بذلك مباهاة وفخرا!!

ولما كان الله تبارك وتعالى هو المعلم الأول للإنسان كما عرَّف نفسه في كتابه: ﴿عَلَّمَ الإنسانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[٣٠] فالجلوس على المائدة العلمية والأخلاقية للأستاذ والمعلم وتغذية الروح بعلومه ومعارفه إنما هو جلوس على مائدة علم رب العالمين، وقد سافر الكثير من العلماء أسفارا بعيدة وأعدوا

لها الوسائل مع صعوبتها وندرتها لكي يزوروا عالما من العلماء أو عارفا من العرفاء ويجلسوا في محضره ولو نصف ساعة متحلين بكامل آداب الجلوس والإصغاء في تلك المحاضر النورانية!!

ومن آداب الخدمة أن لا يكون الباعث عليها تأمل القبول والتقدير من المخدوم، فإذا كان كذلك فالخدمة كانت للنفس وما تشتهي لا ما كان مطلوبا وينبغي.

وآفة مقام أدب الخدمة رؤية العلائق الشاغلة في القلب، فلابد للسالك إلى الله أن يسخِّر بدنه وعمره في سبيل مقام أدب الخدمة وأن يتجنب كل علاقة تشغل قلبه عن الوصول إلى هذا المقام كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «ذَكِّ قَلْبَكَ بالأدبِ كَما تُذكّي النارَ بالحَطَبِ»[٣١]!!

والمقام الثالث أدب الحق وهو العمل بالحق الذي خلق الله تعالى به عالم الوجود وبه يحكم ﴿....مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ والأرضَ وما بَيْنَهُما إلاَّ بالْحَقِّ....﴾[٣٢] والوقوف عنده.

وإذا كان الإنسان يشعر بالهيبة في محضر الأستاذ العالم ويراعي حسن الأدب في مجلسه فكيف بالجلوس في محضر العليم الخبير وهو رب الأرباب والملك الوهاب!! فعلى السالك إلى الله معرفة أدب الحق حق الأدب حتى يعلو بكمال أدبه إلى الكمال المطلق لرب الأرباب عزَّ وجلَّ.

وقال أحد مشايخ العرفان في أدب الحق أنه الأدب مع الحق في اتباعه عند من يظهر عنده ويحكم به فترجع إليه وتقبله ولا تحملك الأنفة إن كنت ذا كبر في السن أو المرتبة وظهر الحق عند من هو أصغر منك سنا أو قدرا.

كذلك يقول العرفاء (وهذه كلمة للخواص) أن أدب الحق هو موافقة الحق بالمعرفة.

وأما آفة المقام الثالث فهي السكوت على النفس والرضا بهواها، ففي النفس والقلب دفائن كامنة ومع أدب الحق يمكن استكشاف دفائن أحوال النفس، وآفة أدب الحق هي السكوت أمام مشتهيات النفس وملاهيها، وإذا بحثنا عن علاج هذه الآفة نجدها عند نبينا وحبيب قلوبنا وطبيب نفوسنا محمَّد صلى الله عليه وآله الذي حينما سأله رجل اسمه مجاشع: كيف الطريق إلى موافقة الحق؟! قال صلى الله عليه وآله: «مُخالَفَةُ النَّفْسِ»[٣٣]!!

وهناك أنواع كثيرة من الآداب، وكما سمعنا من مرشدنا الكبير سيدنا الأستاذ رضي الله عنه أن هناك اثني عشر نوعا من الأدب كأدب السالك في السفر وأدب السالك مع الرفيق وأدب السالك مع الأمير (فالعرفاء حينما يسافرون في جمع يختارون لأنفسهم أميرا يتبعونه) وأدب السالك عند دخول بلد من البلاد (كاستحباب الغسل كما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وآله)..... إلى غير ذلك من أصناف الآداب، إلا أن كلها تندرج تحت الأقسام الثلاثة المذكورة.

كان المرحوم الحاج ميرزا حسين القاضي رضي الله عنه – والد السيد علي القاضي رضي الله عنه – تلميذا عند أستاذه

الكبير مجدد المذهب الميرزا حسـن الشـيرازي رضي الله عنه[٣٤]، وكان السيد حسين القاضي عالما فقيها وصل إلى مقـام الاجتهـاد المطلق وجامعا للشرائط، فعزم يوما على العودة من سـامراء إلى مسـقط رأسـه تبريز، ولكن كونه استفاد أخلاقيا وعرفانيا وسلوكيا من أستاذه فضلا عن استفادته الفقه والأصول والعلوم النقلية وتأدبا له ولحقِّه عليه ذهب إليه يستأذنه في السـفر إلى بلده فقال لأستاذه: أتأذن لي بالسـفر إلى تبريز؟! فقال: نعم أذنت لك ذلك، ثم قال: هل من نصيحة تنصحني بها أو موعظة تعظني بها؟!

(أيها السالك إلى الله، هذه هي خاصية أدب التلميذ مع الأستاذ، ولولا الأدب كيف يستفيد التلميذ من الأستاذ؟!)

فقـال لـه الأسـتاذ: اجعـل في كل يـوم وليلـة سـاعة واحدة عـلى الأقل خلـوة بينك وبـين الله أدبا للحق!!

رجع السـيد القاضي - الوالد - إلى تبريز وتوغل في الأمور الإلهية، وبعد مرور سـنة سـافر جماعة من تجار تبريـز إلى النجـف الأشـرف وفي زيارة الدورة ذهبوا إلى سـامراء وتشرفوا بمحضر الميرزا الشيرازي رضي الله عنه فاستفسر الميرزا عن أحوال السيد القاضي فقالوا: السيد القاضي عالمنا ومرجعنا وإمامنا و.... و....، ثم سألهم الميرزا قائلا: هل تعرفون شيئا عن حالاته مع الله؟! قالوا: نعم، قد أبدل ساعته تلـك إلى أربع وعشرين سـاعة من المراقبة والحضور والعزلة، ولكن أي عزلـة!! تلك العزلة التي قيل فيها (بالفارسية):

هـرگـز ميـان حـاضـر وغـائـب شـنيـده اى
مـن در ميـان جمـع ودلـم جـاي ديـگر است

(أي أنـه كان يعيـش بين النـاس ببدنه ولكـن كان قلبه في موضع آخر وهـو الحضور في محضر رب العالمين تبارك وتعالى!!) فقال الميرزا: طوبى له وحسن مآب.

ثـم أن ابنـه العالم الرباني والعارف الصمداني آية الحق ونادرة الدهـر ميرزا على القاضي الطباطبائي التبريزي رفع الله درجاته السـامية - أسـتاذ السـيد العلامة الطباطبائـي رضي الله عنه - وكان يعيش في النجف الأشرف كانـت لـه حـالات مـع الله، وقد نقـل الكثـيرون أنه رضي الله عنه كان في شـهر رمضـان المبارك وعلى الأخـص في العـشرة الأخـيرة منـه يختفـي عـن الأنظـار ولا يعلم أحـد بمكانه بـل لا يتجـرأ أحد أن يسـأله حتى أصحاب السـر والخواص من تلامذته!! وكانت وصيته لتلميذه السـيد الأسـتاذ العلامة الطباطبائـي رضي الله عنه أنـه إذا كان في محـضر الحق تبارك وتعالى فعليه - في أي حـال من الأحوال أو أي مقام من المقامات - أن يكون بكل وجوده وعقله وروحه وجوارحه متوجها إلى الحق ولا شيء سوى الحق مراعاةً لأدب الحق!!

ونقل السيد العلامةرضي الله عنه حكاية عن بعض حالاته لبعض الخواص قائلا: كنت جالسا ذات يوم في مسجد الكوفة وكنت مشغولا بذكر أعطاني إياه سيدنا الأستاذ علي القاضيرضي الله عنه وبينما كنت في مقام صعود الروح والقرب إلى الله فإذا بي أرى على يميني حورية من الجنة في غاية الجمال والكمال وبيدها كأس فيه شراب من الجنة، فقدمت لي الكأس وقالت: تفضل!! حاولت أن أنظر إليها ولكني تذكرت في الحال كلام سيدنا الأستاذ ووصيته بأن السالك إلى الله عليه في مقام أدب الحق أن لا يلتفت إلى غير الحق تعالى!!

رددت طرفي عنها، وبعد لحظات جاءتني الحورية عن يساري وقدمت لي الكأس ثانية ولكني لم ألتفت إليها وصرفت وجهي عنها، فتأثرت الحورية وذهبت!!

(الله أكبر على هذه الروح الملكوتية اللطيفة وحسن أدب صاحبها!!)

ثم قال: إلى هذه الساعة كلما أتذكر تلك الواقعة أتألم كيف سببت الحرج لتلك الحورية!

حينما نتفكر ونتعمق في مقامات أدب السالكين نرى أنه لا يمكن للعارف والسالك إلى الله الوصول إلى أي مقام من المقامات الربانية والإلهية إلا ببركة هذا المقام وهذا لا يتحقق إلا بالتعلم، ولكن أين نتعلم؟! وعند من نتعلم؟!

علينا أن نتعلم عند أساتذة ومعلمي الأخلاق والعرفان الذين تعلموا بدورهم من أساتذتهم وعاشوا في هذا الطريق والسبيل ووصلوا إلى ما وصلوا إليه من المقامات الرفيعة.

حينما بارز أمير المؤمنينعليه السلام عمرو بن عبد ودّ وأوقعه على الأرض ثم جلس على صدره كان هو الفاتح في سبيل الله والغالب على عدو الله وهمَّ أن يقتله ولكنه قام عن صدره وما قتله في الحال....

وقد سئل أمير المؤمنينعليه السلام عن وقفته قبل ضرب بن عبد ود فقالعليه السلام: «قد كانَ شَتَمَ أمِّي وَتَفَلَ في وَجْهي فَخَشيتُ أنْ أضْرِبَهُ لِحَظِّ نَفْسِي فَتَرَكْتُهُ حَتَّى سَكَنَ ما بي ثُمَّ قَتَلْتُهُ في الله»(٣٥)!!

ويشرح جلال الدين الرومي بأبيات رائعة (بالفارسية) مقام أمير المؤمنينعليه السلام في ذلك الحال حينما جلس على صدر عمرو بن عبد ود الكافر يريد قتله ولكنه قام ولم يقتله في الحال ويقول:

گفت من تيغ از پي حق ميزنم
بنده حقم نه مأمور تنم

شير حقم نيستم شير هوى
فعل من بر دين من باشد گوا

من چو تيغم وان زننده آفتاب

ما رمیت إذ رمیت در حراب
رخت خود را من زره برداشتم
غیر حق را من عدم انگاشتم
من چو تیغم بر گهرهاي وصال
زنده گردانم نه کشته در وصال
چون درآمد علتي اندر غزا
تیغ را دیدم نهان کردن سزا[٣٦]

فأمير المؤمنين عليعليه السلام بلا شـك وترديد كان يرى وجوده دائما في محضر رب العالمين، وأراد في تلك اللحظات أن يكون عمله خالصا لوجه الله سبحانه وتعالى عملا بأدب العبد لمولاه الحق.

أيها السالك إلى الله، إذا كنت في أي محضر من المحاضر فعليك أن تتحلى بالآداب اللائقة لذلك المحضر، فللمسجد آداب وللمنزل آداب وللسوق آداب وللمدرسة آداب وللصحبة آداب، وكيف إذا كان المحضر محضر المولى جل وعلا!! وعادة حينما يدخل إنسان في مكتب وزير أو مدير يراعي أن يكون في غاية الأدب والاحترام في محضر الوزير أو المدير، فهل حينما يبدأ صلاته بتكبيرة الإحرام التي هي بمثابة إذن دخول في حرم الله سبحانه وتعالى يراعي الأدب والإجلال في محضر رب العالمين كما يراعيه في محضر خلقه وهو أحق بذلك!!

أيها السالك إلى الله!! انصراف القلب إلى غير الله تعالى من أسوأ الآداب معه، فعليك بمعرفة مقامات الأدب فتطبقها وآفات الأدب فتجتنبها وتتبع حسن الأدب الجميل في عبادتك له ودعائك ظاهريا وباطنيا وحضور القلب حال العبادة والدعاء إجلالا لمحضره وتعظيما لشأنه حتى تشملك فيوضات وأنوار رب العالمين وهو الغني عن العالمين.

الهوامش

(١) يضيف بعض مشايخ العرفان أدب الحقيقة كمقام رابع من مقامات الأدب وهو ترك الأدب بفناء العبد وردِّه ذلك كله إلى الله تعالى، ومثله كمثل الوهب في أصناف العطاء وهو أنه يعطي لينعم لا لسبب آخر.

(٢) وأقسام علوم الشريعة أربعة: علم الكلام وعلم الكتاب العزيز وعلم الأحاديث النبوية وعلم الأحكام الشرعية، وعلم الكلام يعبَّر عنه بأصول الدين، وعلم الكتاب العزيز ينقسم إلى علم التجويد وعلم القراءة وعلم التفسير، وعلم الأحاديث النبوية فيه ضربان: الرواية (العلم بما ذكر) والدراية (معرفة معاني ما ذكر ومتنه وطرقه وصحيحه وسقيمه....)، وعلم الأحكام الشرعية يعبَّر عنه بالفقه.

(٣) سورة التوبة: آية ١١٢ وقال الشيخ عبدالرزاق الكاشاني رضي الله عنه في شرح منازل السائرين في باب الأدب أن «حدود الله هي الأحكام الشرعية والأدب كله محافظتها بحيث لا يجري عليه شيء مما لا يسوِّغه الشرع ولا أذن فيه لا على جوارحه ولا على لسانه ولا على قلبه ولا يخطر ببال إلا مع الاستغفار لعلمه بأن الله كان على كل شيء رقيبا».

(٤) سورة الحشر: آية ٧

(٥) أما الآداب في الذوات القائمة بأنفسها فبحسب ما عليه من معدن ونبات وحيوان وإنسان وعروض وما يقبل التغيير منه وما لا يقبل التغيير وما يقبل الفساد وما لا يقبل فيعلم حكم الشرع في ذلك كله فيجريه فيه بحسبه وأما الآداب في الأعراض فهو ما يتعلق بأفعال المكلفين من وجوب وحظر وندب وكراهة وإباحة وأما الآداب الزمانية فما يتعلق بأوقات العبادات فمنه ما يضيق وقته ومنه ما يتسع وأما الآداب المكانية كمواضع العبادات مثل بيوت الله الذي أذن الله فيها أن ترفع ويذكر فيها اسمه وأما الآداب الوضعية فهي أن لا يسمي الشيء بغير اسمه ليتغير عليه حكم الشرع بتغير الاسم فيحلل ما كان محرما أو يحرم ما كان محللا وأما أدب الإضافة فمثل قول خضر عليه السلام فأردت أن أعيبها وقوله فأردنا أن يبدلها للاشتراك بين ما يحمد ويذم وقوله فأراد ربك لتخليص المحمدة فيه فيكتسب الشيء الواحد بالنسبة ذما وبالإضافة إلى جهة أخرى حمدا وهو عينه وتغير الحكم بالنسبة وأما آداب الأحوال كحال السفر في الطاعة وحاله في المعصية وأما الآداب في الأعداد فهو ما يتعلق بعدد أفعال الطهارة ومقاديرها والزكاة وعدد الصلوات وكذلك توقيت ما يغتسل به وما يتوضأ....

(٦) سورة القلم: ج ٤

(٧) وقد علَّم الله تعالى سبعة نفر سبعة أشياء: آدم الأسماء كلها والخضر علم الفراسة ويوسف علم التعبير وداود صنعة الدروع وسليمان منطق الطير وعيسى التوراة والإنجيل ومحمد صلى الله عليه وآله علم الشرع والتوحيد - تفسير الرازي ج ٢ ص ١٨٣ - ص ١٨٤.

(٨) سورة النساء: آية ١٢٣

(٩) بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢١٠

(١٠) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٩٥ نقلا عن محاسن البرقي، الكافي: ج ١ ص ٢٦٥

(١١) التوحيد: ص ١٧٤، بحار الأنوار: ج ٣ ص ٢٨٣ نقلا عن الاحتجاج للطبرسي

(١٢) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ٢٦٩ نقلا عن بشارة المصطفى لشيعة المرتضى

(١٣) بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ١٦٦، وفي غرر الحكم: ج ٥ ص ٤١١ الحديث ٨٩٧١: «مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَضَضِ التَّعْلِيمِ بَقِيَ فِي ذُلِّ الجَهْلِ»

(١٤) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٤٢٢

(١٥) سورة الصف: آية ٢ - آية ٣

(١٦) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٣٦

(١٧) أصول الكافي: ج ١ ص ٤٤

(١٨) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣١٩

(١٩) أصول الكافي: ج ١ ص ٤٤، غرر الحكم: ج ٢ ص ٨٧

(٢٠) سورة الحديد: آية ٤

(٢١) بحار الأنوار: ج ١ ص ١٨٠

(٢٢) سورة الأعراف: آية ٢٣

(٢٣) سورة الأعراف: آية ١٦

(٢٤) سورة الأنبياء: آية ٨٣

(٢٥) سورة المائدة: آية ١١٦

(٢٦) سورة الكهف: آية ٧٩

(٢٧) سورة الكهف: آية ٨٢

(٢٨) سورة الكهف: آية ٦٦

(٢٩) وقد ذكر الشهيد الثاني (قدس سره) في كتابه «منية المريد» ص ٢٣٥ اثنى عشر فائدة من فوائد الأدب المستخرجة من خطاب موسى عليه السلام للخضر عليه السلام في الآية المذكورة وهي: ١ - التبعية: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾، ٢ - الاستئذان بكلمة ﴿هَلْ﴾ وتدل على التواضع، ٣ - الاعتراف بالجهل: ﴿عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ﴾، ٤ - الاعتراف بعظيم نعمة الله على الخضر عليه السلام وطلب تعليمه كما علمه الله سبحانه: ﴿مِمَّا عُلِّمْتَ﴾، ٥ - التسليم من أول الأمر وترك المنازعة، ٦ - المتابعة المطلقة في جميع الأمور دون تقييد: ﴿أَتَّبِعُكَ﴾، ٧ - الابتداء بالاتباع ثم التعليم ثم الخدمة ثم طلب العلم، ٨ - الاتباع من أجل التعليم لا من أجل مال ولا جاه، ٩ - طلب تعليم بعض ما علم لا كله تواضعا منه: ﴿مِمَّا﴾، ١٠ - الاعتراف بأن الله علمه ﴿عُلِّمْتَ﴾، ١١ - طلب الإرشاد وبيان الحاجة في التعلم: ﴿رُشْداً﴾، ١٢ - من كانت إحاطته بالعلوم أكثر (وهو صاحب التوراة الذي كلمة الله عز وجل) كانت بهجته بتلقي العلم أكثر فيشتد طلبه لها.

(٣٠) سورة العلق: آية ٥

(٣١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٢٧١

(٣٢) سورة الروم: آية ٨

(٣٣) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٧٢

(٣٤) مجدد المذهب الميرزا محمد حسن بن محمود بن إسماعيل الحسيني‌ﷺ الشيرازي الأصل والولادة السامرائي المسكن والنجفي المدفن من فحول علماء الإمامية، وقيل أنه سافر إلى النجف الأشرف عام ١٢٥٩هـ وحضر الحوزة العلمية آنذاك وقد صدّق اجتهاده شيخ الفقهاء صاحب الجواهر الشيخ محمد حسن النجفي‌ﷺ وتتلمذ لفترة على الشيخ مرتضى الأنصاري‌ﷺ وبعد وفاة الشيخ الأنصاري بدأ بالتدريس وتتلمذ عليه أغلب فحول عصره، واشتهر بـ «صاحب فتوى التنباكو»، وتوفي عام ١٣١٢ هـ، وقد نقل الكثيرون أنه تشرف بلقاء صاحب العصر والزمان (عج) وكان صاحب كرامات كثيرة.

(٣٥) مناقب آل أبي طالب (لابن شهرآشوب): ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥ نقلا عن الطبري، وذكر الشيخ هادي كاشف الغطاء في «مستدرك نهج البلاغة» الباب الثالث ص ١٧٦: وصرع في بعض حروبه رجلا ثم جلس على صدره ليحتز رأسه فبصق ذلك الرجل في وجهه فقام عنه وتركه، ولما سئل عن ذلك بعد التمكن منه قال‌ﷺ: اغتظت منه فخفت إن قتلته أن يكون للغضب والغيظ نصيب في قتله وما كنت أحب أن أقتله إلا خالصا لوجه الله تعالى.

(٣٦) ترجمة:

حينما أضرب بالسيف قُدُماً فللحق أفعل ذلك لأني عبد الحق لا عبد نفسي وهواي

أنا أسد الله لا أسد الهوى، يشهد فعلي على ديني ومذهبي

أنا كالسيف والحق هو الضارب به، وما رميت إذ رميت في الحرب

اتخذت من ثيابي درعا، لأن سوى الحق ليس عندي إلا خيال وعدم

أنا كالسيف المرصع بجواهر الوصال، أضرب في الحرب لأحيي النفوس لا لأميتها

وحين لحظت في الحرب نقصا يريد الإخلال بخلوص نيتي، فقد آثرت إغماد سيفي.

المنزل (٦)

التَفَكُّرُ عِنْدَ المُحِب

على الرغم أن منزل التفكر يحظى بأهمية بالغة لدى العارفين والسالكين إلى الله إلا أن الكثير منهم لم يدرجه ضمن منازل السلوك إلى الله، وللشيخ عبدالله الأنصاري رضي الله عنه [١] - صاحب كتاب «منازل السائرين» - إشارات مختصرة في هذا المقام وكذلك الشيخ عبدالرزاق الكاشاني رضي الله عنه، وأما عند السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه فهو من أهم المنازل التي يحتاج السالك إلى الله عزَّ وجلَّ إلى معرفته وتطبيقه.

لقد دعا الحكيم جل وعلا الإنسان إلى التفكر في آياته والتدبر في عجائب صنعه وبدائع خلقه الدالة على جلاله وكبريائه وعظمته وقدرته وكمال علمه وأحديته، وأثنى على الناظرين المتفكرين في آياته وآلائه والباحثين في خفيات الأسرار وحقائق الأمور فقال جلَّ ثناؤه في محكم كتابه: ﴿.... ويَتَفَكَّرونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ والأرْضِ رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هذا باطلاً سُبْحانَكَ....﴾[٢] وقال تعالى: ﴿أوَلَمْ يَتَفَكَّروا في أنفُسِهِمْ ما خَلَقَ اللهُ السَّماواتِ والأرْضَ وَمَا بَيْنَهُما إلاَّ بالحَقِّ....﴾[٣] وذم المعرضين عن النظر والتأمل فقال: ﴿وكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّماواتِ والأرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْها وهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ﴾[٤]، وقال النبي صلى الله عليه وآله: «فِكْرُ (تَفَكُّرُ) ساعَةٍ خَيْرٌ مِنْ عِبادَةِ سَنَةٍ»[٥]، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «نَبِّهْ بالتَّفَكُّرِ قَلْبَكَ»[٦]!! إلا أن تفكر كل أحد يكون بحسب فهمه ومرتبته الوجودية ودرجاته في العلوم والمعارف الإلهية ومقاماته العرفانية في السير والسلوك إلى الله عزَّ وجلَّ.

والتفكر في كنه ذات الله عزَّ وجلَّ والعلم بحقيقة صفاته ممنوع ومحظور، فمن ليس كمثله شيء كيف يمكن الوصول إلى معرفة ذاته وقد ورد المنع من الشرع في قوله تعالى: ﴿وأنَّ إلَى رَبِّكَ المُنْتَهى﴾[٧]

وقوله تعالى: ﴿.... ويُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ....﴾[٨] فلا سبيل لمخلوق في التفكر في الذات القدسية المنزهة الممنوعة ولا يمكن العلم بجناب الحضرة الإلهية إلا بما وصف نفسه بنفسه في القرآن الكريم من صفات الكمال والمعاني وهو القائل سبحانه: ﴿ومَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ....﴾[٩] إلا أن كل الآيات البينات مجاري للتفكر في جمال الله وكبريائه وقنوات للتدبر في قدرة الله وعظمته ولكن إذا انتهى الكلام إلى الله فلابد من

التوقف والإمساك، ونقل السيد العلامة الطباطبائيرضي الله عنه في ذيل الآية المباركة «وأنَّ إلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى» هذا الحديث النبوي الشريف: «تَفَكَّروا في خَلْقِ الله ولا تَفَكَّروا في الله فَتَهْلَكوا»[١٠] ثم قال: «النهي إرشادي متعلق بمن لا يحسن الورود في المَسائل العقلية العميقة فيكون خوضه فيها تعرضا للهلاك الدائم».

ثم يقول الحكيم جلت عظمته في كتابه الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتنا في الآفاقِ وفي أنفُسِهِمْ حَتَّى يَتبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الْحَقُّ....﴾[١١]، وللسيد العلامةرضي الله عنه في هذه الآية المباركة كلمات نورانية وأسرار عرفانية سوف نذكرها ضمن البحث بحول الله وقوته.

قد يتفكر الإنسان عمرا طويلا ولكنه لا يعرف معنى التفكر، فما هو التفكر؟!

لابد أن نبين أولا أن السير عليقسمين: سير ظاهري وسير باطني، فالسير الظاهري هو الحركة الظاهرية للبدن وأما السير الباطني فهو ما يتعلق بالمجردات كالعقل والقلب والنفس وحركاتها وهو موضوع بحثنا في هذا المنزل.

قال المحقق الطوسي (قده) أن التفكر هو السير الباطني من المبادىء إلى المقاصد، والمبادىء هي الآفاق والأنفس والمقاصد هي الوصول إلى معرفة الخالق المبدع، وعلى الإنسان الارتقاء بالسير من النقصان إلى الكمال للوصول إلى الكمال المطلق عز شأنه وجل ثناؤه.

وقال الغزالي أن حقيقة التفكر طلب علم غير بديهي من مقدمات موصلة إليه كما إذا تفكر أن الآخرة باقية والدنيا فانية فإنه يحصل له العلم بأن الآخرة خير من الدنيا وهو يبعثه على العمل للآخرة فالتفكر سبب لهذا العلم وهذا العمل حالة نفسانية وهو التوجه إلى الآخرة.

وعلى هذا فالتفكر بحث وطلب عن علم ويقين من مبادئ معلومة للوصول إلى المراد المجهول، والوصول إلى الله مجهول ورؤية الله تبارك وتعالى مجهول وحقيقة «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أنَّهُ الْحَقُّ» مجهول، لذا فالآفاق والأنفس ليست إلا معلومات دالة على وجود الله وعظمته ووحدانيته والتفكر هو السير في هذه المعلومات للوصول إلى معرفة الله سبحانه وتعالى، وكما أن السبَّاح يحتاج إلى وسط يسبح فيه وهو ماء حوض السباحة كذلك التفكر يحتاج إلى وسط، وهذا الوسط هو الآفاق والأنفس وهو معلوم،

والسير يكون من المعلوم إلى المجهول، والمجهول هو «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ»!!

ويعيش الإنسان عادة في غفلة عن الحق سبحانه وتعالى ولذا يمكن التعبير عن التفكر والسير من المعلوم إلى المجهول بأنه أجنحة طيران النفس إلى منزلها القدسي أو بعبارة أخرى التفكر مَركَب الروح ومطيته للسفر إلى الموطن الأصلي والسفر إلى «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ» ومن ثَمَّ يصل الإنسان إلى الوجود الإلهي المطلق جل جلاله وعظم شأنه.

هذا ولابد من توخي الحذر والتفريق بين التفكر السليم والخيال العقيم، فالتفكر ما لم يُبنَى على أسس سليمة ومبادئ واضحة سوف يجر صاحبه إلى الوقوع في نسج الخيال الباطل والوهم المزيف.

وأما بيان التفكر في الآفاق والأنفس:

ففي السير الآفاقي لا يقتصر تفكر الإنسان - سواء العارف أو غيره - في كبار الأشياء في عالم الوجود فحسب بل في صغارها أيضا، ولكن تفكر العارف يختلف عن تفكر الآخرين، فالعارف حينما يتفكر في الذرة يريد بذلك أن يصل إلى الحكمة التي كانت من وراء خلق هذه الذرة وكيفية إبداعها وبعد الوقوف عليها يصل إلى شهود سريان نور مبدع البدائع المحدث للأشياء على غير مثال، لذا لابد أن يصل العارف إلى مَظهر الإبداع أولا ومن ثم يصل إلى المبدع، بديع السماوات والأرض جل وعلا.

وأما الحديث في السير الأنفسي فنبدأها برواية عن جابر بن يزيد الجعفي رضي الله عنه [١٢] (وفيها قبس من أنوار أهل البيت عليهم السلام):

قال جابر الجعفي: حدثني محمَّد بن علي عليه السلام بسبعين حديثا لم أحدِّث بها أحدا قط ولا أحدِّث بها أحدا أبدا فلما مضى محمَّد بن علي عليه السلام ثقلت على عنقي وضاق بها صدري فأتيت أبا عبدالله عليه السلام فقلت: جُعِلت فداك إن أباك حدثني سبعين حديثا لم يخرج مني شيء منها ولا يخرج شيء منها إلى أحد وأمرني بسترها وقد ثقلت على عنقي وضاق بها صدري فما تأمرني؟!

فقال عليه السلام: يا جابر إذا ضاق بك من ذلك شيء فاخرج إلى الجبانة واحفر حفيرة ثم ادل رأسك فيها وقل حدثني محمد بن علي بكذا وكذا ثم طمَّه فإن الأرض تستر عليك!! قال جابر: ففعلت ذلك فخفَّ عني ما كنت أجده [١٣]، وكذلك كان منهج أمير المؤمنين عليه السلام [١٤]!!

والمغزى من ذكر هذه الرواية أن جابر الجعفي رضي الله عنه كان ذا قلب مستعد ومستفيض وكان يأمل إفاضات دائمة من الإمام المعصوم عليه السلام (وذلك في المقامات العالية) فكانت من جملة وصايا الإمام الباقر عليه السلام له - وهي الكلمة العرفانية التي تهمنا في بحثنا في هذا المنزل - أنه قال: «يا جابر لا معرِفَةٌ كَمَعْرِفَتِكَ بِنَفْسِكَ» [١٥].

كلمة إمامية جامعة تفتح لنا أبوابا لا حصر لها من المعرفة، فلا تفكُّر ولا معرفة ولا تحقيق ولا بحث كالتفكر في معرفة النفس، وكما قيل أن المعرفة بالآيات الأنفسية أنفع من المعرفة بالآيات الآفاقية وإن كانت كلاهما نافعتين، ويعلل السيد العلامةرضي الله عنه ذلك بقوله: «أن النظر في الآيات الآفاقية والمعرفة الحاصلة من ذلك نظر فكري وعلم حصولي بخلاف النظر في النفس وقواها وأطوار وجودها والمعرفة المتجلية منها فإنه نظر شهودي وعلم حضوري، والتصديق الفكري يحتاج في تحققه إلى نظم الأقيسة واستعمال البرهان، وهو باقٍ مادام الإنسان متوجها إلى مقدماته غير ذاهل عنها ولا مشتغل بغيرها، ولذلك يزول العلم بزوال الإشراف على دليله وتكثر فيه الشبهات ويثور فيه الاختلاف، وهذا بخلاف العلم النفساني بالنفس وقواها وأطوار وجودها فإنه من العيان، فإذا اشتغل الإنسان بالنظر إلى آيات نفسه وشاهد فقرها إلى ربها وحاجتها في جميع أطوار وجودها وجد أمرا عجيبا، وجد نفسه متعلقة بالعظمة والكبرياء متصلة في وجودها وحياتها وعلمها وقدرتها وسمعها وبصرها وإرادتها وحبها وسائر صفاتها وأفعالها بما لا يتناهى بهاء وسناء وجمالا وجلالا وكمالا من الوجود والحياة والعلم والقدرة وغيرها من كل كمال، وشاهِد ما تقدم بيانه أن النفس الإنسانية لا شأن لها إلا في نفسها ولا مخرج لها من نفسها ولا شغل لها إلا السير الاضطراري في مسير نفسها وأنها منقطعة عن كل شيء، وعند ذلك تنصرف عن كل شيء وتتوجه إلى ربها وتنسى كل شيء وتذكر ربها فلا يحجبه عنها حجاب ولا تستتر عنه بستر وهو حق المعرفة الذي قُدِّر لإنسان، وهذه المعرفة الأحرى بها أن تُسمَّى بمعرفة الله بالله وأما المعرفة الفكرية التي يفيدها النظر في الآيات الآفاقية سواء حصلت من قياس أو حدس أو غير ذلك فإنما هي معرفة بصورة ذهنية عن صورة ذهنية وجَلَّ الإله أن يحيط به ذهن أو تساوى ذاته صورة مختلقة اختلقها خلق من خلقه ولا يحيطون به علما»[١٦].

فالنفس كتاب تكويني، ولكن كيف نتفكر في كتاب النفس؟!

يقول الله تبارك وتعالى في مدح الناظر في أمر نفسه ومزكيها عن الأغشية والحجب المادية: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾[١٧] ويذم المعرض عن ذلك بوصفه إياه بالخيبة والخسران قائلا: ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[١٨]، فالإنسان أمامه طريقان في المعاملة مع النفس، إما أن يدخل فيها الحالات الطيبةوالنية الصادقة ويحَلّيها بالذكر والفكر والتقوى فيزكيها وينميها أو أن يدس فيها الرذائل والمساوئ خفاءً فيفسدها [١٩].

ويفتح الإنسان كتاب نفسه وصحيفة عمله من يوم بلوغه ويبدأ بالكتابة فيه ويظل يكتب فيه ويكتب طوال سني عمره إلى أن يحين أجله فيطوي كتابه حتى يأتي اليوم الذي يقف فيه بين يدي الله عزَّ وجلَّ فيقال له: ﴿اقْرَأْ كِتابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[٢٠].

ولقد كتبنا في كتابنا هذا آثاما وخطايا وذنوبا ومفاسد وضروبا شتى من الإفراط والتفريط، وعلينا أن نقرأه ونتفكر فيه باختيارنا من قبل أن نؤمر بقراءته يوم الحساب، يوم ترفع الموازين فلا سعي ولا عمل بل جزاء وحساب وثواب وعقاب، فمتى نفرغ لإصلاح كتابنا ومحاسبة أنفسنا؟!

الإنسان بنعمة التفكر في النفس يتوصل إلى: ﴿سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الآفاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ...﴾!! فأيها السالك إلى الله هل لمست بقلبك نفحة من النفحات الإلهية أم لا؟! هل رأيت رؤيا صادقة أوصلتك بنورها إلى نور المبدع أم لا؟! هل وصلت إلى حقيقة: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ أم لا؟! كم من الناس تعرفهم في عالم الوجود وصلوا إلى حقيقة ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وسواه باطل؟!

لذا فالاستغفار عند العارفين ليس فرع على الذنب فيترتب ذكره على حصول الذنب بل عما كان سببا في السقوط من مقام علوي إلى مقام سفلي!! أي أن العارف يستغفر الله من كل فكر وذكر ولذة كانت في غير الله جل وعلا، وهذا سيد الساجدين علي بن الحسين عليه السلام يقول في مناجاة الذاكرين: «وأَسْتَغْفِرُكَ مِنْ كُلِّ لَذَّةٍ بِغَيْرِ ذِكْرِكَ»!! فالوقاية وسيلة لتجنب السقوط، والوقاية هي التفكر في آيات الله في الآفاق وفي الأنفس!!

هل وصلت في حياتك إلى معرفة مفهوم التفكر وموضوع التفكر ومبدأ التفكر والمقصد بعد التفكر؟! بل أهم من ذلك كله هل وصلت إلى حقيقة: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾؟!

بعد معرفة حقيقة ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ هل يركن العارف والسالك إلى الظالمين؟! أم هل يبقى في قلبه شيء من التملق أو الخيانة أو الحسد أو الغيبة؟! إذا بقي شيء من ذلك في قلب العارف أو السالك فهذا دليل على أنه ما توصل بعد إلى حقيقة ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾!!

وللوصول إلى هذا المقام لابد من معرفة آفة التفكر الذي هو أهم من كل مبادىء التفكر فيجتنبه، وآفة التفكر الوسواس، فالأفكار التي ترد على قلب الإنسان إما أن تكون محمودة أو مذمومة، فإن كانت محمودة فهي إلهام وإن كانت مذمومة فهي وسواس، ولا يمكن أن يشغل القلب شيئان في آن واحد، فإذا كان القلب مشغولا بفكر مشروع ومعقول ومحمود فلا سبيل للمذموم إليه.

وعلاج الوسواس التفكر والدوام عليه، فعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه قال: «أَفْضَلُ الْعِبادَةِ

إدْمـــانُ الـتـفَـكُّــرِ في الله وفي قُـدْرَتــِهِ»[٢١]، ويرى علمـاء الأخلاق والعرفان أن علاج الوسـواس ودفعـه والتخلص منه هو التفكر ولكـن بمفهومه الصحيح لا بالمفهوم الخاطىء، فالوسـواس يورث الغفلـة عن الله سـبحانه وتعالى، ولذا كان أمـير المؤمنينعليه السلام يقول: «نَـبِّــهْ بِالـتَّـفَـكُّــرِ قَـلْـبَـكَ»[٢٢]، فإذا عرف السـالك إلى الله أن القلب لا يشـتغل بشـيئيـن في آن واحــد فتلك مقدمة لدفع الوسـاوس والدخول في صراط التفكر دون عائـق.

وأمـا الشيء الملازم للفكر والذي يجـب المداومة عليه للوصول إلى نور الأنوار ومبدع النور ومبدع الآفاق والأنفس وكل بدائع عالم الوجود هو الـذِّكـْر، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ فِي خَـلْـقِ السَّماوَاتِ والأَرْضِ وَاخـتِـلافِ اللَّيْـلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأولــي الأَلْـبَابِ الَّذينَ يَذْكُرونَ اللهَ قِياماً وقـُعوداً وعَلَى جـُنوبِــهِـمْ ويَتَفَكَّرونَ فِي خَـلْقِ السَّـماواتِ والأَرْضِ رَبَّنا ما خَـلَقْتَ هذا باطِـلاً سُـبْحـانَـكَ فَـقِـنا عَــذابَ النـَّارِ﴾[٢٣]، وذكر الشـيخ عبدالله الأنصاري في «منازل السـائرين» أن الذكر فوق الفكر لأن الفكر طلب والذكر وجود، وللذكر منازل مستقلة تتجاوز الخمسة منازل.

ومسك خـتام البحث حديث مروي عن الإمام علي بن موسى الرضـاعليه السلام في مقام الـتـفـكـر، فقد روي عنـهعليه السلام أنه قال: «لَـيْـسَ الـعِبــادَةُ كَـثْـرَةَ الـصَّــوْمِ والـصَّـلاةِ إنـَّما الـعِـبـادَةُ في الــتَّـفَـكُّـرِ في أمْـرِ الله عَـزَّ وَجَـلَّ»[٢٤]!!

ففأيها السـالك إلى الله إذا تفكرت وابتدأ سـير باطنك ونفسك وعقلك وقلبك من المبدأ إلى المنتهى ووصلت إلى غاية آمال العارفين فأي صلة بينك وبين ربك هي أقوى من الصلاة والصوم!! ولكن أي صلاة وصوم؟! صلاة العارفين الخاشـعين الموالين وصوم العارفين المحبين العاشقين!! هذا هو الملاك الحقيقي للعبادات.

أيهـا السـالك إلى الله!! لمعرفة هذه المفاهيم وكيفية تطبيقها عليك باتباع ارشـادات المعلم والمرشـد الروحـي حتى يأخـذ بيدك من بداية الطريق ويدخلك في هذه المنازل منـزلا بعد منزل ولكي يبين لك مفهوم التفكر الصحيح الخالي من شـوائب الوساوس والسـير في عالمي الآفاق والأنفس للوصول إلى حكمة الأشـياء وحقيقتها ولباب الأمور لا قشسـورها ومن ثم معرفة مبدعها وخالقها ذلك هو النور العظيـم وحقيقة: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّـهُ الْحَـقُّ﴾!! فبسـلاح الحق وهـو الفكر والذكر يمكن الوصول إلى الحق.

أيها السـالك إلى الله!! إذا عملت الطاعات مع التفكر والتدبر وأعملت فكرك في خالقك وابتغيت إلى الله الوسـيلة التي بها أمرك وأتيت الله من الباب الذي إليه أرشـدك وعملت بعد ذلك خالصا موقنا هنالك يشملك الله تعالى بكراماته وعناياته ويفيض على قلبك من فيضه وينوره بنوره.

ولا يسعنا في هذا المقام إلا أن نعترف بتقصيرنا وقصورنا وعجزنا ونقول:

إلهنا!! ظلمنا أنفسنا وأظلمناها وامتلأت كتب أنفسنا بالآثام والمعاصي ولم نتفكر في سوء أعمالنا فكيف الطريق إلى إصلاحها!!

إلهنا!! وهبتنا العقل فلم نتفكر في عظمتك وما خلقت وذرأت من بدائع خلقك وجميل صنعك، ووهبتنا القلب ولم نعرف السبيل إليك والمسلك إلى رضوانك، فسبحان من لم يجعل سبيلا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، ونحن مقرُّون بعجزنا وقصورنا، فبك نستدل عليك، ومنك نطلب معرفتك والوصول إليك، فيا دليل المتحيرين خذ بأيدينا واهدنا سواء السبيل، برحمتك يا أرحم الراحمين.

الهوامش

(١) ذكرنا نبذة عن سيرته في المنزل (٣) – الإرادة عند المحب – فراجع

(٢) سورة آل عمران: آية ١٩١

(٣) سورة الروم: آية ٨

(٤) سورة يوسف: آية ١٠٥

(٥) بحار الأنوار: ج ٦ ص ١٣٣ نقلا عن مصباح الشريعة.

(٦) أصول الكافي: ج ٢ ص ٥٤، مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ١٨٣ نقلا عن الشيخ المفيد في أماليه، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٩٥

(٧) سورة النجم: آية ٤٢، وورد في بحار الأنوار ج ٣ص٢٥٩ نقلا عن تفسير علي بن إبراهيم وتوحيد الصدوق ص ٤٥٦ في قوله تعالى ﴿وأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ عن أبي عبدالله الصادقعليه السلام قال: «إذا انتهى الكلامُ إلى الله فأمْسِكوا وتكلَّموا فيما دونَ العرشِ ولا تكلِّموا فيما فوقَ العرشِ فإنَّ قوماً تكلَّموا فيما فوقَ العرشِ فتاهَتْ عقولُهم حتى كانَ الرجلُ ينادَى من بين يديه فيجيبُ من خلفِه وينادَى من خلفِه فيجيبُ من بين يديه»، وقالعليه السلام أيضا: «إيَّاكُمْ والتفكُّرُ في الله فإنَّ التفكُّرَ في اللهِ لا يزيدُ إلا تيهاً إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا تُدْرِكُهُ الأبْصارُ ولا يوصَفُ بمِقْدارٍ».

(٨) سورة آل عمران: آية ٢٨، آية ٣٠

(٩) سورة الأنعام: آية ٩١، سورة الحج: آية ٧٤، سورة الزمر: آية ٦٧

(١٠) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ١٩ ص ٥٣ نقلا عن الدر المنثور

(١١) سورة فصلت: آية ٥٣

(١٢) من رواة أحاديث أهل البيتعليهم السلام جابر بن عبدالله الأنصاريرضي الله عنه وجابر بن يزيد الجعفيرضي الله عنه، وأما جابر بن عبدالله الأنصاريرضي الله عنه فقد عاصر سبعة من المعصومينعليهم السلام وهم رسول اللهصلى الله عليه وآله و الصدِّيقة الزهراءعليها السلام والإمام عليعليه السلام والحسنعليه السلام والحسينعليه السلام وعلي بن الحسينعليه السلام ومحمد بن عليعليه السلام، وكان حاملا لسلام رسول اللهصلى الله عليه وآله إلى الإمام محمد بن علي الباقرعليه السلام، فقد روي عنه أنه قال: قال رسول اللهصلى الله عليه وآله: يا جابر إنك ستبقى حتى تلقى ولدي محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب المعروف في التوراة بباقر فإذا لقيته فاقرأه مني السلام فلقيه في بعض سكك المدينة فقال له: يا غلام من أنت؟! فقالعليه السلام: أنا محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، قال له جابر يا بني أقبل فأقبل ثم قال له أدبر فأدبر فقال: شمائل رسول اللهصلى الله عليه وآله ورب الكعبة ثم قال: يا بني رسول الله يقرئك السلام، فقالعليه السلام: على رسول الله السلام مادامت السماوات والأرض وعليك يا جابر بما بلغت السلام (مقتبس من علل الشرائع: ص ٢٣٣) وهو المعروف بزيارة أربعين الإمام الحسينعليه السلام، وأما جابر الجعفي فقد كان تلميذا من تلاميذ الإمام الباقرعليه السلام والصادقعليه السلام ومن الخواص وأصحاب السر، فعن زياد بن أبي الحلال أنه قال: اختلف أصحابنا في أحاديث جابر الجعفي فقلت أنا أسأل أبا

عبـدالله‌عليه السلام، فلـما دخلت ابتـدأني فقال: رحم الله جابـر الجعفي كان يصـدق علينا لعن الله المغيرة بن سـعيد كان يكـذب علينـا!! (بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٣٤١)، وكذلك روي أن ذريح المحاربي سـأل الإمام جعفر الصادق‌عليه السلام عن جابر الجعفي فقال‌عليه السلام: دع ذكر جابر فإن السفلة إذا سمعوا بأحاديثه شنعوا أو قال أذاعوا!! (نقلا عن رجال الكشي).

(١٣) أصول الكافي: ج ٨ ص ١٥٧ ووردت هذه الرواية في معجم رجال الحديث (لآية الله الخوئي‌قدس سره: ج ٤ ص ٢٢)، وفي الاختصاص للشيخ المفيد كالتالي: عن جابر الجعفي قال حدثني أبو جعفر‌عليه السلام سبعين ألف حديث لم أحدث بها أحدا أبدا، قال جابر: فقلت لأبي جعفر‌عليه السلام: جعلت فداك إنك حملتني وقرا عظيما بما حدثتني به من سركم الذي لا أحدث به أحدا وربما جاش في صدري حتى يأخذني منه شبيه الجنون!! فقال‌عليه السلام: يا جابر فإذا كان ذلك فاخرج إلى الجبان فاحفر حفيرة ودل رأسك فيها ثم قل حدثني محمد بن علي بكذا وكذا!! وورد في رجال الكشي أنه قال «تسعين ألف حديث» ولعل السبب في اختلاف الروايات في عدد الأحاديث التـي رواهـا جابـر الجعفي أن العدد «تسـعين» و«سـبعين» متشـابهان إذا ما حذفنـا النقاط وذلـك أن كتابة الحروف في العصر القديم لم تكن منقطة!!

(١٤) فقـد روي عـن ميثـم التمار أنه قال: أصحـر بي مولاي أمير المؤمنـين‌عليه السلام ليلة من الليالي قد خـرج من الكوفة وتوجـه إلى مسـجد جعفي وصلى فيه ثم خرج فأتبعته حتى خرج إلى الصحـراء وخطَّ لي خط وقال إياك أن تجاوز هذه الخطة ومضى عني.... إلى أن قال: وجعلت أتبع أثره فوجدته‌عليه السلام مطلعا في البئر إلى نصفه يخاطب البئر والبئر تخاطبه فحس بي فقال‌عليه السلام: أسمعت مما قلت شيئا؟! قلت لا يا مولاي، فقال: يا ميثم وفي الصدر لُبانـات إذا ضـاق لهـا صدري نكـتُّ الأرض بالكف وأبديت لهـا سري!! (بحارالأنـوار: ج ٤٠ ص ١٩٩ ولبانات أي حاجات من غير فاقة).

(١٥) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٦٥

(١٦) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ٦ ص ١٧١ - ١٧٢

(١٧) سورة الشمس: آية ٩

(١٨) سورة الشمس: آية ١٠

(١٩) وقـد ورد في الكافي ج ٢ ص ٥٥ عـن أمير المؤمنين‌عليه السلام أنه قال: «الـتـفـكُّـرُ يَـدْعـو إلى الـبِـرِّ والـعَـمَـلِ به» فالتفكر هنا إلى جانب أنه يشـمل التفكر في عظمة الله وجماله وجلاله ووحدانيته فيدعو إلى خشـيته وطاعته والتفكر في أسرار العبادات فيدعوه إلى تكميلها كذلك التفكر في حسنات أعماله يدعوه إلى إكثارها والتفكر في سـيئات أعمالـه يدعـوه إلى اجتنابها والتوبـة والندم عليها فبذلك يزكي نفسـه ويخليها من جميع المسـاوئ والرذائل ويحليها بالمحاسن والفضائل.

(٢٠) سورة الإسراء: آية ١٤

(٢١) أصـول الـكافي: ج ٢ ص ٥٥، والمقصـود من التفكـر في الله - كما ذكرنا آنفا - هو التفكـر في عظمته وبديع صنعه وعجائب خلقه لا التفكر في ذاته.

(٢٢) أصول الكافي: ج ٢ ص ٥٤، مستدرك الوسائل: ج ١١ ص ١٨٣ نقلا عن الشيخ المفيد في أماليه، وسائل الشيعة: ج ١٥ ص ١٩٥

(٢٣) سورة آل عمران: آية ١٩٠ - آية ١٩١

(٢٤) أصول الكافي: ج ٢ ص ٥٥، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٣٢٢

المنزل (٧)

اتِّحادُ العَمَلِ والعامِلِ عِنْدَ المُحِب

حينما نطلق كلمة عامل على شخص ما يجب أن يكون هناك عمل يعمله، ولكن بعد طي المقدمات التي ذكرناها في المنازل السابقة ومع طيران النفس بجناح العقل والفناء في الله تنتفي كل التعينات وتضمحل الكثرات فلا يكون هناك حديث عن العمل والعامل كل على حدة بل يبتدىء دور الاتحاد بين العمل والعامل، ولكن كيف يكون هذا الاتحاد؟!

في مقام الاتحاد بين العمل والعامل لا يمكن الفصل بين العمل والعامل ولا يكون الحديث عن العمل بل عن العامل الذي يدل بدوره على العمل، فيكون الإنسان هو العمل الصالح، هو الخير، هو الصلاة، هو الصوم، هو الحج.

ويمكن توضيح مفهوم الاتحاد بين العمل والعامل في أبعاد مختلفة، ففي بُعد العبادة مثلا نرى أن الله تبارك وتعالى يشير إلى ذلك بقوله: ﴿فَتَقَبَّلَها رَبُّها بِقَبولٍ حَسَنٍ وأنبَتَها نَباتاً حَسَناً....﴾[1]!! ولم يقل «فتقبَّل عملها»! وفي بُعد الجهاد يقول تبارك وتعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلوهُمْ ولَكِنَّ اللهَ قَتَلَهُمْ ومَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكِنَّ اللهَ رَمَى....﴾[2] أي أن الله جل جلاله نسب القتل والرمي لنفسه لا لرسول الله ﷺ وأصحابه، كذلك كل الأفعال والتأثيرات منه عزَّ وجلَّ في مظاهر الخلق وهو الفاعل بفعل العبد، وهنا يظهر اتحاد العمل والعامل.

وقصة إبراهيم عليه السلام ونار نمرود واتحاد العمل والعامل هي قضية في واقعة، فالله سبحانه وتعالى يقول: ﴿.... قُلْنا يا نارُ كُوني بَرْداً وَسَلاماً عَلَى إبْراهيمَ﴾[3]، فعلى الرغم أنها قضية في واقعة لإبراهيم عليه السلام إلا أنها قضية دائمة وأصل مستمر في كل عصر وزمان كأنما يريد الله تعالى أن يقول لعبده عبدي إذا أصبحت إبراهيميا - أي نهجت منهاج إبراهيم عليه السلام - فعَلَيَّ إطفاء النار!!

كيف صار إبراهيم عليه السلام إبراهيما يُقتدى به؟! وكيف صار عليه السلام أصلا؟! ولِمَ أكثر أئمتنا عليهم السلام الحديث عن إبراهيم عليه السلام وسيرته؟!

لأنه لم يستند في أصل التوحيد على البرهان والمنطق والاستدلال بل بنى توحيده لله سبحانه وتعالى على الحب الخالص له: ﴿فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾[٤]، فأساس الوصول إلى اتحاد العمل والعامل والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى هو الحب كما كان عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام.

وقد رُوي أن منصور الدوانيقي وجَّه إلى واليه الحسن بن زيد - واليه على الحرمين - أن أحرق على جعفر بن محمَّد داره فألقى النار في دار أبي عبدالله عليه السلام فأخذت النار في الباب والدهليز فخرج أبو عبدالله عليه السلام يتخطى النار ويمشي فيها ويقول: «أنا ابْنُ أعْراقِ الثَّرَى أنا ابْن إبْراهيمَ خَليلِ الله»[٥]!!

ورُوي عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآية المباركة ﴿إلاَّ مَنْ أتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَليم﴾[٦] أي سليم من حب الدنيا وفي رواية أخرى من يلقى ربه وليس في قلبه أحد سواه، وهذا ما عاش عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام وعليه مات: ﴿إذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَليمٍ﴾[٧]، فكل قلب فيه شرك أو شك فهو ساقط، ولذا لا تجد الذخائر والدفائن إلا في العرفانيات وعند العارفين الذين تركوا الدنيا وتحرروا من قيودها وتعلقت قلوبهم بحب الله وحده، ولا تكشف الأسرار إلا لأصحاب السر الذين وصلوا إلى مقام اتحاد العمل والعامل الذي لا يرى فيه الأغيار لأنفسهم مكانا ولا مُقاما.

يقول العرفاء إذا أراد السالك إلى الله الوصول إلى مقام اتحاد العمل والعامل فهو بحاجة إلى جناحين هما: النفر الثقافي (العلمي) والنفر الجهادي.

الجناح الأول: النفر الثقافي (العلمي)

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَما كَانَ الْمُؤْمِنُون لِيَنفِروا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهوا في الدِّينِ وَلِيُنْذِروا قَوْمَهُمْ إذا رَجَعُوا إلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[٨].

وكلمة التفقه في هذه الآية وإن كانت تعني أن يسافر الإنسان إلى بلد ما ويدخل مدرسة علمية دينية ليتفهم المعارف الدينية من أصول وفروع ثم يرجع إلى وطنه عالما فقيها يبيِّن للناس الأحكام الفقهية والمعارف الإسلامية من الخطابة والحديث والموعظة إلا أن هذا الهدف هدف متوسط من التفقه[٩]!!

رضوان الله تعالى على روح السيد العلامة الطباطبائي وأفاض الله علينا من بركات تربته حينما كان يقال له أن فلانا سافر وتعلم وأصبح عالما فقيها ورجع إلى قومه يبين لهم ما تعلم من الأحكام الفقهية يقول أن هذا هدف متوسط من التفقه والهدف الحقيقي والغائي غير ذلك تماما، إذاً ما هو الهدف الحقيقي والغائي من التفقه؟!

الهدف الحقيقي والغائي هو: ﴿وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾!! أي يرجعوا إلى قومهم لينذروهم!!
ومقام الإنذار ليس مقاما بسيطا وعاديا، ولا يصل إليه إلا من وصل إلى مقام الخوف الحقيقي من الله سبحانه وتعالى فيخاف هو أولا حتى يقدر أن ينذر الآخرين ويخوِّفهم!! وقد يعتقد الكثير منا أنه يخاف الله ويعطي لنفسه الترخيص في الإنذار ولكن في الواقع لم يعرف معنى الخوف الحقيقي من الله سبحانه وتعالى ولم يشعر به حتى ينذر الآخرين!!
حينما يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾[١٠] من هو المخاطَب المأمور بالإنذار في هذه الآية؟! هو رسول الله ﷺ، يقول الشيخ المفيد رضي الله عنه[١١] أن رسول الله ﷺ كان حينما يتكلم عن الجحيم والنار ومواقف يوم الآخرة يحمر وجهه تارة ويصفر أخرى وترتعد فرائصه وكأنه قائد جيش مهزوم قد حوصر من قِبل أعدائه لا يملك لنفسه حيلة للتصرف والتدبير!!
فلولا حالات رسول الله ﷺ التي كانت تعتريه من شدة خوفه من الله عزَّ وجلَّ وارتعاد فرائصه حينما يتكلم عن يوم القيامة وعذاب الآخرة والجحيم لما نال مقام الإنذار العظيم.
كان هذا حال نبينا ﷺ وهو يعلم رفيع مقامه عند الله عزَّ وجلَّ وعزة شأنه لديه فكيف بنا حينما نقرأ القرآن ونمر على آيات العذاب والآخرة!! هل كان لتلك الآيات أثر على قلوبنا ونفوسنا أم كأنها لم تكن شيئا مذكورا!! فلولا النفْر العلمي والخوف الحقيقي من الله عزَّ وجلَّ فلا سبيل للاتحاد بيننا وبين أعمالنا!!
أيها السالك إلى الله!! إذا وصلت إلى مقام الخوف الحقيقي من الله تبارك وتعالى هنالك تعرف حقيقة عبارة الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه حيث يقول: «إلهي لا تُؤدِّبْني بِعُقوبَتِكَ»!! وحقيقة العقوبة الخفية بقوله: «ولا تَمْكُرْ بي في حيلَتِكَ»[١٢]!!
الجناح الثاني: النفر الجهادي
يبين المرحوم الشيخ كاشف الغطاء رضي الله عنه[١٣] أفضلية الجهاد على الصلاة بقوله أن الصلاة عمود الدين والجهاد فسطاطه وما الحاجة إلى العمود لولا الفسطاط!! والسالك إلى الله يمكنه بالجناح الثاني - النفر الجهادي - أن يصل إلى مقام اتحاد العمل والعامل.
وجهاد النفس ومحاربة هواها وميولاتها أعظم من جهاد العدو الخارجي، فعن أمير المؤمنين عليه السلام أن رسول الله ﷺ بعث سرية فلما رجعوا قال ﷺ: مَرْحَباً بِقومٍ قَضَوا الجِهادَ الأصْغَرَ وبَقِيَ عليهِم الجِهادُ الأكْبَرُ، قيل: يا رسول الله وما الجهادَ الأكبر؟! قال ﷺ: جِهادُ النَّفْسِ!! ثم قال ﷺ: أفْضَلُ الجِهادِ مَنْ جاهَدَ نَفْسَهُ التي بينَ جَنبَيْهِ!![١٤] وقال ﷺ أيضا: «أعْدَى عَدُوِّكَ نَفْسُكَ التي بَيْنَ جَنبَيْكَ»[١٥]، فالنفس

أقرب الأعداء إلى الإنسان وأشدها عداوة له لأنها جامعة للصفات المذمومة ميالة إلى اللعب واللهو مذعنة للملذات والشهوات مبعدة الإنسان عن الله عزَّ وجلَّ، ويقول العارف الكبير بابا طاهر العريان (بما معناه): إنما صارت النفس عدوة للإنسان لأنها تميل إلى الأخلاق الربوبية كالكبر والتعظيم وطلب المدح والتعبد وغيرها»[١٦].

فكما أن الجهاد الأصغر هو قتال العدو الظاهري بالسلاح الظاهري كذلك جهاد النفس الباطني بقتله بالسلاح الباطني، ونيل وسام «القتل في سبيل الله» يشمل الحالتين وإن كانت الثانية أعلى مرتبة ومقاما، وقد ذكر في القرآن الكريم كلمة الجهاد في كلتا الحالتين كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿انفِروا خِفافاً وثِقالاً وجاهدوا بأمْوالكُمْ وأنفُسِكُمْ في سَبيلِ الله﴾[١٧] وقوله: ﴿والَّذِينَ جاهَدوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا﴾[١٨] وكذلك في قول رسول الله ﷺ كما مر.

آفة مقام اتحاد العمل والعامل الجهل، فالإنسان بهذه الآفة إما أن يكون جاهلا أو متجاهلا، والمتجاهل من يدَّعي عدم العلم بالشيء مع الإرادة كمن يتجاهل أحكام الله سبحانه وتعالى ومحرماته فيذنب وينحرف، وهنا يكون محل العقوبة.

ومَثَل المذنب المتجاهل في أحكام الله كمثل المريض الذي يتجاهل مرضه ولا يراجع الطبيب ويخدع نفسه ويقول أنا لست بمريض!! فهل يكون في هذه الحالة أمل في شفاء هذا المريض!! بالطبع لا.

أيها السالك إلى الله!! كل إنسان معرَّض لخطر هذه الآفة العظيم، فإذا غفل يوما عن المعارف والعلوم الإلهية والحالات الروحانية أو تجاهلها ولم يعتن بشأنها فانقطع عنها هنالك يهجم عليه الشيطان بسلاح خداع النفس بأنه ليس بمريض ويحرمه من خيرات المعارف الإلهية وسعاداتها!! وعلى هذا لابد من مراجعة طبيب الروح والنفس للوقاية من هذه الآفة أو معالجتها.

إلهنا!! نعترف بذنوبنا وأمراضنا وجهلنا وتجاهلنا ونسألك وندعوك أن لا تُؤدبنا بعقوبتك ولا تمكر بنا في حيلتك واغفر لنا ذنوبنا واشفنا من أمراض قلوبنا برحمتك يا أرحم الراحمين!!

الهوامش

(١) سورة آل عمران: آية ٣٧

(٢) سورة الأنفال: آية ١٧

(٣) سورة الأنبياء: آية ٦٩

(٤) سورة الأنعام: آية ٧٦

(٥) بحار الأنوار: ج ٤٧ ص ١٣٦، وأعراق الثرى كناية عن إسماعيل‌ؑ ولعله إنما كني عنه بذلك لأن أولاده انتشروا في البراري.

(٦) سورة الشعراء: آية ٨٩

(٧) سورة الصافات: آية ٨٤

(٨) سورة التوبة: آية ١٢٢

(٩) يقول صدر المتألهين الشيرازي (قده) في إحدى رسائله بالفارسية: «لقد صرح بعض العلماء أن كلمة الفقه كانت تطلق في الأزمنة السالفة على علم طريق الآخرة ومعرفة النفس وفهم دقائق آفاتها ومكائدها وأمراضها وتسويلاتها الشيطانية والإعراض عن لذات الدنيا وأغراض النفس والهوى والاشتياق إلى نعيم الآخرة ولقاء الله تعالى والخوف من يوم الحساب».

(١٠) سورة المدثر: آية ٢

(١١) الشيخ الأعظم محمد بن محمد بن نعمان بن عبدالسلام بن جابر بن نعمان بن سعيد العربي الحارثي المشهور بـ«الشيخ المفيد» من أركان الفقهاء والمتكلمين الإمامية تتجاوز تأليفاته ٢٠٠ مجلد وروى عنه أكابر العلماء كالسيد الرضي والسيد المرتضى وأبو الفتح الكراجكي والشيخ الطوسي، توفي عام ٤١٣ هـ، وسبب لقبه بالشيخ المفيد هو أنه كان حاضرا في مجلس درس علي بن عيسى الرماني فدخل رجل بصري وسأل الرماني عن خبر الغار والغدير فقال الرماني: خبر الغار دراية وخبر الغدير رواية والدراية مقدمة على الرواية، فسكت الرجل البصري وخرج فسأل الشيخ (المفيد) الرماني عن حكم من يحارب إمام زمانه فقال كافر ثم قال بل فاسق ثم سأله الشيخ عن إمامة علي‌ؑ فصدَّقه الرماني ثم سأله عن حال طلحة والزبير فقال إنهما تابا، فقال الشيخ: محاربة إمام الزمان دراية والتوبة رواية والدراية مقدمة على الرواية!! فسأله الرماني: من أنت؟! فقال الشيخ: ابن المعلم (وكان والد الشيخ المفيد ملقبا بالمعلم) ثم سأله عن أستاذه فقال: أستاذي أبو عبدالله جعل، فكتب الرماني رسالة إلى أستاذ الشيخ ولما قرأ الأستاذ الرسالة قال للشيخ: ماذا جرى بينك وبين الرماني لكي يوصيني بك ويلقبك بـ«المفيد»!!

(١٢) من دعاء له‌ؑ رواه عنه أبو حمزة الثمالي

(١٣) علم الأعلام سيف الإسلام الشيخ جعفر بن الشيخ خضر بن الشيخ يحيى الحلي الجناحي، نجفي المسكن والمدفن، من أعاظم الفقهاء والمجتهدين الاثنا عشرية ويقال أن نسبه الشريف يرجع إلى مالك الأشتر‌رضي الله عنه

واشـتهر في الفقهاء بـ«الشـيخ الأكبر» وبعد تأليف كتابه كشف الغطاء اشتهر بـ«كاشف الغطاء»، توفي عام ١٢٢٧ هـ أو ١٢٢٨ هـ.

(١٤) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٦٥

(١٥) المحجة البيضاء: ج ٥ ص ٦، كنوز الحقائق: ص ١٤، غوالي اللآلئ: ج ٤ ص ١١٨

(١٦) شرح كلمات بابا طاهر: ص ٧٧

(١٧) سورة التوبة: آية ٤١

(١٨) سورة العنكبوت: آية ٦٩

المنزل (٨)

نِهايَةُ العِلَلِ عِنْدَ المُحِب

العامل بعد اتحاده بالعمل (وفي هذا المقام يكون الحديث في العامل دون العمل) يحتاج في عمله إلى القوة والطاقة والعِلَّة ولكل معلول عِلَّة وكل علَّة معلولة لعِلَّة أخرى فوقها ولابد أن ترتقي كل العلل في عالم الوجود إلى عِلَّة العلل ونهاية العلل وغاية الغايات ومسبب الأسباب بلا سبب وهو ذات الله عزَّ وجلَّ[١]، فكل ما ينتهي بالعرض لابد أن ينتهي بالذات.

والسلوك إلى الله عزَّ وجلَّ هو طي الطريق للوصول إلى لقاء جمال ذي الجمال المطلق والسير هو مشاهدة آثار وخصائص المنازل التي يطويها السالك منزلا بعد منزل والمترتبة بعضها على بعض أو كما يقول بعض العرفاء أن السير عبارة عن تلبس الأحوال المتعاقبة، ولما كان مبدأ السير والسلوك إلى الله هو النقص والاحتياج الفطري كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾[٢] ومنتهاه جناب الحق المنزه عن كل نقص: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾[٣] فعلى السالك إلى الله أن يطوي المنازل منزلا بعد منزل لكي يرقى من حد الضعف والنقص إلى القوة والكمال أكثر فأكثر إلى أن يصل إلى أوج الكمال وغايته وهو مقام الإنسان الكامل.

ويرى العرفاء أن طريق ارتباط الممكنات بالله سبحانه وتعالى طريق ترتيبي أي حسب قانون العلية والمعلولية، فكل موجود ممكن يرتبط بالحق تبارك وتعالى بواسطة سلسلة من المظاهر والعلل وعبر هذه السلسلة تجرى الفيوضات الإلهية والتجليات الرحمانية لتصل إلى الموجود حسب قابليته واستعداده، وقد ورد عن الإمام الصادقعليه السلام أنه قال: «أَبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُجْرِي الأَشْيَاءَ إِلا بِالأَسْبَابِ»[٤]!! ولذا فللتوجه إلى الحق سبحانه وتعالى لابد من طي حلقات هذه السلسلة والصعود على سلم المقامات واحد تلو الآخر حتى يصل إلى غاية الغايات ومسبب الأسباب[٥].

والحديث في العلة والمعلول يجرنا إلى الحديث في مسألة الجبر والتفويض والاختيار وجهة انتساب أفعال البشر وهي من جملة المسائل التي شغلت أذهان البشرية حتى يومنا هذا، وقد ذهبت كل طائفة من الحكماء والمتفكرين والمتكلمين إلى تفسير تلك المعضلة حسب مبانيها ومبادئها الفكرية، وللعرفاء آراء خاصة بهم في هذا الشأن سنبينها بحول الله وقوته في هذا المنزل.

يتفق عرفاء مذهب الإمامية وحكماؤه على نفي الجبر والتفويض، ويستندون في أقوالهم إلى الأحاديث الشريفة الواردة عن أهل البيت عليهم السلام، فقد روي عن صادق آل محمَّد مولانا جعفر بن محمَّد عليه السلام أنه قال: «لا جَبْرَ ولا تَفْويضَ ولكنْ أمْرٌ بَيْنَ أمْرَيْنِ»، وهذا لا يعني - كما يراه العرفاء - أن بعض أفعال العباد جبري وبعضها الآخر تفويضي ولا يعني أيضا أن كل عمل تركيب من الجبر والاستقلال ولا معناه خلوه عنهما ولا أنه اضطرار من جهة واختيار من جهة أخرى، ثم قيل: ما أمر بين أمرين؟! فقال عليه السلام: «مَثَلُ ذلك رجلٌ رأيتَهُ على معصيةٍ فنهَيتَهُ فَلَمْ يَنْتَهِ فَتَرَكْتَهُ فَفَعَلَ تِلْكَ المَعْصِيَةِ فَلَيْسَ حيثُ لَمْ يَقْبَلْ مِنْكَ فَتَرَكْتَه كنتَ أنتَ الَّذي أمَرْتَهُ بالمَعْصِيةِ»[٦]!!

بيد أن الحكماء يطرحون معنى «أمرٌ بين أمرين» على نحو العِلَّة الطوليَّة، أي أن كل أمر وفعل يكون العبد فيه عِلَّة قريبة ويكون الحق تبارك وتعالى فيه عِلَّة بعيدة، في حين أن العرفاء يطرحون ذلك على نحو التوحيد الأفعالي، ويستشكلون على الحكماء في تفسيرهم هذا ويقولون: ليس الأمر كذلك بأن تكون فاعلية الحق تبارك وتعالى تعلو فاعلية العبد لأن في ذلك إشارة إلى التفويض الخاص المستلزم لاستقلال الفعل ثم أن مؤدَّى هذا التفسير هو تحديد فعل الله تبارك وتعالى ولكن كما أن الحق تبارك وتعالى غير محدود فإن فعله أيضا غير محدود، فهو الداني في علوه والعالي في دنوه وقد قال باب مدينة علم التوحيد أمير المؤمنين عليه السلام: «هو في الأشْياءِ على غيرِ مُمازَجَةٍ خارِجٌ منها على غيرِ مُبايَنَةٍ»[٧]!!

وقد طُرحت مسألة التوحيد الأفعالي في القرآن الكريم كرارا ومرارا كما في قوله تعالى: ﴿واللهُ خَلَقَكُمْ وَما تَعْمَلونَ﴾[٨] وقوله تعالى: ﴿.... أنَّ الْقُوَّةَ لله جَميعاً....﴾[٩] وقوله تعالى: ﴿....قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ الله....﴾[١٠] وقوله تعالى: ﴿وَما تَشاءونَ إلاَّ أن يَشاءَ اللهُ رَبُّ الْعالَمينَ﴾[١١] وغيرها من الآيات المباركات.

وعلى هذا لابد من الاستناد إلى التوحيد الأفعالي وهو التوحيد في أفعال الله وأنه لا مؤثر في الوجود إلا هو وأنه مبدأ كل وجود وفعل، فكما أن وجود العبد مظهر من مظاهر الله سبحانه وشأن من شئونه (وهذا نفي التفويض) كذلك فعله مظهر من مظاهر فعل الله سبحانه وبالتالي إرادته واختياره

مظهر من مظاهر إرادة الله عزَّ وجلَّ واختياره (وهذا نفي الجبر)، ويمكن القول أن كل تأثير يشاهد من سبب من الأسباب إنما هو اسم من أسماء الله الحسنى والسبب مظهره.

ثم أن العرفاء قائلون بهذه الحقيقة وهي أن «لا مؤثِّرَ في الوجودِ إلا اللهُ»، وإسناد الأفعال إلى الإنسان إسناد مجازي لا حقيقي لأن كل الأشياء كمرائي لذات الحق البسيطة التي هي الكل بلا تكثُّر، وقوله تعالى ﴿.... ومَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولَكِنَّ اللهَ رَمَى....﴾[١٢] دليل على هذا القول، فقد نسب الحق تعالى الرمي إلى رسوله ﷺ ونفاه عنه ونسبه إلى نفسه تعالى، وكذلك في قوله تعالى: ﴿قاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأيْدِيكُمْ....﴾[١٣] فنسب القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه بأيديهم والتعذيبَ هناك عين القتل، فما من سبب من الأسباب ولا عِلَّة من العلل إلا وتأثيره بالله ونحو تصرفه بإذن الله فلا سلطان في الوجود إلا سلطانه ولا قيومية إلا قيوميته المطلقة.

يقول الملا هادي السبزواري (قده) في منظومته:

النفسُ في وحدتها كلُّ القُوَى
وَفعلُها في فعلِه قد انْطَوَى

ويقول الحكيم صدر المتألهين الشيرازي(قده) أن الشرور هي عدم الذوات أو عدم كمال لها ونقصان وقصور وليست من مظاهر تجليات الحق جل وعلا لأن الوجودات بما هي وجودات خير محض وباقية على خيريتها مادامت غير نازلة إلى عالم التصادم والتضاد ولم تنته سلسلتها إلى حيز المكان والزمان وأما إذا انجرت سلسلة الوجود إلى عالم الأجسام والظلمات ومضائق الأكوان والازدحامات فبعض الوجودات مع أنه خير محض بالذات وبالعرض بحسب ذاته وبالقياس إلى ما لا يستضر به يوصف بالشرية لأنه يؤدي إلى عدم ذات أو عدم كمال لذات، ولذا فمنبع الشرور هي نقصانات الوجود عن الكمال الأتم والجمال الأعظم.

ويمكن القول أن لكل شيء ممكن وجهين: وجه جهة وجود وظهور (جهة واجب الوجود وهو الحق تعالى) ووجه جهة الذات والماهية (جهة ممكن الوجود وهو الخلق)، وللحق تعالى إفاضة الوجود على الماهيات، ولما كانت الإفاضة كلها خير محض فالوجود بما هو وجود خير محض، وأن لكل شيء نسبتين نسبة وجوبية إلى الفاعل والمصدر ونسبة إمكانية إلى القابل والمظهر وأن جهة الخيرية في الأشياء هي الوجود وجهة الشرية هي الماهيات، وعلى قول صدر المتألهين رضي الله عنه: فالإيجاد والإفاضة والفعلية والتكميل والتحصل والبقاء واللطف والرحمة من جنب الله وقدرته، والقابلية والقصور والخلل والفتور والفناء والدثور والتجدد والزوال والقهر والغضب من قبل الخلق واستعداداتهم[١٤].

وخلاصة القول أن النقائص والذمائم ترجع إلى خصوصيات القوابل لا إلى الفيض الصادر من الحق جل وعلا، فوجود كل شرف وكمال وخير وسلام ونور يضاف إلى الحق تعالى ولزوم كل شر وآفة وقصور وظلمة يضاف إلى الخلق، وهنا يرتفع توهُّم التناقض بين آيتين كريمتين من كتاب الله عزَّ وجلَّ إحداهما قوله تعالى ﴿....وإن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِندِ الله وإن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِندِ الله....﴾[١٥] والأخرى قوله تعالى: ﴿ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ....﴾[١٦]، ومن الملاحظ أن هناك فرق في التعبيرين «من الله» و «من عند الله»، فالحسنات والسيئات كلها من عند الله لأنها مظاهر للحق تعالى وتنزلات من خزائنه إلى هذا العالم، وأما ما يناسب جناب الحق تعالى فهو الجانب الحسن من الشيء وأما الجانب السيء منه - وهو أمر نسبي وعدمي - فيتعلق بالإنسان وكل ما هو مادي.

وعلى هذا وإن كان أرباب التوحيد الأفعالي يرون أن «لا مؤثِّرَ ولا فاعلَ إلاَّ هو» إلا أنهم يرجعون كل فعل إلى محله الخاص به وينسبونه إلى محل صدوره ومن هنا كانت مسألة الثواب والعقاب.

وقد يسأل سائل: إذا كان الحق تبارك وتعالى مرجع كل العلل والقوى فكيف نفسر ارتكاب المعاصي؟! وهل قوة ارتكاب المعصية من عند الله تعالى أيضا أم لا؟!

يقول العرفاء أن كل فاعل في عالم الوجود يكتسب القوة من الله سبحانه وتعالى سواء في الاجتهاد في الطاعات أو ارتكاب المعاصي، وكل الأفعال والتأثيرات منه في مظاهر الخلق وظل مشيئته وإرادته، والحق فاعل بفعل العبد وقوة العبد ظهور لقوة الحق.

وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ زَعِمَ أنَّ المَعاصي بغَيْرِ قُوَّةِ الله فَقَدْ كَذَبَ عَلَى الله ومَنْ كَذَبَ عَلَى الله أدْخَلَهُ اللهُ النارَ»[١٧]!!

لتفسير هذا الحديث الشريف ولفهم ما مر من آراء العرفاء نورد الحقائق في قالب المثال:

حينما يريد عبد أن يقوم بعبادة (كإقامة صلاة مثلا) فإن فعله هذا ينقسم إلى أربع مراحل:

- المرحلة الأولى: إرادة إقامة الصلاة.
- المرحلة الثانية: مراعاة رضا الله سبحانه وتعالى.
- المرحلة الثالثة: الطاعة والامتثال لأمر الله سبحانه وتعالى.

(ويكون العبد في المراحل الثلاث الأولى هو الفاعل)

- المرحلة الرابعة: استمداد القوة والطاقة من المُعِين المحض وهو الحق سبحانه (أي أن هذه المرحلة مرتبطة بالحق سبحانه)

وعلى هذا فمراحل الإرادة ومراعاة رضا الله وطاعته ترتبط بالإنسان أما المرحلة الرابعة فترتبط بالله سبحانه وتعالى، وبقوة الله وعونه يقوم الإنسان بالعبادة.

وكذلك حينما يريد عبد أن يرتكب معصية (كالقتل مثلا) فإن فعله هذا ينقسم إلى أربع مراحل:

- المرحلة الأولى: إرادة القتل.
- المرحلة الثانية: مراعاة رضا الخلق أو رضا النفس.
- المرحلة الثالثة: عدم الانتهاء بنهي الله سبحانه وتعالى.

(ويكون العبد في المراحل الثلاث الأولى هو الفاعل)

- المرحلة الرابعة: استمداد القوة والطاقة من الله عزَّ وجلَّ (أي أن هذه المرحلة مرتبطة بالحق سبحانه).

وعلى هذا فمراحل الإرادة ومراعاة رضا الخلق أو رضا النفس وارتكاب المعصية ترتبط بالإنسان أما المرحلة الرابعة فترتبط بالله سبحانه وتعالى وبقوة الله يرتكب الإنسان المعصية.

عن يزيد بن عمير بن معاوية الشامي قال دخلت على علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو فقلت له: يا ابن رسول الله رُوِي لنا عن الصادق جعفر بن محمَّد عليه السلام أنه قال لا جبر ولا تفويض بل أمر بين أمرين فما معناه؟! فقال عليه السلام: مَنْ زَعِمَ أنَّ اللهَ يَفْعَلُ أفْعالَنا ثُمَّ يُعَذِّبُنا عليها فقَدْ قالَ بالجَبْرِ ومَنْ زَعِمَ أنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ فَوَّضَ أمْرَ الخَلْقِ والرِّزْقِ إلى الحُجَّةِ عليهم السلام فقد قال بالتَّفْويضِ فالقائلُ بالجَبْرِ كافرٌ والقائلُ بالتفْويضِ مُشْرِكٌ، فقلت له: يا ابن رسول الله فما أمر بين أمرين؟! فقالَ عليه السلام: وُجودُ السَّبيلِ إلى إتْيانِ ما أُمِروا به وتَرْكِ ما نُهُوا عنه، فقلت له: فهل لله عزَّ وجلَّ مشية وإرادة في ذلك؟! فقال عليه السلام: أمَّا الطاعاتُ فإرادَةُ الله ومَشِيَّتُه فيها الأمْرُ بها والرِّضا لها والمُعاوَنَةُ عليها وإرادَتُهُ ومَشِيَّتُه في المَعاصي النَّهْيُ عنها والسَّخَطُ لها والخِذْلانُ عليها، قلت: فلله عزَّ وجلَّ فيها القضاء؟! قال عليه السلام: نعم ما مِنْ فِعْلٍ يَفْعَلُهُ العِبادُ مِنْ خَيْرٍ وشَرٍّ إلاَّ ولله فيه قَضاءٌ، قلت: فما معنى هذا القضاء؟! قال عليه السلام: الحُكْمُ عليهم بما يَسْتَحِقُّونَه على أفعالِهِم مِنَ الثوابِ والعِقابِ في الدُّنْيا والآخِرَةِ!! [١٨]

وقد يرد في الذهن سؤال وهو: لما كانت كل العلل تنتهي إلى عِلَّة العلل وكل ما في عالم الوجود يتحقق بقوة الله والإنسان بقوة الله يرتكب المعصية ولولا تلك القوة لما ارتكب الإنسان المعصية، فلم لا يسلب الله قوته من العبد العاصي لكي لا يعصيه؟!

يجيب على سؤالنا هذا مولانا الإمام أبوعبدالله الصادق عليه السلام، فعن هشام بن الحكم قال: سأل زنديق أبا عبدالله عليه السلام فقال: أخبرني عن الله عزَّ وجلَّ كيف لم يخلق الخلق كلهم مطيعين موحدين وكان على ذلك قادرا؟! قال عليه السلام: لو خَلَقَهُمْ مُطيعينَ لَمْ يَكُنْ لَهُم ثَوابٌ لأنَّ الطاعَةَ إذا ما كانَتْ فِعْلُهُمْ لَمْ تَكُنْ جَنَّةٌ ولا نارٌ ولكِنْ خَلَقَ خَلْقَهُ فأمَرَهُمْ بطاعَتِهِ ونَهاهُم عَنْ مَعْصِيَتِهِ واحْتَجَّ عليهم برُسُلِهِ وقَطَعَ عُذْرَهُم بكُتُبِهِ لِيَكونوا هُم الَّذينَ يُطيعونَ ويَعْصونَ ويَسْتَوْجِبونَ بطاعَتِهِم لَه الثَّوابَ وبمَعْصِيَتِهِم إيَّاهُ العِقابَ فَالعَمَلُ الصالِحُ العَبْدُ يَفْعَلُهُ واللهُ بِهِ أمَرَهُ والعَمَلُ الشَّرُّ العَبْدُ يَفْعَلُه واللهُ عنه نَهاه، فقال: أليس فعله بالآلة التي ركَّبها فيه؟! قال عليه السلام: نعم ولكِن بالآلَةِ الَّتي عَمِلَ بها الخَيْرَ قَدِرَ بها على الشَّرِّ الَّذي نَهاهُ عنه، فقال: فإلى العبد من الأمر شيء؟! قال عليه السلام: ما نَهاهُ اللهُ عَنْ شَيءٍ إلاَّ وقَدْ عَلِمَ أنَّه يُطيقُ تَرْكَه ولا أمَرَهُ بشَيءٍ إلاَّ ويَعْلَمُ أنَّه يَسْتَطيعُ فِعْلَه لأنَّه ليسَ مِنْ صِفَتِه الجَوْرُ والعَبَثُ والظُّلْمُ وتَكْليفُ العِبادِ ما لا يُطيقونَ (١٩).

بعبارة أخرى أن الله سبحانه وتعالى خلق خلقاً هم الملائكة وسخرهم لطاعته وعبادته وتسبيحه وتحميده وخلق الإنسان وأعطاه القوة والإرادة والاختيار وفي النهاية ترجع القوة والقدرة لله سبحانه وتعالى، فإذا سلب الله الاختيار من الإنسان فما قيمة الثواب والعقاب والجنة والنار!!

يقول سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه أن الإرادة منا والقدرة من الله، ونحن حينما نقول في صلاتنا «بحول الله وقوته أقوم وأقعد» كان «بحول الله وقوته» من الله و «أقوم وأقعد» منا وبإرادتنا ونحن المختارون ونحن الفاعلون، فالقوة منحصرة بذات الله سبحانه وتعالى كما ورد في الآية المباركة: ﴿.... أنَّ الْقُوَّةَ لله جَميعاً....﴾(٢٠)!!

وفي معنى قوله تعالى: ﴿وأَنَّهُ هُوَ أضْحَكَ وأبْكَى﴾(٢١) يقول السيد العلاَّمة رضي الله عنه: «أنه تعالى هو أوجد الضحك في الضاحك وأوجد البكاء في الباكي لا غيره تعالى ولا منافاة بين انتهاء الضحك والبكاء في وجودهما إلى الله سبحانه وبين انتسابهما إلى الإنسان وتلبيسه بهما لأن نسبة الفعل إلى الإنسان بقيامه به ونسبة الفعل إليه تعالى بالإيجاد وكم بينهما من فرق ولا أن تعلق الإرادة الإلهية يضحك الإنسان مثلا يوجب بطلان إرادة الإنسان للضحك وسقوطها عن التأثير لأن الإرادة الإلهية لم تتعلق بمطلق الضحك كيفما كان وإنما تعلقت بالضحك الإرادي الاختياري من حيث أنه صادر عن إرادة الإنسان واختياره فإرادة الإنسان سبب لضحكه في طول إرادة الله

سبحانه لا في عرضها حتى تتزاحما ولا تجتمعا معا».

وفي قول الله جل وعلا: ﴿وَمَا تَشَاءونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ....﴾[٢٢] إثبات لمشيئة العبد وهذا نفي الجبر وجعلها بعد مشيئة الله وهذا نفي التفويض، ثم يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿ذلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾[٢٣]، فبيد العباد طاعة الله أو معصيته إلا أنه لا حول عن المعصية ولا قوة على الطاعة إلا بالله ولا مشية إلا بعد مشيته، وذلك قول سيد البلغاء أمير المؤمنين عليه السلام لعباية بن ربعي الأسدي: «أما سَمِعْتَ النَّاسَ يَسْأَلُونَ الحَوْلَ والقُوَّةَ حيثُ يَقولونَ لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إلاَّ بالله!» فقال الرجل: وما تأويلها يا أمير المؤمنين؟! قال عليه السلام: «لا حَوْلَ لنا عَنْ مَعاصِي الله إلاَّ بِعِصْمَةِ الله ولا قُوَّةَ لنا عَلَى طاعَةِ الله إلاَّ بِعَوْنِ الله»!![٢٤]

وعن مولانا الإمام الرضا عليه السلام أنه قال قال الله تبارك وتعالى: «يا ابْنَ آدَمَ بِمَشِيَّتِي كُنْتَ أَنْتَ الَّذِي تَشاءُ لِنَفْسِكَ ما تَشاءُ وبِقُوَّتِي أَدَّيْتَ فَرائِضِي وبِنِعْمَتِي قَوِيتَ عَلَى مَعْصِيَتِي جَعَلْتُكَ سَمِيعاً بَصِيراً قَوِيًّا ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله وما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وأَنا أَوْلَى بِحَسَناتِكَ مِنْكَ وأَنْتَ أَوْلَى بِسَيِّئاتِكَ مِنِّي وذلِكَ أَنِّي لا أُسْأَلُ عَمَّا أَفْعَلُ وهُمْ يُسْأَلُونَ»!![٢٥]

وعنه عليه السلام أيضا أنه حين ذكر عنده الجبر والتفويض قال: «ألا أُعْطِيكُمْ في هذا أَصْلاً لا تَخْتَلِفُونَ فيه ولا يُخاصِمُكُمْ عليه أَحَدٌ إلاَّ كَسَرْتُمُوهُ؟» فقيل له: إن رأيت ذلك فقال عليه السلام: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لَمْ يُطَعْ بِإِكْراهٍ ولَمْ يُعْصَ بِغَلَبَةٍ ولَمْ يُهْمِلِ العِبادَ في مُلْكِهِ هو المالِكُ لِما مَلَّكَهُمْ والقادِرُ عَلَى ما أَقْدَرَهُمْ عليه فإِنْ ائْتَمَرَ العِبادُ بِطاعَتِهِ لَمْ يَكُنِ اللهُ عنها صادًّا ولا منها مانِعاً وإِنْ ائْتَمَروا بمعصِيَتِهِ فَشاءَ أَنْ يَحُولَ بينهم وبينَ ذلك فَعَلَ وإِنْ لَمْ يَحُلْ وفَعَلُوه فليسَ هو الَّذي أَدْخَلَهُمْ فيه»[٢٦].

ويقول سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في هذا الشأن أن حيثية المعصية في الأشياء عدمية والدليل على ذلك أن كل معصية من المعاصي يماثلها من نوع فعلها طاعة لا يفرق بينهما إلا ما في أحدهما من موافقة الأمر الشرعي أو العقلي وفي الآخر من مخالفته وتركه كالزنا والنكاح وأكل مال الغير ظلما أو برضا منه والقتل ظلما أو قصاصا فعنوان المخالفة والترك هو جهة المعصية في الفعل وهو معنى عدمي غير موجود.

يقول العرفاء أن السالك إلى الله بعد معرفة هذه المقدمات العرفانية ومعرفة حقيقة «لا جَبْرَ

ولا تــفْـويـضَ ولكــنْ أمْــرٌ بـيـنَ أمْـريـن» وأن الإنسـان هو الفاعل والمختار ونهاية العلل هي ذات الله سـبحانـه وتعالى يعلم أن الشـيطان عدو مبين ولا ينسـب إليه من القـوة شـيئا بل أن مكـر الله خفـي وكيده متين، وعلى هذا يقال - وقد يكون هذا تعبير سـيدنا الأسـتاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه - لولا نور العرفان وطي منازل السير والسلوك إلى الله تعالى لما نزلت هذه الآية المباركة على قلب رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿....إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعيفاً﴾[٢٧]، فالشيطان عدو حاضر وقوي وعازم على إغواء بني آدم أجمعين: ﴿قالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أجْمَعينَ﴾[٢٨]، ولكن بنور العرفان والسلوك إلى الله تعالى يكون كيد الشيطان ضعيفا وهو المعترف على نفسه بذلك: ﴿إلاَّ عِبادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[٢٩].

أيها السالك إلى الله!! الإنسان بعد معرفة المراتب ومعرفة فاعلية الإنسان واختياره وإرادته وأن نهاية العلل هي ذات الله تبارك وتعالى يصل إلى مقامٍ تتواضع له السماوات والأرضين والمُلك والملكوت وكل شيء في عالم الوجود سوى الله يتواضع له، ومن هنا كان نزول هذه الآية الكريمة: «إنَّ كَيْدَ الشَّيْطانِ كَانَ ضَعيفاً» فالشيطان غوي وقوي ناصب حبائله لبني آدم إلا من أخلص لله تعالى، وعند أبواب المخلَصين يضعف الشيطان ويتلاشى كل ما أتي به من مكائد وحيل، فهل يقدر الشيطان أن يوسوس في قلب العارف ليأكل لقمة حرام أو شبهة مثلا!! العارف لا يبالي بالحلال والمباح فضلا عن الحرام والشبهة!!

أيها السالكين إلى الله!! احذروا مكائد الشيطان ومحاولاته في جعل الموانع في طريق سيركم وسلوككم إلى الله والدخول في العرفانيات، فإذا كانت مجالسكم مجالس لهو وعبث (والعياذ بالله) يسود الظلام في قلوبكم فيكون مرتعا للشيطان وبالتالي يسهل عليه الهجوم والغلبة، أما إذا كانت مجالسكم مجالس ذكر وعلم وعرفان هنالك تكون القلوب مستنيرة بأنوار الله سبحانه وتعالى فينكشف الشيطان ولا يكون له أدنى مجال للنفوذ إلى تلك القلوب المستنيرة!!

ليس دور العرفان والمعرفة إلا إخراج الإنسان من الظلمات إلى النور، وكلما اقترب السالك إلى الله من النور أكثر ابتعد عن الظلمات أكثر فيشعر الشيطان بالهزيمة والخيبة، ولهذا كانت مقدمات العرفان أصعب من الهدف المتوسط في العرفان والهدف المتوسط أصعب من الهدف العالي في العرفان.

اللَّهم يا سبب كل ذي سبب ويا مسبب الأسباب من غير سبب سبب لي سببا لن أستطيع له طلبا صل على محمَّد وآل محمَّد وأغنني بحلالك عن حرامك وبطاعتك عن معصيتك وبفضلك عمن سواك يا حي يا قيوم!!

الهوامش

(١) تعبير «عِلَّة العلل» لذات الله سبحانه وتعالى تعبير غير مناسب ولكن لضيق الخناق نضطر إلى البيان بهذا التعبير، وأما تفسير ذلك فهو أن كل موجود (معلول) في عالم الوجود حادث وكل حادث يحتاج إلى موجد (عِلَّة) ولابد أن تنتهي سلسلة الاحتياج (العلل) إلى من لا يحتاج إلى موجد (عِلَّة) وهو ذات الله سبحانه وتعالى والذاتي لا يُعَلَّل، هذا ويقول أحد كبار مشايخ العرفان: كيف جعلوا موجد العالم عِلَّة العلل والعِلَّة تناقض القيومية فلنقل إنما وقع الوجود بقيومية العِلَّة فإنه لكل أمر قيومية.

(٢) سورة النحل: آية ٧٨

(٣) سورة النجم: آية ٤٢

(٤) أصول الكافي: ج ١ ص ١٨٣، وتمام الرواية: «أبى اللهُ إلاَّ أنْ يُجْرِي الأشياءَ إلا بالأسْبابِ فجَعَلَ لِكُلِّ شيءٍ سَبَباً وجعلَ لكلِّ سببٍ شرحاً وجعلَ لكلِّ شرحٍ عِلْماً وجعلَ لكلِّ علمٍ باباً ناطِقاً عرفَه مَنْ عرفَه وجهِلَه مَنْ جَهِلَه ذاكَ رسولُ اللهِ ﷺ ونحن»!!

(٥) وهناك طريق آخر يعرف بالوجه الخاص أو طريق السِّر، وهذا الطريق يعتقد به أهل العرفان دون الفلاسفة الذين يعتقدون بقانون العلية والمعلولية فقط وهو طريق الارتباط بالحق تبارك وتعالى والاستفاضة من جود المبدأ الفياض ومواهبه بلا واسطة أي موجود آخر وتتجلى عبر هذا الطريق الحقائق الوجودية، والوجه الخاص هو السبيل الوحيد لارتباط عالم الأمر بالحق تبارك وتعالى ﴿يُلْقِي الروحَ مِنْ أمْرِهِ عَلَى مَن يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ﴾ – سورة غافر آية ١٥، في حين أن الطريق الترتيبي خاص بعالم الخلق، والعلوم التي تنكشف للعبد تكون خاصة به ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً﴾ – سورة الكهف آية ٦٥، ﴿وكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾ – سورة الكهف آية ٦٨، والتجليات الحاصلة له من هذا الوجه ذاتية إلهية قد يعلم بها فيكون عالما بالله أو لا يعلم بها فيكون من أهل عناية الله، ويستند العرفاء في قولهم بالوجه الخاص إلى الآيات القرآنية: ﴿ونَحْنُ أقْرَبُ إلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ﴾ – سورة ق آية ١٦، ﴿ما مِن دابَّةٍ إلاَّ هُوَ آخِذٌ بِناصِيَتِها إنَّ رَبِّي عَلَى صِراطٍ مُسْتَقيم﴾ – سورة هود آية ٥٦، وكذلك قول سيد البشر ﷺ في معراجه: «لِي مَعَ اللهِ وقتٌ لا يَسَعُني فيه مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ» وقول أمير المؤمنين ﷺ: «ما رأيتُ شيئاً إلاَّ رَأيتُ اللهَ قَبْلَهُ وبَعْدَه ومَعَه»، ويمكن القول أن التسلسل الترتيبي ينشأ من ظهور الأسماء الإلهية الجزئية أو الكلية والوجه الخاص ينشأ من ظهور الاسم الأعظم «الله»(أو الاسم المستأثر كما يعبر عنه بعض المتأخرين) والسالك على الطريق الأول يصل إلى علة العلل والمبدأ الأول بقطع الحجب الظلمانية والنورانية بالرياضات والمجاهدات ويحصل على الفيوضات عن طريق النفوس والعقول المجردة، والسالك على الطريق الثاني – وهو الطريق الأقرب – فيقطع الحجب بالجذبات الإلهية ولا يعرف فيه السالك المنازل والمقامات، وعلى السالك أن يسلك الطريق المتعارف (الأول) وهو الطريق المستقيم الذي ندب إليه الأنبياء ﷺ إلى أن تحصل له الجذبة الخاصة.

(٦) أصول الكافي: ج ١ ص ١٦٠، التوحيد: ص ٣٣٨

(٧) توحيد الشيخ الصدوق: ص ٧٣ وص ٧٩، وفي موضع آخر يقول عليه السلام: «ليس في الأشياءِ بوالِجٍ ولا عنها بخارِجٍ» - شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٣ ص ٨٢

(٨) سورة الصافات: آية ٩٦

(٩) سورة البقرة: آية ١٦٥

(١٠) سورة النساء: آية ٧٨

(١١) سورة التكوير: آية ٢٩

(١٢) سورة الأنفال: آية ١٧

(١٣) سورة التوبة: آية ١٤

(١٤) الأسفار الأربعة: ج ٢ص ٣٥٣ - ص ٣٥٤

(١٥) سورة النساء: آية ٧٨

(١٦) سورة النساء: آية ٧٩

(١٧) التوحيد: ص ٣٥٨، ومنه بحار الأنوار: ج ٥ ص ٥١

(١٨) بحار الأنوار: ج ٥ ص ١١ نقلا عن عيون أخبار الرضا عليه السلام

(١٩) بحار الأنوار: ج ٥ ص ١٨ نقلا عن احتجاج الطبرسي

(٢٠) سورة البقرة: آية ١٦٥

(٢١) سورة النجم: آية ٤٣

(٢٢) سورة الإنسان: آية ٣٠

(٢٣) سورة لحج: آية ١٠

(٢٤) بحار الأنوار: ج ٥ ص ٢٤ نقلا عن احتجاج الشيخ الطبرسي، وروى ابن بابويه في معاني الأخبار ص ٢١ ح ١ بإسناده إلى جابر بن يزيد الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «مَعْناهُ لا حَوْلَ لَنا عَنْ مَعْصِيَةِ اللهِ إلاَّ بعَوْنِ الله ولا قُوَّةَ لَنا عَلَى طاعَةِ اللهِ إلاَّ بتَوْفيقِ الله».

(٢٥) التوحيد: ص ٣٣٨

(٢٦) بحار الأنوار: ج ٥ ص ١٦ نقلا عن توحيد الشيخ الصدوق

(٢٧) سورة النساء: آية ٧٦

(٢٨) سورة ص: آية ٨٢

(٢٩) سورة ص: آية ٨٣

المنزل (٩)

آثارُ العُبودِيَّةِ عِنْدَ المُحِب

يقـول العرفـاء أن العبودية طريق للوصول إلى عِلَّة العلل والمبـدأ اللامتناهي، وبحث العبودية من دقائـق المباحـث العرفانية ولطائفها، ومطلبهـا في غاية الدقة والغموض، وسـوف تدهش وكل مؤمن سـالك عنـد الدخول في هـذا المقام الرفيع، وأرجو من الله تعالى التوفيـق لأداء جزء من البحث في هذا المسـلك الدقيق والعميق وأدعو الله تعالى أن يجد السـالكون المستعدون ذوو القلوب اللطيفة والأنظار الدقيقة إلى ذلك سبيلا بحول الله وقوته وهو ولي التوفيق.

لمشتقات كلمة «عبد» معاني وطرق خاصة في العرفان، ومع السلوك في هذا الطريق وبمعرفة أفعال الله سبحانه وتعالى يصل السالك إلى معرفة صفات الله التي توصله بدورها إلى معرفة ذاته عزَّ وجلَّ [١] ومقـام الشـهود القلبي للمجذوب المطلـق، وبعد طيّ هذه المراحل يدخل العارف السـالك في العبادة الشهودية وهو مقام عظيم.

وحروف العبد ثلاثة: «ع» - «ب» - «د»، فالعين عِلْمه بالله والباء بَـدْوُنـه عمن سواه والدال دنـوُّه من الله تعالى بلا كيف ولا حجاب!!

والعبوديـة أرفع مقامـا وأشرف مرتبة من العبادة، ولذا قال العرفـاء أن العبادة للعوام من المؤمنين والعبودية للخواص من السالكين.

وقـال بعضهـم أن العبادة لمـن له علم اليقين والعبوديـة لمن له عين اليقين، وأمـا من وصل إلى حق اليقين فله مقام خاص الخاص لا يسعنا الخوض فيه في هذا المنزل [٢].

وقيـل كذلـك أن العبـادة لأصحـاب المجاهـدات أو لمـن لم يدَّخـر عنه نفسـه والعبوديـة لأرباب المكابـدات أو لمن لم يضْنِ عليه بقلبه وأما المقام الثالث (لخاص الخاص) لأصحاب المشـاهدات أو لمن

لم يبخل عليه بروحه.

يقول العارف الكبير بابا طاهر العريان أن: «حقيقة العبودية الخروج من الاختيار» أي أن لازم عبودية العبد أن يكون إرادته وعمله مملوكين لمولاه وأن العبد الحقيقي هو القائم باختيار سيده لا باختيار نفسه وإرادته مستهلَكة في إرادة مولاه ومشيَّته في مشيته حتى ينتفي منه كل فعل وإرادة واختيار.

إن غاية الوجود والإيجاد والخلقة عقلا ونقلا هي معرفة الله، والعبادة فرع المعرفة، فإذا كانت العبادة مشفوعة بالفكر والمعرفة وخالصة لله تعالى بعيدة عن رؤية ما سواه انساقت إلى العبودية، فلا عبودية لعبد مع الجهل بالرب، لذا قال مولانا الحسين بن علي عليه السلام: «إنَّ اللهَ والله ما خَلَقَ العِبادَ إلاَّ لِيَعْرِفوه فإذا عَرَفوه عَبَدوه فإذا عَبَدوه اسْتَغْنَوا بعِبادَتِهِ عَنْ عِبادَةِ مَنْ سِواهُ»[٣].

والعابد إذا كان غرضه من العبادة الإقامة في دار النعيم والخلاص من نار الجحيم لم تكن عبادته إلا حبا في نفسه وذاته واعتقادا منه بأن نعيم الآخرة محسوسة كنعيم الدنيا إلا أنه أدوم وأوسع وأبقى، أما إذا ارتقت النفوس وكانت خاضعة لله تعالى ومتوجهة في عبادتها إلى المعبود الحقيقي خالصة له دون سواه ومتشوقة إلى مجاورته ولقائه فقد نالت الجوهرة التي من أجلها خلق الله تعالى عباده وهي مقام العبودية المحضة لله تعالى والتي أشار إليها مولانا صادق آل محمَّد عليه السلام في كلمته العرفانية والملكوتية فقال: «العُبودِيَّةُ جَوْهَرَةٌ كُنْهُها الرُّبوبِيَّةُ وما فُقِدَ في الربوبِيَّةِ وُجِدَ في العُبودِيَّةِ وما خَفِيَ عَنِ الربوبِيَّةِ أُصيبَ في العُبودِيَّةِ»[٤].

ولكن أين التراب ورب الأرباب!! كيف تكون عبودية العبد الذليل المسكين المستكين جوهرة!! وكيف تستتر حسن الربوبية وبهاؤها في كنه جوهرة العبودية وذاتها!!

يقول العرفاء أن العبد لا تعقل له عبودية ما لم يستند إلى رب يعبده ولا يعقل للرب ربوبية ما لم يستند إليه عبد مربوب، ولهذا من عرف نفسه بالعبودية والفقر والخضوع لمولاه عز وعلا وأنه لايملك شيئا عرف ربه بالربوبية، والعبودية إذا بلغت كمالها تظهر الأسرار الربوبية في القلب المتحقق بالعبودية.

في هذا المنزل العرفاني الدقيق نكتفي بأثر من آثار مقام العبودية عند العرفاء وبالذات عند العارف الكامل الواصل سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه:

الإنسان عبارة عن مجموعة من الماديات والمجردات، فأما الماديات الظاهرية كأعضاء بدنه فهو حاكم ومسيطر عليها وبإرادته واختياره يحرك يديه ورجليه ولسانه وعينيه وشفتيه، ولكن هل

الحاكمية والسيطرة تنطبق على نفسه المجردة أم لا؟! وهل تنطبق على ما هو أرق من النفس وهي خواطر النفس أم لا[٥]؟!

يقول الأستاذ العلامةرضي الله عنه: أول أثر من آثار مقام العبودية هو تسلُّط الإنسان على نفسه وخواطر نفسه، فلولا التسلط على النفس كيف نحكم على مؤمن أنه يعبد الله حق عبادته؟! ولولا الحاكمية على النفس كيف تكون الصلاة صلاة حقيقية والصوم صوما حقيقيا والدعاء دعاء حقيقيا؟!

بإمكان الإنسان أن يوقف حركة أعضائه في نقطة معينة وعلى هيئة خاصة، ولكن الأفكار التي ترد على ذهنه مَثَلها كمَثَل الأمواج الهائجة التي لا تهدأ ولا تسكن وتكون في حركة مستمرة دائمة أو كمثل طائر يطير بجناحيه ويحلق في الهواء وينتقل يمينا وشمالا، فهل يمكنه إيقاف الفكر في ذهنه وعقله في نقطة معينة؟! أو بمعنى آخر هل يمكنه السيطرة على حركة الفكر في ذهنه وعقله؟!

لولا مقام العبودية لله تبارك وتعالى كيف يمكن إيقاف الفكر والسيطرة عليه!! إذا ما استطاع السالك إلى الله أن يضبط قلبه عن الخواطر النفسانية والشيطانية كيف تكون صلاته صلاة العارفين وصيامه صيام العارفين!!

الإنسان العامي الجاهل حينما يبدأ بتكبيرة الإحرام للصلاة ترى فكره يجول في معاملاته ومعاشه ومركبه وأمواله وعياله وغيرها من الأمور الدنيوية إلا التفكر في الله سبحانه وتعالى، فترى الرجل في أثناء الصلاة وفي تلك الفترة الوجيزة من وقتها يبنى لنفسه بنيانا عاليا أو يسافر سفرا بعيدا والمرأة تشتغل بطبخ طعام أو شراء لباس!! وفي هذه الحالات لم تكن العبادة لله سبحانه وتعالى بل كانت للمال والثروة ومظاهر الدنيا وتعلقاتها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَلْعونٌ مَنْ عَبَدَ الدينارَ والدِّرْهَمَ»[٦]!!

لماذاحينما يعمل الإنسان العامي عملا دنيويا ينسى كل شيء سوى ذلك العمل الذي يعمل به ويجهد بكل إمكاناته وطاقاته أن يركز ذهنه فيه ولكنه في أثناء الصلاة لا ينسى الأمور الدنيوية حسب القاعدة التي اعتاد عليها ولا يركز ذهنه في ذكر الله سبحانه وتعالى وحده؟!

حينما يقف الإنسان العامي للصلاة تقف نفسه عن السير والحركة إلى الله سبحانه وتعالى أما العارف بالله فهو في كل يوم بل في كل لحظة في سير إلى الله وعلى الخصوص في الصلاة التي هي وسيلة يومية للقرب إلى الله سبحانه وتعالى، على هذا قيل أن الصلاة معراج المؤمن لأن الغرض الحقيقي من الصلاة هو الاتصال والقرب المعنوي إلى المعبود سبحانه وتعالى.

أيها الإنسان!! بينك وبين الله، إذا كنت في محضر مدير أو وزير أو سلطان هل كان فكرك يشتغل

بشيء إلا بشخصه وحالاته وتصرفاته واللوحات المعلقة في أروقة قصره!! فأنت لا تتفكر إلا فيه أو في آثاره وما يدور حوله!!

هذه الحالة مفروضة لكل إنسان في صلاته إلا الخواص، فالعبادة كما ذكرنا للعوام والعبودية للخواص وأول أثر بعد الوصول إلى مقام العبودية هو السيطرة على النفس وخواطرها.

أيها السالكين إلى الله!! أبين في هذا المقام كلمة ولابد من بيانها راجيا أن لا تبعث في القلوب اليأس من رحمة الله بل ليرفع الله تعالى بها عن بصائر القلوب حجب الغفلة وغشاوة العمى وتكون سببا للحركة والتقرب إليه بالمعرفة والبينة والبصيرة في العبادة.

قد تكون العبادات كالصلاة والصيام والحج وغيرها صحيحة فقهاً وشرعا ولكنها غير مقبولة عند الله كلية أو جزءا، فصحة العبادة شيء وقبولها شيء آخر، وقد قال رسول الله ﷺ: «أَسْرَقُ السُّرّاقِ مَنْ سَرَقَ مِنْ صَلاتِهِ»[٧] يعني لا يتمها، وروي عن علي بن الحسين عليه السلام أنه صلَّى فسقط الرداء عن منكبيه فتركه حتى فرغ من صلاته فقال له بعض أصحابه: يا ابن رسول الله سقط رداؤك عن منكبيك فتركته ومضيت في صلاتك!! فقال عليه السلام: «وَيحكَ تَدْري بينَ يدَيّ مَنْ كُنْتُ!! شَغَلَني والله ذلك عَنْ هذا، أتعْلَمُ أنهُ لا يقْبَلُ مِنْ صَلاةِ العَبْدِ إلاَّ ما أقْبَلَ عَلَيْهِ»!![٨] وعن الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا: «رُبَّما لَمْ يُرْفَعْ مِنَ الصَّلاةِ إلاَّ الثُّلُثَ أو الرُّبعَ أو السُّدُسَ عَلَى قَدْرِ إقْبالِ المُصَلّي عَلَى صَلاتِهِ ولا يَعْطِي اللهُ الغافِلَ شيئاً»[٩]!!

وكان أئمتنا عليهم السلام إذا أخذوا في الدخول في الصلاة ارتعدت فرائصهم وتغيرت ألوانهم فتصفر مرة وتحمر أخرى!!

وعلى هذا فالعبودية قائمة مادام العبد يؤدي حق الطاعات على أكمل وجه بعد معرفة حقها وحقيقتها، ولا يكون ذلك إلا بتوجه القلب إلى الله عزَّ وجلَّ، وأفضل الأعمال التي يتمثل فيها الخضوع العبودي ويتحقق بها ذكر الله هي الصلاة كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿.... إنَّني أنا اللهُ لا إلهَ إلاَّ أنا فاعْبُدْني وأقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْري﴾[١٠]، فالغفلة عن ذكر الله والرياء وقصد الغير لم تكن لولا نسيان العبودية.

أيها السالك إلى الله!! انظر بتمعن في هذه الآيات المباركات حيث يقول الحق تبارك وتعالى في محكم كتابه: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأولئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أنفُسَهُمْ....﴾[١١]، يقول السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في تفسيره «الميزان» في شأن هذه الآيات المباركات: «الآياتُ كما ترى تُثبت الثقل في جانب الحسنات دائما والخفَّة في جانب السيئات دائما، ومن هنا يتأيَّد في النظر أن هناك أمراً

آخـر تقايـَس به الأعمــال والـثـقــل له، فـمـا كـان منـها حســنة انطبـق عليــه ووُزن بـه وهـو ثـقــل المـيـزان ومـا كان منـها ســيئة لم ينطبق عليه ولم يـوزن به وهو خفَّـة الميـزان كما نشــاهده فيما عنـدنـا مـن الموازيـن فـإن فيها مقـيـاســا وهـو الواحـد مـن الثـقــل كالمـثـقـال يوضـع في إحـدى الكفـتـيــن ثـم يوضـع المـتـاع فـي كفـة أخـرى فإنْ عــادَل المثقـال وزنـا بوجـه على ما يـدل عليـه الميــزان أخــذ بــه وإلا فهـو التــرك لا محـالــة» ثم يقـول: «فـفــي الأعـمـال واحــد (وحـدة) مـقــاس تـوزن بـه فللصــلاة مـيـزان تــوزن به وهــي الصــلاة التـامَّــة التـي هـي حــق الصـلاة وللـزكــاة والإنـفــاق نظيـر ذلك وللكـلام والقـول حـقُّ القـول الذي لا يشــتمـل على باطـل.... فالمـراد بقـولـه والْـوَزْنُ يَوْمَـئِـذٍ الْحَقُّ أنَّ الـوزن الـذي يـوزن به الأعمـال يومـئـذ إنمـا هـو الـحـق فبقـدر اشـتمال العمل على الحـق يكون اعتباره وقيمتـه.... فمن ثقـلت مـوازينه باشـتمال أعماله على الحـق فأولـئـك هـم المفلحون ومـن خفَّـت موازينه لعدم اشـتمال أعماله علـى الـحــق الـواجـب فـي العـبـوديـة فـأولـئـك الـذيـن خســروا أنفـســهـم»[١٢]، وعلى هذا فميزان العبودية هو ميزان الحق في كل عمل وقول.

إذا وصل الإنســان إلى مقام العبودية لله سـبحانه وتعالى وشـعر أنه مسلَّط على نفسه وخواطر نفسه في العبـادات فقــد وصــل إلى حقيـقـة آثار العبادات لا سـيما الصلاة حيث يقـول الله تبارك وتعالى: ﴿....إنَّ الصَّـلاةَ تَـنْـهَـى عَنِ الْفَحْـشاءِ وَالْـمُـنْكَرِ....﴾[١٣]!! فعن أبي عبدالله الصادق أنه قال: «اعْـلَــمْ أنَّ الـصَّــلاةَ حُـجْـزَةُ الله فــي الأرْضِ فَـمَـنْ أحَـبَّ أنْ يَـعْـلَـمَ مــا أدْرَكَ مِـنْ نَـفْــعِ صَـلاتــهِ فَلْـيَـنْـظُــرْ فـإنْ كانـَـتْ صَـلاتــُهُ حَـجَــزَتــْهُ عن الـفَـواحِـشِ والمُـنْـكَـرِ فـإنـَّـمـا أدْرَكَ مِــــنْ نـَــفْــعِـهـا بِـــقَــدْرِ ما احْـتـَجَــزَ»[١٤]، فإذا كان من آثـار الصلاة اجتناب الفواحش والمنكر فتلك هي الصلاة الحَقيقية والقربة التامة المقبولة.

أو كـما يقـول الله تبارك وتعالى: ﴿يا أيُّها الَّذِينَ آمَنُـوا كُتِـبَ عَلَيْـكُمُ الصِّيامُ كَما كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَـبْلِـكُــمْ لَـعَـلَّـكُــمْ تـَتَّـقــونَ﴾[١٥] أي لكي تـتَّـقـوا، فـإذا كان من آثار الصيـام التقوى فذلك هو الصيام الحقيقي!!

روي عن الإمام علي بن الحسـين أنه سـقط بعض ولده بعض الليالي فانكسرت يده فصاح أهل الدار وأتاهم الجيران وجيء بالمجبر فجبر الصبي وهو يصيح من الألم وكل ذلك لا يسمعه فلما أصبح رأى الصبي يده مربوطة إلى عنقه فقال: ما هذا؟! فأخبروه!![١٦]

لعلك تسأل وتقول: هذا إمام معصوم، وهو كما وُصف زين العابدين وفخر الساجدين، فأين نحن وهذا المقام؟!

أيها السالك إلى الله، إن رسول الله ﷺ والأئمة الهداة من أهل بيته عليهم السلام قد اجتازوا مراتب السلوك إلى الله ونالوا المراتب السامية من الكمالات ووصلوا إلى حرم أمن الله تبارك وتعالى فكانت أرواحهم في الملأ الأعلى وأبدانهم بين الناس ومع ذلك لم تخْلُ حالاتهم من التضرع والمناجاة والابتهال إلى الله عزَّ وجلَّ والدعاء والتوسل إلى كرمه وجوده، وقد جعل الله لنا في رسول الله ﷺ والأئمة من أهل بيته عليهم السلام أسوة حسنة فهم المثل الأعلى في كل فضيلة والأنموذج الأرفع في كل منقبة وعلينا أن نسلك سبيلهم ونتبع منهجهم

وبإمكاننا أن نصل إلى المراتب العليا من الخشوع والخضوع ونرقى إلى مرتبة العبودية الخالصة لله سبحانه وتعالى بتهذيب النفس وتزكيتها والتخلص من كل العلائق الدنيوية الزائلة وزخارفها، وقد رأيت بعض حالات أولياء الله – في هذا المسجد – حينما يكبِّرون تكبيرة الإحرام ويدخلون في الصلاة تتغير نبرات أصواتهم وتتغير حالاتهم كأنهم يخرجون من هذا العالم ويلِجون في عوالم أخرى منقطعين عن كل ما سوى الله سبحانه وتعالى!!

أيها السالك إلى الله!! إن جلب رضا المحبوب هو غاية السعادة وعظيم الفوز، فاجلس في خلوة بينك وبين الله وحاسب نفسك وانظر إن كنت من المسيطرين على نفسك وخواطر نفسك أم لا، وإن كنت قد أديت حقوق عباداتك على أتم وجه أم لا، فإن كان الحال كذلك فتلك هي العبودية المختصة بالخواص من السالكين.

ثم اعلم أن السالك إلى الله إذا وصل إلى هذا المقام يجعل الله سبحانه وتعالى المُلك والملكوت في اختياره وتحت تصرفه وبالتالي يصل إلى مقام الولاية فيكون وليا من أولياء الله الصالحين (وهذا ما سنبينه في المنازل القادمة بحول الله وقوته)، ومن ثم لا تتعجب إذا استطاع الولي العارف بالله أن يسيطر على المُلك والملكوت ويتصرف فيهما بإرادته أو يرى فيهما وراء الحجب أو ما فوق ذلك من المقامات!!

اتجه الخاجه عبد الله الأنصاري رضي الله عنه [١٧] إلى بيت الله الحرام مع الخواص من أصحابه وتلامذته وكان أصحابه وتلامذته يراقبون حالات أستاذهم وتصرفاته ويسعون للاستفادة منه، وذات يوم دخل المسجد الحرام واقترب من الكعبة وتعلق بأستارها وأخذ يدعو الله سبحانه وتعالى ببعض الدعوات، فالتفت إليه تلامذته المتفانون فيه ليستمعوا إليه وما يطلب من الله في دعائه، فسمعوه وهو يقول: إلهي خذ كل شيء من عبد الله حتى لا يتفكر إلا بالله!!

انظر إلى هذا المقام العظيم وسل الله تعالى أن يرزقك لذة عبادته ومناجاته!!

يقال أن «العبدُ عبدٌ ما لَمْ يَطْلُبْ لنفسِه خادِماً» أو «العَبْدُ مَنْ لا عَبْدَ لَهُ» فمن لم يكن له عبد يخدمه كان هو القائم بأمور نفسه فهو عبد نفسه ولما كان العارف بالله لا يرى نفسه تملك

شيئا وأنه ذليل تحت تصرف مالكه ومولاه هنالك يكون مصداقا حقيقيا للعبودية المحضة لله عزَّ وجلَّ وأما من ترك الحق وتعبَّد عبيد الحق فقد نازع الحق في ربوبيته ومالكيته وخرج عن دائرة عبوديته.

كان علي بن الحسينعليه السلام لا يسافر إلا مع رفقة لا يعرفونه ويشترط عليهم أن يكون مِن خَدَم الرفقة فيما يحتاجون إليه، فسافر مرة مع قوم فرآه رجل فعرفه فقال لهم: أتدرون من هذا؟! فقالوا لا، قال: هذا علي بن الحسينعليه السلام!! فوثبوا فقبَّلوا يده ورجله وقالوا: يا ابن رسول الله أردت أن تُصْلينا نار جهنم لو بدرَت منا إليك يد أو لسان، أكُنّا هلكنا إلى آخر الدهر!! فقالعليه السلام: إني كنت سافرت مرة مع قوم يعرفونني فأعطوني برسول اللهصلى الله عليه وآله ما لا أستحق فإني أخاف أن تعطوني مثل ذلك فصار كتمان أمري أحب إلي!! [١٨]

وأما آفة العبودية فهي الكبر والتكبر عن عبادة رب العالمين والاستكبار والاستنكاف عن طاعته [١٩]، فما أصبح إبليس ملعونا رجيما إلا لكبره واستكباره، وكما قال مولانا الإمام الصادقعليه السلام أن أول معصية عُصي بها الله سبحانه وتعالى الاستكبار حينما أمر الله سبحانه وتعالى الملائكة بالسجود فأبى إبليس واستكبر، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ *﴾[٢٠]!! وقال أمير المؤمنينعليه السلام في خطبة الغدير: «أَفَتَدْرونَ الاسْتِكْبارَ ما هو؟! هو تَرْكُ الطاعَةِ لِمَنْ أُمِروا بطاعَتِهِ والتَّرَفُّعُ عَلَى مَنْ نُدِبوا إلى مُتابَعَتِهِ»[٢١]!!

أيها السالك إلى الله!! عليك بالسير إلى الله تعالى سيرا عبوديا من موطن النفس ومنفى البعد إلى حظيرة القرب ودار الكبرياء بالإعراض عن ملاذ الدنيا وغرورها وآمال النفس وشهواتها وتصفية الذهن وتهذيب الخاطر والتوجه بكلِّك إلى الملك الحق سبحانه وتعالى ثم تسأله العون والتوفيق في ذلك كله.

إلهنا!! يا من لا يخفى عليه خواطر الأوهام وتصرف الخطرات نعترف أننا قصرنا عن معرفة أنفسنا فكيف بالسيطرة على خواطر أوهامنا!! فجُدْ علينا بكرمك وفضلك وحبِّب إلينا طاعتك وعبادتك وما يقرِّبنا إليك إنك سميع الدعاء.

الهوامش

(١) كما ذكرنا في المنازل السابقة أن التفكر في ذات الله ممنوع ومحظور ويؤول إلى الهلاك إلا أن السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه أشار إلى ذلك بإشارة لطيفة وقال: «النهي إرشادي متعلق بمن لا يحسن الورود في المسائل العقلية العميقة فيكون خوضه فيها تعرضا للهلاك الدائم».

(٢) اليقين عامة هو كل ما ثبت واستقر ولم يتزلزل من أي نوع كان علم أو عين أو حق وعلم اليقين هو ما أعطاه الدليل الذي لا يقبل الدخل ولا الشبهة وعين اليقين هو ما أعطاه الكشف والمشاهدة وحق اليقين هو ما حصل في القلب من العلم بما أريد له ذلك الشهود، وقيل أيضا أن علم اليقين هو تصور الأمر على ما هو عليه وعين اليقين شهوده كما هو وحق اليقين بالفناء في الحق والبقاء به علما وشهودا وكمالا وحالا.

(٣) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٩٣

(٤) مصباح الشريعة: باب ١٠٠ ص ٦٦

(٥) إنما تسمى خواطر من حيث أنها تخطر بالخيال والخواطر محركة للإرادات والإرادات محركة للأعضاء والخواطر تنقسم إلى الخاطر المحمود وهو الإلهام الذي يدعو إلى الخير والخاطر المذموم وهو الوسواس الذي يدعو إلى الشر.

(٦) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٢٢٧

(٧) بحار الأنوار: ج ٨٤ ص ٢٦٤، وعنه صلى الله عليه وآله قال: «مَثَلُ الَّذي لا يُتِمُّ صَلاتَهُ كَمَثِلِ حَبْلَى حَمِلَتْ إذا دَنا نِفاسُها أسْقَطَتْ فَلا هي ذاتُ حَمْلٍ ولا هي ذاتُ وَلَدٍ»، وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «الصَّلاةُ ميزانٌ فَمَنْ وَفَى اسْتَوْفَى».

(٨) بحار الأنوار: ج ٨٤ ص ٢٦٥

(٩) نفس المصدر

(١٠) سورة طه: آية ١٤

(١١) سورة الأعراف: آية ٨ – آية ٩

(١٢) الميزان في تفسير القرآن: المجلد ٨ ص ١٠ – ص ١٣

(١٣) سورة العنكبوت: آية ٤٥

(١٤) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٩٩ نقلا عن معاني الأخبار: ج ٨٤ ص ٢٦٣

(١٥) سورة البقرة: آية ١٨٣

(١٦) بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٨٠

(١٧) ذكر نبذة عن سيرته في المنزل (٣) – الإرادة عند المحب – فراجع

(١٨) عيون أخبار الرضا عليه السلام: ج ٢ ص ١٤٥

(١٩) الكِبْر هو رؤية النفس فوق الغير وهو أمر باطني وأما التكبُّر فهو ما يظهر من الكِبْر في الخارج والاستنكاف

الأنفة من العبادة كما في قوله: ﴿ومَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ ويَسْتكْبِرْ فسَيَحْشُرُهُمْ إلَيْهِ جَميعاً﴾ - سورة النساء آية ١٧٢ - وإنما قيد ﴿ويَسْتكْبِرْ﴾ قوله ﴿ومَنْ يَسْتَنْكِفْ﴾ لأنَ مجرد الاستنكاف لا يوجب السخط الإلهي إذا لم يكن عن استكبار كما في الجهلاء والمستضعفين (راجع تفسير الميزان).

(٢٠) سورة ص: آية ٧٧ - آية ٧٨

(٢١) بحار الأنوار: ٩٧ ص ١١٢

المنزل (١٠)

التَّضَرُّعُ عِنْدَ المُحِب

حينما يمتلك الإنسان شيئا قيما وثمينا يرجع إلى الأخصائي ليشرح له كيفية الحفاظ على هذا الشيء من التلف أو الضياع أو السرقة، والسالكون إلى الله تعالى بما فيهم المخلصون والمتقون في خطر عظيم[١] فعليهم أن يرجعوا إلى المعلم والمرشد ليبين لهم كيف يحافظون على ما وصلوا إليه من المقامات.

يقول العرفاء وعلماء علم الأخلاق لاسيما مشايخنا رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أن وسيلة استمرار حالة العبودية والحفاظ عليها هي التضرع إلى الله سبحانه وتعالى.

فماذا يعني التضرع عند العارف المحب؟!

التضرع هو إظهار الذل والافتقار والاستكانة والخضوع، فقد يدعو الإنسان ربه في بادئ الأمر مناجاةً وخفية فلا يُسمَع منه صوت ولا أنين ولكن حينما تشتد عليه المصائب والمكاره يكون دعاؤه واستغفاره مناداةً ومصحوبا بالبكاء والأنين علنا وجهرة والحالة الثانية هذه تسمى بالتضرع، والحق تبارك وتعالى يقول: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وخُفْيَةً....﴾[٢] على أن يكون ذلك في إطار العبودية غير خارج عنها ولا منافيا لأدبها، ولهذا خُتمت الآية المباركة بعبارة: «.... إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ»!!

يقول السيد العلامة الطباطبائي في تفسير هذه الآية المباركة: أمر أن يدعوه بالتضرع والتذلل وأن يكون ذلك خفية من غير المجاهرة البعيدة عن أدب العبودية الخارجة عن زيها - بناء على أن تكون الواو في «تَضَرُّعاً وخُفْيَةً» للجمع - أو أن يدعوه بالتضرع والابتهال الملازم عادة للجهر بوجه أو بالخفية إخفاتا فإن ذلك هو لازم العبودية ومَن عدا ذلك فقد اعتدى عن طور العبودية وإن الله لا يحب المعتدين ومن الممكن أن يكون المراد بالتضرع والخفية الجهر والسر وإنما وضع التضرع موضع

الجهر لكون الجهر في الدعاء منافيا لأدب العبودية إلا أن يصاحب التضرع[٣].

ويجدر بالذكر هنا أن هذه الآية المباركة تلي آية التوحيد والعبودية التي قال الله سبحانه وتعالى فيها: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]!! فتأمل!!

ومع معرفة معنى التضرع نغوص في أعماق بعض الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة لنصل إلى معرفة روح التضرع وحقيقة التضرع.

ورد في المأثور عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللهَ خَلَقَ الخَلْقَ في الظُّلْمَةِ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نورِهِ»[٥]، فكل مخلوق يوصف بالظلمة من الجهة التي تلي العدم ثم يتنور بالوجود (والمكنَّى عنه برش النور) فيظهر، أي أن كل ممكن بنور الله تعالى اتصف بالوجود بعدما كان منعوتا بالعدم، ولكن الذنوب والمعاصي جعلته يعيش في شائبة الكدورات ودياجير الظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض بعدما أنار الله تعالى خلقه بنوره، هنا يسألنا الله سبحانه وتعالى احتجاجا ويقول: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ....﴾[٦] وأنتم تعلمون أن لا رب سواه وبالفطرة التي فطر الناس عليها تدعونه كما أشار إلى ذلك بقوله سبحانه: ﴿.... تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً....﴾!! ولكن برحمته الواسعة ولطفه الدائم على عباده يبين طريق النجاة والخلاص من هذه الظلمات في الآية التي تليها مباشرة: ﴿قُلِ اللهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ....﴾[٧]، فانظر إلى هذه المراتب ترى أنه لا سبيل للخلاص والنجاة من الظلمات إلا بالتضرع إلى الله سبحانه وتعالى.

وطرق التضرع إلى الله سبحانه وتعالى كثيرة منها الأدعية والمناجات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام المليئة بمعاني الفقر إلى الله تعالى وسبل التذلل له وحده، وللأمكنة آثار في الخضوع والخشوع لله كالمساجد والمشاهد المشرفة وللأزمنة والأوقات كذلك آثار كشهر رجب وشعبان ورمضان وليالي الجمع وغيرها من خواص الأيام والليالي والأزمان.

وللتضرع مراتب ومقامات كثيرة ولكنا نكتفي ببيان اثنين منها وهما: التضرع الرفعي والتضرع الدفعي.

فأما المقام الأول – التضرع الرفعي – ويحصل هذا النوع من التضرع بعدما يتصف القلب ببعض الخصال الذميمة كالغل والبغضاء والحسد والكبر وغيرها من رذائل الأخلاق ومفاسدها هنالك يتضرع العبد إلى ربه ليرفعها عن قلبه ويطهرها منها.

وأمـا المقـام الثاني – التضرع الدفعي – ، وطوبى لمن وصـل إلى هذا المقام لأن في هذا المقام يفترض أن يخلي السالك قلبه أولا من كل رذيلة وذنب ومعصية ومن ثَمَّ يتضرع إلى ربه ويطلب منه أن لا يجعل للرذائل ومساوئ الأخلاق سبيلا إلى قلبه ثانية بعد تطهيره منها، ومن هذا المنطلق يقول داعيا إلى الله: ﴿.... و لا تَـجْـعَـلْ في قـُـلوبِـنــا غِـــلاًّ....﴾[٨].

وفي مقـام التـضرع الدفعي وفي معرض تفسـير هذه الآيـة المباركة لفتة لطيفة اسـتفدناها من محضر سـيدنا الأسـتاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه حيث كان يقول: لو تمعنا في ذيل هذه الآية الكريمة التي تختتم بهذه العبارة ﴿.... رَبَّنا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ لعرفنا أن المسألة هنا ليست طلب العفو والرحمة والرأفة من رب العالمين فالسـالك إلى الله في هذا المقام يكون قد طهر قلبه مسـبقا من كل رذيلة وذميمة، ولكن المسألة – مع الحفاظ على أدب العبودية في محضر قدسية رب العالمين – هي أن يجعله الله سبحانه وتعالى مظهرا من مظاهر رحمته ورأفته وهذا ما لا يناله السـالكون والعارفون إلا بعد التضرع إلى الله سـبحانه وتعالى.

أيها السالك إلى الله!! أنت في مقام الدفع تتضرع إلى الله سبحانه وتعالى وتقول:

إلهـي!! كما أن الرحمة والرأفة من المظاهر الفعلية لأسـمائك الحسـنى ووصفت بهما نفسـك وقلت: ﴿.... رَبَّـنـا إِنـَّكَ رَؤُوفٌ رَحِـيـمٌ﴾ ومننت على رسـولك صلى الله عليه وآله وجعلته مظهرا للرحمة والرأفة ووصفته بهـما في كتابـك الكريـم وقلت: ﴿لـَـقَـدْ جاءَكُم رَسُــولٌ مِـنْ أنـفُـسِــكُمْ عَـزيــزٌ عَـلَـيْهِ ما عَـنِـتُّـمْ حَـريــصٌ عَـلَـيْكُـمْ بـِـالـمُـؤْمِنيــنَ رَؤُوفٌ رَحِيــمٌ﴾[٩]، إلهي وأنا من أُمّة نبيـك محمَّد صلى الله عليه وآله فاجعلني مظهرا للرأفة والرحمة كي لا يدخل في قلبي شيء من الغل والحسد والبغضاء وأعفو عمن ظلمني!!

فيا من لا يزيده إلحاح الملحين إلا جودا وكرما ويا من له خزائن السماوات والأرض أعطيت نبيك الكثـير فأعطنـي القليل وجعلتـه صلى الله عليه وآله في المقام الكامل من الرأفة والرحمة فاجعلنـي في المقام النازل منهما فأكون رؤوفا رحيما إنك أجود الأجودين وخير المعطين.

من هنا كان سـيدنا الأسـتاذ رضي الله عنه يقول أنه يجب أن تكون أموال الناس بيد من لا ينام شبعانا وجاره جائـع ومن جعله الله سـبحانه وتعالى مظهـرا من مظاهر رحمته ورأفته على العبـاد (هذا في المقام النازل منها لأن المقام الأكمل لهذه المظاهر هي لرسول الله صلى الله عليه وآله).

يحكى أن مجنون كان يبكي على فراق ليلى كثيرا حتى اعتل وأصبح طريح الفراش، فجزع أهله لحاله ودخلهم حزن شـديد وأشـفقوا عليه، فذهبوا ذات يوم إلى بيت ليلى ليطلبوا من أهلها السـماح لمجنون برؤيتها، فلم يمانعوا من ذلك ولكنهم قالوا: نحن نخاف على مجنون كيف يكون حاله حينما يقابل ليلى وينظـر إليهـا، فقالوا: لا حيلة لنا في هذا الأمر، أما ترون هذا المجنون المسـكين كيف يبكي ليله ونهاره

ويتضرع فارحموه ولا تبالوا عاقبة أمره، فأتوا بمجنون ليلقي نظرة إلى حبيبته ليلى، فلما نظر إليها نظرة واحدة خر مغشيا عليه!!

أيها السالك إلى الله!! العشق هنا مجازي ومرتبة العشق بدني وبالتضرع وصل مجنون إلى النظر إلى شيء من جمال محبوبه، فهل تضرعت إلى الله سبحانه وتعالى تضرعا يوصلك إلى رؤية جمال المحبوب الحقيقي سبحانه وتعالى!!

عشق مولى كى كم از ليلى بود
محو گشتن بهر او اولى بود[١٠]

وأما آفة التضرع فهي الظلمات، ودليل ذلك ما جاء في القرآن الكريم: «قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِن ظُلُماتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً»، فكل ما يُدخل في هذا المقام النوراني نوعا من الخلل والحجاب فهو ظلمات، وعلى العكس فالتضرع يكسب السالك نورا ينجيه من الظلمات.

يحكى أنه كانت لأبي طلحة الأنصاري حديقة يجلس فيها ويتضرع ويبتهل إلى الله خفية، ونظرا لجمال الحديقة ومناظرها الخلابة كانت الطيور والعصافير تنجذب إليها تحوم فيها وتغرد بأصوات مرتفعة طربا وسرورا فكانت تسبب الازعاج والضيق لأبي طلحة ويراها عائقا وآفة في طريق تضرعه إلى الله سبحانه وتعالى، فعزم على بيع الحديقة والتصدق بمالها للفقراء لكي لا يبقى بينه وبين ربه شيء يعيقه عن التضرع والابتهال إليه والوصول إلى نور جماله!!

وأنت أيها السالك إلى الله لابد أن ترفع كل حاجب ومانع بينك وبين ربك، وإذا رأيت آفة من آفات الإخلاص والتضرع والخشوع في طريق سيرك إلى الله تعالى فعليك أن تتخلص منها بشتى الوسائل والطرق حتى تخرج قلبك من الظلمات وتعلقها بسلاسل النور إلى أن تنتهي إلى نور الأنوار جل جلاله وعظم شأنه.

إلهي حرمني كل مسئول رفده ومنعني كل مأمول ما عنده وردَّتني الضرورة إليك حين خابت آمالي وانقطعت أسبابي وأيقنت أن سعيي لا يفلح واجتهادي لا ينجح إلا بمعونتك فأسألك أن تصلي على محمَّد وآل محمَّد وأن تغنني يا رب بكرمك عن لؤم المسئولين وبإسعافك عن خيبة المرجوين ولا تجعلني ممن يبطره الرخاء ويصرعه البلاء فلا يدعوك إلا عند حلول نازلة ولا يذكرك إلا عند وقوع جائحة فيصرع لك خده وترفع بالمسألة إليك يده ولا تجعلني ممن عبادته لك خطرات تعرض دون دوامها الفترات فيعمل بشيء من الطاعة في يومه ويمل العمل في غده برحمتك يا أرحم الراحمين[١١].

الهوامش

(١) قال الصادق‹ع›: «هلكَ العامِلون إلا العابِدون وهلكَ العابِدون إلا العالِمون وهلكَ العالِمون إلا المخلِصون وهلكَ المخلِصون إلا المتَّقون وهلكَ المتَّقون إلا المَوقِنون وإن المتَّقَين لعَلَى خَطَر عظيمٍ قالَ الله سبحانه وتعالى لنبيِّه ﴿واعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأتِيَكَ الْيَقينُ﴾ - بحار الأنوار: ج٧٠ص٢٤٥، وقد ورد هذا الحديث بعبارات مختلفة في مختلف كتب الحديث مثل قوله‹ص›: «العلماءُ كلُّهم هَلْكَى إلاَّ العامِلون والعامِلونَ كلُّهم هَلْكَى إلاَّ المُخْلِصون والمُخْلِصون علَى خَطَرٍ».

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٥

(٣) تفسير الميزان: المجلد ٨ ص ١٥٩

(٤) سورة الأعراف: آية ٥٤

(٥) وروى العلامة المجلسي‹ره› في بحار الأنوار: ج ٦٨ ص ٤٤ نقلا عن إرشاد القلوب للشيخ الديلمي أن رسول الله‹ص› قال لعلي‹ع›: «إن الله تبارك وتعالى خلقني وإياك من نوره الأعظم ثم رشَّ من نورنا على جميع الأنوار من بعد خلقه لها فمن أصابه من ذلك النور اهتدى إلينا ومن أخطأه ذلك النور ضل عنا»، ثم قرأ ﴿وَمَن لَمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نوراً فَما لَهُ مِن نورٍ يَهْتَدي إلَى نورِنا﴾.

(٦) سورة الأنعام: آية ٦٣

(٧) سورة الأنعام: آية ٦٤

(٨) سورة الحشر: آية ١٠

(٩) سورة التوبة: آية ١٢٨

(١٠) الترجمة: متى كان عشق المولى دون عشق ليلى فالمحو والفناء في المحبوب الحقيقي أولى من المحو والفناء في المحبوب المجازي

(١١) من دعاء يوشع بن نون

المنزل (١١)

الشُّهودُ عِنْدَ المُحِب

الشهادة تعني الرؤية أو الحضور، وشَهِد الرجل الشيء أي رآه، وكل مشاهدة رؤية وما كل رؤية مشاهدة، والشاهِد اسم فاعل ويُطلق على من يشهَد على ما يرى من أعمال الناس وجمعه شهود وأشْهاد وشهداء وشُهَّد، والمَشهود أي المحضور أو ما يُشهَد عليه، والإشهاد على الشيء هو إحضار الشاهد وإراءته حقيقة الشيء ليتحمَّله علماً تحمُّلاً شُهوديًّا ثم أداء ما تحمَّله إذا ما سئل بذلك، والمراد من الشهود في هذا المنزل الذين يرون أعمال الناس في الحياة الدنيا لا بظاهر صورها ومحسوس هيئاتها بل بالعلم بحقائقها وبواطنها ثم يشهدون عليها يوم القيامة.

وأما الشهود فهم من حيث الشهادة على مراتب:

الشاهد الأول: وله الشهادة المطلقة العليا وهو ذات الحق تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1]، فهو الشاهد الحقيقي المطلق الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة ولا تخفى عليه خافية من إحسان أو إساءة ومن قول أو فعل وما تخفي الصدور وهو السميع البصير والخبير المهيمن الذي أحاط بعلمه كل شيء ﴿.... اعْمَلوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[2]، فشهادته شهادة عامة مطلقة سواء وُجِد شاهد غيره من عباده ورسله أو لم يوجد وكفى بالله شهيدا وحسيبا: ﴿.... وإن تُبْدوا مَا فِي أنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾[3].

روي أن الحسين بن علي عليه السلام جاءه رجل وقال: أنا رجل عاص ولا أصبر عن المعصية فعظني بموعظة، فقال عليه السلام: «افْعَلْ خَمْسَةَ أشْياءٍ وأذْنِبْ ما شِئْتَ....» إلى أن قال عليه السلام: «والثالِثُ اطْلُبْ مَوْضِعاً لا يَراكَ اللهُ وأذْنِبْ ما شِئْتَ....»[4]!!

الشـاهد الثاني: رسول الله ﷺ الذي عصمه الله تعالى بالعصمـة الإلهيـة المنيعة فسَلِم روحه الطاهر مـن كل كـذب وجـور وافتراء، وكانت شـهادته حقيقة مـن الحقائق القرآنيـة، قال الله تبـارك وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إذا جِئْنا مِن كُلِّ أمَّةٍ بِشَهيدٍ وَجِئْنا بِكَ عَلَى هؤلاءِ شَهيداً﴾!![٥] وقال أيضا: ﴿يا أيُّها النَّبيُّ لَقَدْ أرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذيراً﴾[٦]، فشهادته على أعمال الأمة بتحملها في نشأة الدنيا وأدائها يوم القيامة.

ولبيان معنى شـهادة رسـول الله ﷺ في هذا المقام نستدل بروايات نقلها ثقة الإسلام الكليني رضي الله عنه في كتابه «أصول الكافي»:

عـن علي بن إبراهيم عن أبيه عن عثمان بن عيسـى عن سـماعة عن أبي عبـدالله الصادق عليه السلام أنه قال: سـمعته يقول ما لَكُمْ تَسُوؤونَ رَسولَ الله ﷺ؟! فقال رجل: كيف نسوؤه؟! فقال: أما تَعْلَمونَ أنَّ أعمالَكُمْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ فإذا رَأى فيها مَعْصِيَةً ساءهُ ذلكَ فَلا تَسُوؤا رَسولَ الله وسُرُّوهُ!![٧]

وعـن أبي بصـير عن أبي عبـدالله عليه السلام قال: «تُعْرَضُ الأعْمالُ عَلَى رَسولِ الله ﷺ كُلَّ صَباحٍ أبْرارُها وفُجّارُها فاحْذرُوها وهُو قَولُ الله تعالى «وَقُلِ اعْمَلوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ ورَسُولُهُ» وسكت!![٨]

وعـن أبي عبدالله عليه السلام قال قال رسـول الله ﷺ: إنَّ لَكُمْ في حَياتي خَيْراً وفي مَماتي خَيْراً، فقيـل: أما حياتـك فقد علمنـا فما لنـا في وفاتك؟! فقـال: أمّا حَياتي فَإنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قالَ «وَ مَا كانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأنْتَ فيهِمْ وَمَا كانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرون» وأمّا في مَماتي فَتُعْرَضُ عَلَيَّ أعْمالُكُمْ فأسْتَغْفِرُ لَكُمْ!![٩]

يقول سـيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه أن سعة وجودية رسول الله ﷺ مسيطرة وحاكمة على عالمنا هذا سـواء في حياته أو بعد وفاته لأنه الإنسـان الكامل وملاك الأكملية السـعة الوجـوديـة فمن كان أكمل وجودا وأتم درجة كانت سـعته الوجـودية أكبر وأشمل، وعلى هذا فرسول الله ﷺ شاهـد يرى حقائق الأشياء عيانا والاتصال بينه وبين المَشاهد مستمر إلى يوم القيامة.

الشـاهد الثـالث: الإمام المعصوم المفترض الطاعة، فعن بريد قال سـألت أبـا عبدالله عليه السلام عن قـول الله عـزَّ وجـلَّ «وَكَذلكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ» فقـال عليه السلام: نَحنُ الأمَّةُ الوُسْطَى ونَحنُ شُهَداءُ الله عَلَى خَلْقِهِ وحُجَجُهُ في أرْضِهِ و «لِيَكونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهيداً» فَرَسولُ الله ﷺ الشَّهيدُ عَلَينا

بمـا بَلَّـغْـنـا عَـنِ الله عَـزَّ وَجَـلَّ ونـحـنُ الشُّـهَـداءُ عَلَـى الـنـاسِ فَمَـن صَـدَّقَ صَدَّقـْناهُ يـومَ القـيـامَـةِ ومَـن كَـذَّبَ كَـذَّبْـنـاه!![١٠]

وعـن عبـدالله بن أبان الزيـات قال قلت للرضـا عليه السلام: ادْعُ الله لي ولأهل بيتي، فقال عليه السلام: أوَلَـسْـتُ أفـْعَـلُ!! والله إنَّ أعـمالَكُـمْ لَتُـعْـرَضُ عَـلَـيَّ فـي كُلِّ يَـوم ولَـيْـلَـةٍ!! قال: فاستعظمْت ذلك، فقال لي: أمـا تـَـقْـرَأ كِتـابَ الله عـزَّ وَجَـلَّ «وَقـُـلِ اعْـمَـلُـوا فـَسَـيَرَى الله عَـمَـلَـكُمْ وَرَسُـولُـهُ وَالْـمُـؤْمِـنُـونَ»[١١]!!

وشاهد عصرنا وزمانِنا هذا هو الإمام المنتظر الغائب الحجة بن الحسن المهدي (عج) الذي تُعرَض عليه أعمالُـنا كلَّ صباح ومسـاء وتُعرَض عليه أعمالُ السـنة كلِّها في ليلة النصف من شهر شعبان التي تقسم فيها الأرزاق والآجال وما يكون فيها من المقدَّرات.

الشاهد الرابع: الخواص من المؤمنين، فإن الله جل ثناؤه يجتبي من عباده الأولياء المقربين والأتقياء الصالحين الذين يتولى أمرهم ويكشـف لهم حقائق أعمال الناس فيكونوا شـهداء رقَباء عليها في الحياة الدنيا ويشهدوا عليها يوم يقوم الأشهاد، وهذه الكرامة - أي الشهادة في محضر الإشهاد - خاصة بهم يسَّرها لهم ربهم دون غيرهم[١٢].

ونشير في هذا المقام إلى حكاية نقلها أحد الأساتذة العرفاء هي في الحقيقة مصداق لشهادة الخواص من أولياء الله على أعمال العباد في الحياة الدنيا:

قال الأسـتاذ العارف: كنت ذات يوم في محضر الأسـتاذ محمَّد حسن الطباطبائي رضي الله عنه - الأخ الأكبر للسـيد العلامـة محمَّـد حسـين الطباطبائي رضي الله عنه صاحب تفسـير الميـزان - وكان ارتباطه بعـالم الأرواح ارتباطـا قويـا ويطلعني بين حين وآخر على بعض حالاتي الباطنيـة وكان يقول لي: حينما أواجه معضلة أعجز عن حلها أتشرف بالحضور في محضر السيد علي القاضي الطباطبائي رضي الله عنه - وقد مضت على وفاته آنـذاك سـنوات طويلة - وأطرح عليه مشـكلتي ثم آخذ منه الجواب على الفـور، فقلت لجنابه: متى ما كنتم في حالاتكم هذه أبلغوا سلامي إلى السيد علي القاضي وقولوا له أن فلانا يلتمس منكم الدعاء!! فقبل مني ذلك ووعدني عليه.

مضت الأيام وانتقل السـيد محمَّد حسـن الطباطبائي إلى بلدته تبريز وأما أنا فغادرت قم في الصيف - حيث تعطل الدروس في الحوزة - وسافرت إلى بلدتي آمل واشتغلت هناك بالبحث والتدريس.

وذات يـوم مـن أيام الصيف الحار وبعد فراغي من التدريس رجعت إلى المنزل وتناولت غدائي ثم آويت إلى الفراش لأسـتريح قليلا، ولكني لم أسـتطع النوم لشـدة صراخ الأطفال ولعبهم، فقمت من فراشي غضِبا وأخذت ألحق بهم لكي أعاقبهم، ففر كبيرهـم من بين يدي وأمسكت بالثاني فضربته على

ظهره وأما الأصغر فقد ركضت خلفه إلى أن حصرته في زاوية من فناء المنزل ولما رأى الطفل هذه الحالة مني لم يـــرَ بـدًّا إلا أن يرمي بنفسه في أحضاني، فتأثرت من هذا الموقف كثيرا وتأسفت على ما بدر مني في شأن الأطفال، ورأيت أن أتدارك هذا الموقف فذهبت واشتريت لكل منهم ما يحب ويشتهي.

ثم قال: بقيت تلك الحالة من القلق والاضطراب تساورني فعزمت على السفر إلى طهران ومنها إلى تبريز، ولما وصلت إلى تبريز ذهبت مباشرة إلى منزل المرحوم السيد محمَّد حسن الطباطبائي فطرقت الباب وأقبل السيد بنفسه وأدخلني بيته، فبادرني بالكلام قائلا: كنت أفكر كيف أجدك لأعرض عليك هذا المطلب والحمد لله قدمت بنفسك، فقلت له: خير إن شاء الله!!

فقال: كنت البارحة محشورا مع السيد علي القاضي رضي الله عنه وأبلغته سلامكم والتماس الدعاء لكم ولكن للسيد القاضي عتاب عليكم، فقلت: وكيف؟ فقال: قال لي السيد علي القاضي قل له كيف تريد الدخول في هذا المسلك في حين أنك تتعامل مع أطفالك بهذه الشدة!

فقلت: أقسم بالله أني لم أكن معتادا على ذلك وبدر مني ذلك الموقف لأول مرة ولن يتكرر ثانية!!

ونستدل من سياق الآية الكريمة: ﴿وقُلِ اعْمَلوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ...﴾ أن الرؤية المذكورة في هذه الآية إنما هي رؤية في الدنيا وما قبل البعث بدليل قوله تعالى في تتمة الآية: ﴿.... وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١٣]، وتدل الآية كذلك على أن حقائق أعمال الناس جلية واضحة يشهدها الله عزَّ وجلَّ ورسوله والأئمة المعصومون والخواص من المؤمنين وهم شهداء الأعمال في حين أن العاملين بها لا يرون إلا ظاهر أعمالهم وأما حقيقتها فهي مستورة عنهم ولا يقفون عليها إلا يوم القيامة كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ كُنتَ في غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[١٤].

أيها الإنسان!! لقد تعدَّد الشهود على أعمالك فإلى أين الفرار من محكمة رب العالمين وهو أحكم الحاكمين الذي قال بعد إقامة الحجة وإتمامها: ﴿ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾!![١٥]، فهل تعزم على المعصية فضلا عن ارتكابها وأنت تعلم أن لله عزَّ وجلَّ الحجة البالغة وهو محيط بك علما ويشهد عليك شهودا وتعلم أيضا أن كتاب أعمالك الحسنة منها والسيئة الكبيرة منها والصغيرة الظاهرة منها والباطنة تُعرَض على رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام الذين ترجو من الله عزَّ وجلَّ أن يكونوا لك شفعاء عنده يوم الحساب!!

إذا جعلت في تصورك وحسبانك أن كل عمل سيء تقوم به وتعتقد ظاهرا أنك في الخلوة فاعلم أنك أمام ملأ من الشهود الناظرين المراقبين فهل تتجرأ أن تقوم به!!

لما كانت الشـهادة تؤدَّى يوم القيامة ولازمة الشـهادة هي الرؤية بمعنى أن الشـاهد لابد أن يكون حاضرا في مشهد العمل سواء كان عملا صالحا أو عملا سيئا لكي يرى ويشهد شهادة حقيقية صادقة فهـلاّ تخجَّلنـا من أنفسـنا ونحن نرتكـب ذنبا أو معصية في معرض شـهادة رسـول الله ﷺ والأئمة عليهم السلام فضـلا عن شـهادة رب العالمين سـبحانه وتعالى!! إن ارتـكاب الذنب والمعصيـة إلى جانب أنه يوجب الزجر والعقاب فهو هتك لحرمة الله سـبحانه وتعالى وحرمة رسـوله وأوليائه الصالحين!! فواخجلتاه مـن مشـهد يـوم عظيم إن كنـا غافلين عن مراقبـة أنفسـنا في أقوالنا وأفعالنـا ونياتنـا وضمائرنا وسرِّنا وعلانيتنا!!

لعلنا بعـد معرفـة هـذه الحقائـق الغيبيَّـة نصـل إلى مفهـوم كلمـة الإمـام زيـن العابديـن علي بن الحسـين عليه السلام حيث يقول في دعائه: «لِماذا لا أبْكـي!! أبـْكـي لِخُروجِ نـَفْـسـي أبْكـي لِظُـلْـمَـةِ قَـبْـري أبـْكـي لِـخُـروجـي عُـرْيانـاً مِـنْ قَـبْـري»!! فالبـكاء على النفس وأحوالها في مواقف النـزع والاحتضـار والقـبر ما هـي إلا مقدمات للوقوف يـوم البعث بين يدي الله عـزَّ وجلَّ في محكمة عدله ومحضر شـهادته وشـهادة الذين أكرمهم بهذا المقام يوم يكشـف فيه عن كل مستور وتبلى فيه كل سريرة!!

أيها السالك إلى الله!! لا يَعمِي أبصارَ القلوب عن رؤية الحق ولا يمنع النفس عن معرفته إلا حب الدنيا واتباع الهوى، فلابد بعد التوبة والإنابة والصدق والإخلاص والتضرع إلى الله عزَّ وجلَّ أن تلزم المراقبة الشديدة والحياء الدائم من الله عزَّ وجلَّ حق الحياء في الظاهر والباطن والسر والعلن وأن تمثِّل كلمة الحق ﴿أَلَمْ يَعْـلَمْ بِأَنَّ اللهَ يَرَى﴾[١٦] بين عينيك وتعتقد بحقيقتها اعتقادا قلبيا راسخا وتشعر بأنك في محضر الشهود في كل زمان ومكان وأن أعمالك كلها مرئية مشهودة لديهم، فإذا كنت ترى ربك بعين الباطن والقلب ولم ترَ سواه وراقبت أعمالك وأقوالك ولم تكن غافلا عن مراقبة الحق لك ولكل شيء كما قال جل شـأنه: ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَى كُلِّ شيءٍ رَقِيباً﴾[١٧]، هنالك تكون نفسـك مطمئنة غير وجلة ولا خائفة من شهادة الشهود عليها يوم الأزفة ﴿إِذِ الْقُلوبُ لَدَى الْحَنَاجِـرِ كَاظِمِينَ﴾[١٨]!!

يقول رسـول الله ﷺ: «حَـاسِـبـوا أنـفُـسَـكـم قَـبْـلَ أن تـُحاسَـبَوا ومَـهِّـدوا لـهـا قَـبْـلَ أن تـُعـذَّبـُوا وتـَـزوَّدوا للـرَّحـيـلِ قَـبْـلَ أن تـُزعَـجـوا فإنـَّهـا مَوقِـفُ عَـدْلٍ واقْـتِـضـاءُ حَـقٍّ وسُـؤالٌ عَـن واجِـبٍ وقَـدْ أبـْلَـغَ في الإعْـذارِ مَنْ تَـقَـدَّمَ بالإنـْذارِ»[١٩].

ويقول الإمام الصادق عليه السلام: «مَـنْ يَـرَى الـقـيـامَـةَ بـأهْـوالِـهـا وشَـدائـِدِهـا قـائـِمَـةً فـي كـلِّ نَـفْـسٍ ويـعـايِـنْ بـالـقَـلْـبِ الـوقـوفَ بـيـنَ يَدَي الـجَـبَّـارِ حـيـنـئـذٍ يـأخُـذُ نـَفْـسَـه بـالـمُـحـاسَـبَـةِ كـأنـَّه إلَـى عَـرَصـاتـِهـا مَـدْعُـوٌّ وفـي غَـمَـراتـِهـا مَـسْـئـولٌ»[٢٠].

فالمراقبة والمحاسبة من حتميات السلوك إلى الله تعالى وتترتب عليها مقامات أخرى كالذكر والفكر وغيرهما وقد أوصى بهما أساتذتنا ومشايخنا العظام وتختلف مراتبهما حسب تفاوت درجات السالكين ومقاماتهم.

والمثال الحي الذي يمكن أن نعتبر منه في حياتنا الدنيا ويذكرنا بالآخرة والوقوف بين يدي الله عزَّ وجلَّ يوم الحشر الأكبر هو الوقوف بعرفات حيث يجمع الله تعالى الخلائق في صعيد واحد ويكون الحاج فيه محرما عن كل زخارف الملذات الظاهرية وزينة العلائق الدنيوية ويعيش في صحرائها سويعات يحاسب فيها نفسه ويعترف بذنوبه فيتضرع إلى الله ويستغفر وتتمثل أمام عينيه محكمة العدل الإلهي والشهود مأمورون بأمر الله للإدلاء بشهاداتهم عليه فيشهد على نفسه ويحاسبها من قبل أن يشهد عليه الآخرون!!

ما ملاك الشهود؟!

ملاكه الحضور، فعلى قدر حضورك ترى ربك بتجليه في قلبك!! وأكثر العبادات تقربا إلى الله تعالى وأتمها اتصالا به وحضورا معه هي الصلاة، وملاك قبول صلاتك وتمامها وكمالها حضور قلبك في الصلاة والتوجه إلى الله تعالى بكليَّتك وذلك بالتأهب لها وجعل الحق تبارك وتعالى نصب عينيك في قبلتك لكن من غير تحديد وتشبيه لأنه ليس كمثله شيء، والحضور في الصلاة بمثابة الروح لها وهي مع عدم الحضور كالبدن الذي لا روح فيه، فإحياء روح الصلاة بحضور القلب فيها يشعرك بحضور رب العالمين.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث سؤال جبريل عليه السلام في معنى الإحسان: «الإحْسانُ أنْ تَعْبُدَ اللهَ كأنَّكَ تَراهُ»[٢١] وما سوى ذلك فهو سوء أدب في محضر الحق جل وعلا ولهذا تمم صلى الله عليه وآله قوله: «فَإنْ لَمْ تَكُنْ تَراهُ فَإنَّه يَراكَ» وهو مقام المراقبة، والرؤية في الشطر الأول من الحديث بنحو «كأ» وهي المرتبة الدانية لأن العبادة على الغيب مشكل وأما المرتبة الأعلى في الرؤية والمقام الأسمى في الإحسان فهي الرؤية القلبية الصريحة كما ورد في قول مولى الموحدين أمير المؤمنين عليه السلام: «ما كُنْتُ أعْبُدْ رَبًّا لَمْ أرَهُ»[٢٢]!!

قال أبو عبد الله الصادق عليه السلام لإسحاق بن عمار: «يا إسحاقَ خِفِ اللهَ كَأنَّكَ تَراهُ وإن كُنْتَ لا تَراهُ فَإنَّهُ يَراكَ فَإن كُنْتَ تَرَى أنَّهُ لا يَراكَ فَقَدْ كَفَرْتَ وإن كُنْتَ تَعْلَمُ أنَّهُ يَراكَ ثُمَّ بَرَزْتَ لَهُ بالمَعْصِيَةِ فَقَدْ جَعَلْتَهُ مِنْ أهْوَنِ النّاظِرينَ عَلَيْكَ»[٢٣]!!

ومن الآفاتَ التي قد يغفل السالك إلى الله عنها في هذا الطريق آفتان:

الآفة الأولى الاستدراج:

فالاستدراج هو أن العبد حينما يجدد الخطيئة ولم يستغفر منها يجدد له الله النعمة ويسلبه الشكر وينسيه الاستغفار ويأخذه درجة بعد درجة حتى يظن أن النعم التي أنعم الله عليه بها إنما هي من رضا الله لا من سخطه عليه، يقول الله سبحانه وتعالى في كتابه: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ﴾[٢٤]!!

وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا رَأيْتَ اللهَ يُعْطِي عَلَى المَعاصِي فذلكَ اسْتِدراجٌ، ثمَّ تلا هذه الآيةَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا ما ذُكِّروا بِهِ فَتَحْنا عَلَيْهِمْ أبْوابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى إذا فَرِحُوا بِما أوتُوا أخَذْناهُمْ بَغْتَةً فَإذا هُمْ مُبْلِسونَ﴾[٢٥].

وسئل أبو عبدالله عليه السلام عن الاستدراج فقال: «العبدُ يُذنِبُ الذَّنبَ فَيُملي له ويُجَدِّدُ له عِندَها النِّعَمَ فيُلْهيهِ عن الاسْتِغْفارِ مِنَ الذنوبِ فهو مُسْتَدْرَجٌ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَم»!![٢٦] أما إذا أراد الله تعالى بعبد خيرا فأذنب ذنبا أتبعه بنقمة وذكَّره الاستغفار.

والآفة الثانية إيكال العبد إلى نفسه:

فالمريض بأمراض النفس والقلب كالغل والحسد والبخل والغيبة والنميمة وغيرها من الرذائل ووصل إلى مرحلة لا أمل له في الرجوع إلى الله هنالك يكله الله سبحانه وتعالى إلى نفسه ويخليه من عناياته وألطافه كالمريض بالأمراض الظاهرية إذا رأى الطبيب أملا في شفائه يعطيه الدواء اللازم ويحظره من بعض المأكولات المضرة بصحته أما إذا يئس من شفائه يكله إلى نفسه خفية دون أن يشعر ويدعه يأكل ما يشاء!!

فعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «واعْمَلوا في غيرِ رياءٍ ولا سُمْعَةٍ فإنَّه مَنْ يعمَلْ لغيرِ الله يكِلْهُ اللهُ إلى مَنْ عَمِلَ له»[٢٧]!!

وعن أبي عبدالله عليه السلام أنه قال: «في التوراةِ مكتوبٌ ابنُ آدمَ تفَرَّغْ لِعِبادَتي أمْلأ قَلبَكَ خوفاً مِنّي وإن لا تَفْرَغُ لِعِبادتي أمْلأ قَلبَكَ شُغْلاً بالدنيا ثمَّ لا أسُدُّ فاقَتَكَ وأكِلُكَ إلى طَلَبِها»[٢٨].

من هنا نعرف معنى هذه الفقرة من الدعاء: «إلهَنا لا تَكِلْنا إلى أنفُسِنا طَرْفَةَ عَيْنٍ أبَداً»[٢٩]، فكيف يكون الحال إذا أخرجنا الله سبحانه وتعالى من عباده وقال دعوه يهيم على وجهه يذهب إلى أي مكان شاء ويسلك أي طريق أراد!!

ولكن ما علامة هذه الآفة؟!

علامتها عدم الشعور بلذة العبادة.

قال عيسى عليه السلام: «بحق أقول لكم كما ينظر المريض إلى الطعام فلا يلتذ من شدة الوجع كذلك صاحب الدنيا لا يلتذ بالعبادة ولا يجد حلاوتها مع ما يجده من حلاوة الدنيا»[٣٠]!!

يحكى أن رجلا وقف في طريق موسى بن عمران عليه السلام وقال له: إذا ذهبت إلى ربك فقل له أنت تقول أن من عصاك سلبته كل شيء وجعلته في ضنك من العيش شديد وبلاء طويل، وهأنذا أعصيك وأملك كل شيء من ملذات الدنيا من أموال وبنين وغيرها!! فذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه ولكنه استحى أن يعرض كلام الرجل على ربه ولما أراد الرجوع قال الله تبارك وتعالى له: يا موسى إن عبدي ينتظر قدومك، فقال موسى عليه السلام: إلهي أهذا عبدك وأنت تعلم ما قال؟ فقال: نعم هذا عبدي، أبلغه سلامي ثم قل له أنت تقول أنك تعصي الله ومع ذلك تملك كل شيء ولم يسلب الله منك شيئا!! عبدي، أنت لا تعلم أني سلبت من قلبك وروحك أعظم لذة وأكبر سعادة وهي لذة العبادة والصلاة وحلاوة المناجاة[٣١]!

فمن عمل لنفسه وكله الله إلى نفسه ومن عمل للناس وكله الله إلى الناس ومن عمل للشيطان وكله الله إلى الشيطان الذي ما أن يحصل على غرضه منه وهو الضلال والهلاك تركه وشمت به وتبرأ منه أي أن كل من عمل لغير الله يكله الله إلى من عمل له وأما من عمل لله سبحانه وتعاليووثق به عصمه ولم يكله إلى غيره وأخذ بيده إلى الصراط المستقيم.

ربِّ جَلِّلْني بِستْرِك واعْفُ عن تَوبيخي بكَرَمِ وَجْهِكَ فَلَو اطَّلَعَ اليومَ على ذنبي غيرُكَ ما فَعَلْتُه ولَو خِفْتُ تعجيلَ العُقوبَةِ لاجْتَنَبْتُهُ لا لأنَّكَ أهْوَنُ الناظرينَ إلَيَّ وأخَفُّ المُطَّلِعينَ عَلَيَّ بَلْ لأنَّكَ يا رَبِّ خَيْرُ السَاتِرينَ وأحْلَمُ الأحْلَمينَ وأكْرَمُ الأكْرَمينَ فَلَكَ الحَمْدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ وعَلَى عَفْوِكَ بَعْدَ قُدْرَتِكَ بِكَ وبمحمَّدٍ وآلِ محمَّدٍ صلى الله عليه وآله فاسْتَنْقِذْني يا مُحْسِنُ يا مُجْمِلُ يا مُفْضِلُ يا مُنْعِمُ أنتَ المُحْسِنُ ونحنُ المُسيئونَ فتجاوَزْ يا رَبِّ عَنْ قَبيحِ ما عِندَنا بجَميلِ ما عِندَكَ يا أرْحَمَ الراحِمينَ[٣٢].

الهوامش

(١) سورة البروج: آية ٩

(٢) سورة فصلت: آية ٤٠

(٣) سورة البقرة: آية ٢٨٤

(٤) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٢٦ وتمام الرواية كالتالي: رُوِي أن الحسينَ بنَ عليٍّ (ع) جاءه رجلٌ وقالَ: أنا رجلٌ عاصٍ ولا أصبرُ عن المعصيةِ فعِظْني بموعظةٍ، فقال (ع): «افْعَلْ خمسَةَ أشياءٍ وأذْنِبْ ما شِئْتَ فأوَّلُ ذلك لا تأكُلْ رِزْقَ الله وأذْنِبْ ما شِئْتَ والثاني اخْرُجْ مِنْ ولايَةِ الله وأذْنِبْ ما شِئْتَ والثالثُ اطْلُبْ مَوْضِعاً لا يَراكَ اللهُ وأذْنِبْ ما شِئْتَ والرابعُ إذا جاءَ مَلَكُ الموتِ ليقبِضَ روحَكَ فادْفَعْهُ عَنْ نَفْسِكَ وأذْنِبْ ما شِئْتَ والخامِسُ إذا أدْخَلَكَ مالِكٌ في النارِ فلا تَدْخُلْ في النارِ وأذْنِبْ ما شِئْتَ».

(٥) سورة النساء: آية ٤١

(٦) سورة الأحزاب: آية ٤٥

(٧) أصول الكافي: ج ١ ص ٢١٩

(٨) أصول الكافي: ج ١ ص ٢١٩ والآية ١٠٥ من سورة التوبة

(٩) أصول الكافي: ج ٨ ص ٢٥٤، بحار الأنوار: ج٢٣ ص٣٤٩ (مع اختلاف يسير) والآية٣٣ من سورة الأنفال.

(١٠) أصول الكافي: ج ١ ص ١٩٠، والآية ١٤٣ من سورة البقرة

(١١) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٣٤٧ والآية ١٠٥ من سورة التوبة

(١٢) ولا تقتصر الشهادة يوم القيامة على الشهود من الناس فقد يكون الشهود من الملائكة كما في قوله تعالى: ﴿وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ – سورة ق آية ٢١، وكذلك الكتاب والأعضاء والجوارح والقلب والزمان والمكان كما قال الإمام الصادق (ع): «ما مِنْ يوم يَأتي عَلَى ابْنِ آدَمَ إلاَّ قالَ له ذلك اليومُ يا ابْنَ آدَمَ أنا يومٌ جَديدٌ وأنا عَلَيْكَ شهيدٌ فَقُلْ فيَّ خَيْراً واعْمَلْ فيَّ خَيْراً أشْهَدْ لَكَ بِهِ يَومَ القِيامَةِ فإنَّكَ لَنْ تَراني بَعْدَها أبَداً» – الكافي ج ٢ ص ٥٢٣.

(١٣) سورة التوبة: آية ١٠٥

(١٤) سورة ق: آية ٢٢

(١٥) سورة ق: آية ٢٩

(١٦) سورة العلق: آية ١٤

(١٧) سورة الأحزاب: آية ٥٢

(١٨) سورة غافر: آية ١٨

(١٩) أمالي الشيخ الطوسي: ج ١ ص ٣٤، ص ١٠٩، بحار الأنوار: ج ٧٧ ص ١٨٣

(٢٠) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٢٦٥

(٢١) بحار الأنوار: ج ٥٩ ص ٢٦٠، وورد أيضا بهذا المضمون: «اعْبُدِ اللهَ كَأَنَّكَ تَراه فَإِنْ كُنْتَ لا تَراهُ فإنَّه يَراكَ» - نهج الفصاحة: ص٦٥، ورواه أحمد في المسند: ج٢ ص١٣٢، حلية الأولياء: ج٨ ص٢٠٢، كنز العمال: ج٣ ص٢١ ح٥٢٥٠

(٢٢) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٤٤ نقلا عن توحيد الشيخ الصدوق، وورد في شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ٦٤ بهذا النحو: «أفَأَعْبُدُ ما لا أرَى»!!

(٢٣) أصول الكافي: ج ٢ ص ٦٧، بحار الأنوار: ج ٥ ص ٣٢٣ نقلا عن ثواب الأعمال ورجال الكشي مع اختلاف يسير في اللفظ.

(٢٤) سورة الأعراف: آية ١٨٢

(٢٥) بحار الأنوار: ج ٦٧ ص ١٩٨

(٢٦) أصول الكافي: ج ٢ ص ٤٥٢

(٢٧) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٣١٢

(٢٨) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٥٧ نقلا عن قصص الأنبياء

(٢٩) وهي من أدعية رسول الله ﷺ، فقد روي أنه ﷺ كان في بيت أم سلمة في ليلتها ففقدته من الفراش فقامت تطلبه في جوانب البيت حتى انتهت إليه وهو في جانب من البيت رافع يديه يبكي ويدعو، إلى أن قال: «.... ولا تَكِلْني إلى نَفْسي طَرْفَةَ عَيْنٍ أبَداً» فانصرفت أم سلمة تبكي فقال لها: ما يبكيك يا أم سلمة؟! فقالت: بأبي أنت وأمي يا رسول الله ولِمَ لا أبكي وأنت بالمكان الذي أنت به من الله قد غفر الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر.... إلى أن قالت: تسأله أن لا يكلك إلى نفسك طرفة عين أبدا!! فقال ﷺ: يا أم سلمة وما يؤمنني!! وإنما وُكِّل يونس بن متى إلى نفسه طرفة عين وكان منه ما كان - بحار الأنوار: ج ١٦ ص ٢١٧

(٣٠) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣٢٥

(٣١) قال الباقر عليه السلام: «إنَّ لله عقوباتٍ في القلوبِ والأبدانِ ضَنْكٌ في المعيشةِ ووَهْنٌ في العِبادةِ وما ضُرِبَ عَبْدٌ بعقوبةٍ أعْظَمُ من قَسْوَةِ القَلْبِ» - بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٧٦

(٣٢) من دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي

المنزل (١٢)

مُخُّ العِبادَةِ عِنْدَ المُحِب

لكل شيء قِوام تنتظم عليه أموره، وكما أن قِوام المرء عقله ومخه كذلك العبادة قوامه مخه، ولكن ما هو مخ العبادة؟!

يقول النبي صلى الله عليه وآله: «الدُّعاءُ مُخُّ العِبادَةِ»[١]!! فالعبادة لا تقوم إلا بالدعاء بل يمكن القول أن الدعاء هو عين العبادة كما صرح النبي صلى الله عليه وآله أن أفضل عبادة أمته بعد قراءة القرآن الدعاء[٢] ثم قرأ الآية المباركة: ﴿وَقالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذينَ يَسْتَكْبِرونَ عَنْ عِبادَتي سَيَدْخُلونَ جَهَنَّمَ داخِرينَ﴾[٣]، فالله سبحانه وتعالى سمَّى الدعاء عبادة وتَرْكَه استكبارا!!

وبالدعاء يُظهر العبد مسكنته وفقره وفاقته وذل عبوديته لرب الأرباب، فالله جل شأنه غني حميد وجواد كريم له خزائن السماوات والأرض ومع علمه بما يريد عبده إذا دعاه إلا أنه سبحانه يحب أن يُسأل ويُطلب ﴿قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعاؤُكُمْ....﴾[٤]، والدعاء وسيلة القرب إلى الله والارتباط به سبحانه، فعن صادق آل محمَّد عليه السلام أنه قال: «عَلَيْكُمْ بِالدُّعاءِ فَإِنَّهُ لا تُقَرَّبونَ بِمِثْلِهِ»[٥]، وقال أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: «عَلَيْكُمْ بِالدُّعاءِ فَإِنَّ الدُّعاءَ لله والطَلَبَ إلى الله يَرُدُّ البَلاءَ وقَدْ قُدِّرَ وقُضِيَ ولَمْ يَبْقَ إلا إِمْضاؤه فإذا دُعِيَ عَزَّ وجَلَّ وسُئِلَ صَرْفَ البَلاءِ صَرَفَهُ»[٦]، ولا يمنع الإيمان بالقضاء والقدر المَبالغة في الدعاء والاجتهاد فيه، وكما أن الله سبحانه وتعالى فتح لعباده باب الدعاء فقد فتح لهم بالمقابل باب الاستجابة كما في قوله ووعده: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾!!

وللدعاء مراتب فدعاء العامة بالأقوال (أي باللسان دون القلب) ودعاء العابد بالأفعال

(أي بالمراقبة في الأفعال) ودعاء العارف بالأحوال (أي أنه سائل ربه بذاته ووجوده وهي أتم أنواع الدعاء).

وأما شرائط الدعاء وآدابه مع الله سبحانه وتعالى فهي كالتالي:

١ - حضور القلب: وهو كمال توجه القلب في الدعاء والمناجاة إلى الحق سبحانه وتعالى لنيل أعلى مراتب القرب إلى الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «اعْلَمُوا أنَّ اللهَ لا يَسْتَجيبُ دُعاءَ مَنْ قَلْبُهُ لاهٍ»[٧]، فكفاية لقلقة اللسان وانصراف القلب في الدعاء إلى ما سوى الله محض سوء الأدب ومن أساء الأدب إلى رب العالمين فقد ضل الطريق وشق عليه الوصول إليه سبحانه وتعالى ولم يزدد من الله إلا بعدا، وقد كان سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه يقول أن الإنسان بين حالتي السكوت والدعاء فإن وجد في قلبه الحال والتوجه والخشوع فليدع ربه وإلا فالسكوت أولى.

٢ - طهارة الباطن وصفاؤه: وحفظ القلب من الآثام والخطرات بالمراقبة لعلام الغيوب والخفيات، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام: «خَيْرُ الدُّعاءِ ما صَدَرَ عَنْ صَدْرٍ نَقِيٍّ وقَلْبٍ تَقِيٍّ»[٨]

٣ - الاضطرار: وهو أفضل حالات الدعاء وأقربها للإجابة، فهو القائل سبحانه: ﴿أمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ....﴾[٩].

يحكى أن امرأة اتجهت إلى أحد العرفاء وقالت له: يا عبدالله، لقد ضاع ولدي ولا أعرف أين هو الآن فادع الله أن يرجع لي ولدي، فقال العارف: ارجعي واصبري، فرجعت إلى بيتها وبعد ساعات قليلة ذهبت إلى العارف ثانية وقالت له: يا عبدالله لم يرجع ولدي ادع الله أن يرجع لي ولدي، فقال العارف: ارجعي واصبري، فرجعت إلى بيتها ولكنها لم تلبث أن عادت إلى العارف مرة ثالثة وهي باكية مضطربة وقالت له: لم يرجع ولدي، فهل لك أن تدعو الله لكي يرجع ولدي؟ فقال العارف: ارجعي إلى بيتك الآن وإن شاء الله ستجدين ابنك هناك!! فرجعت المرأة ووجدت ابنها في البيت وفرحت بذلك كثيرا ثم ذهبت إلى العارف وشكرته على ذلك ثم قالت له: كيف عرفت في المرة الثالثة أن ابني رجع إلى البيت؟! فقال العارف: في المرة الثالثة كان حالك حال المضطرين ولولا الاضطرار لما استجيبت دعوتك، أما قرأت هذه الآية المباركة: ﴿أمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إذا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾!!

٤ - اليقين بإجابة الدعاء: فقد قال رسول الله ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وأنْتُمْ موقنونَ بالإجابَةِ»[١٠]!! وقال ﷺ أيضا: «ما مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعو اللهَ بِدُعاءٍ إلا يَسْتَجيبُ له فإمَّا أن يُعَجَّلَ في الدُّنْيا وإمَّا أن يُدَّخَرَ لِلآخِرَةِ وإمَّا أنْ يُكَفَّرَ مِن ذنوبِهِ»[١١]!!

٥ - الإلحاح: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُلِحِّينَ في الدُّعاءِ»[١٢]، واعلم أيها السالك أن الله سبحانه وتعالى يحب أن يسمع صوت السائلين الداعين له فهو القائل عزَّ وجلَّ: «وعِزَّتي وجَلالي وعَظَمَتي وبَهائي إنّي لأحْمِي ولِيّي أنْ أعْطِيَهُ في دارِ الدُّنيا شيئاً يشْغَلُهُ عَن ذِكري حتَّى يَدْعوني فأسْمَعَ صَوتَهُ وإنّي لأعْطي الكافِرَ مُنْيَتَهُ حتَّى لا يَدْعوني فأسْمَعَ صَوتَهُ بُغْضاً لَه»[١٣]!!

٦ - الرضا: بما يقضيه الله سبحانه وتعالى من الحكم والقضاء لما فيه المصلحة.

٧ - الصدق: فكان مما أوحى الله سبحانه إلى موسى عليه السلام: «ادْعُني بالقَلْبِ النَّقِيِّ واللِّسانِ الصادِقِ»[١٤]!!

٨ - الخضوع والخشوع والذلة: بأن يشعر العبد بأنه مصداق كامل لقول الله تعالى: ﴿.... أنتُمُ الْفُقَراءُ إلَى اللهِ....﴾[١٥]، وعن الحسين بن علي عليه السلام قال: «كانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرْفَعُ يَدَيْهِ إذا ابْتَهَلَ وَدَعا كما يُسْتَطْعَمُ المِسْكينُ»[١٦]!!

٩ - الرجاء بالله وحده: وهو أن يتيقن السالك بأن الله سبحانه وتعالى هو مسبب الأسباب ولا مؤثر في الوجود إلا هو وأن الرازقية من صفاته وحده لا يشاركه فيها أحد فلا يدعو غيره ولا يتذلل لسواه كما قال الصادق عليه السلام: «إذا أرادَ أحَدُكُمْ أن لا يَسْألَ رَبَّهُ شيئاً إلا أعْطاهُ فَلْيَيْأسْ مِنَ الناسِ كُلِّهِمْ ولا يكونُ لَهُ رَجاءٌ إلا مِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ فإنَّه إذا عَلِمَ اللهُ ذلك مِنْ قَلْبِهِ لَمْ يَسْألْ اللهَ شيئاً إلا أعْطاهُ»[١٧]!! ويكونَ على يقين بأن الله سبحانه وتعالى إذا رأى أن في قضاء حاجته مصلحة يقضيها له وإذا لم تكن فيه المصلحة لا تُقضى وهو الرزاق الحكيم والقادر على كل شيء.

١٠ - ذكر أسماء الله عزَّ وجلَّ في الدعاء: فمن الأدب أن يدعو العبد ربه بأسمائه التي سمَّى بها نفسه وقال: ﴿وَللهِ الأسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا....﴾[١٨]!! وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «إذا طَلَبَ أحَدُكُمْ الحاجَةَ فلْيُثْنِ على ربِّه ولْيَمْدَحْهُ فإنَّ الرجُلَ إذا طَلَبَ الحاجةَ مِنَ السلطانِ هيَّأ لَه مِنَ الكَلامِ أحْسَنَ ما يَقْدِرُ عليه فإذا طَلَبْتُمْ الحاجَةَ فمَجِّدوا اللهَ العزيزَ الجبَّارَ وامْدَحوهُ وأثْنوا عَلَيه»[١٩]!!

١١ - المعرفة: فقد قيل للإمام الصادق عليه السلام: ما بالنا ندعو فلا يستجاب لنا؟! فقال الإمام عليه السلام: «لأنَّكُمْ تَدْعونَ مَنْ لا تَعْرِفونَهُ»[٢٠]، وعلى قدر معرفة الله ومعرفة صفاته يحصل حضور القلب وسائر الشرائط الأخرى.

١٢ - ومن آداب الدعاء أن لا يطلب العبد من مولاه سوى مولاه وهذه مرتبة العارفين المحبين

الأحرار، قال الإمام الصادقعليه السلام: «العُبَّاد ثلاثة: قومٌ عَبَدوا الله خَوفاً فتِلْك عِبادَةُ العَبيدِ وقومٌ عَبَدوا اللهَ طَمَعاً فتلك عِبادَةُ الأجَراءِ وقومٌ عَبَدوا اللهَ حُبَّا فتلك عِبادَةُ الأحْرارِ وهي أفْضَلُ العِبادَةِ»[٢١]!! وقد أوصى كثير من مشايخ العرفان على دعاء السحر للإمام الباقرعليه السلام الذي يبدأ بـ«اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ مِنْ بَهائِكَ بأبْهاهُ وكُلُّ بَهائِكَ بَهِيٌّ اللَّهُمَّ إنِّي أسْألُكَ بِبَهائِكَ كُلِّهِ....» وهو دعاء يخلو عن كل مظهر دنيوي ونعيم أخروي ومشتهى نفسي ويقتصر على ذكر أسماء الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه.

فانظر أيها السالك إلى الله إلى حياة العارفين الواصلين الذين اتصفوا بالكمالات الروحية والنفسية كيف كانوا يدعون الله رقّا وعبودية سرا وعلانية ولم يروا في دعائهم إلا الله عزَّ وجلَّ ومع شدة تواضعهم لخلق الله ومداراتهم لهم إلا أنهم لم يخضعوا لأي منهم وإن كانوا ملوكا وسلاطين، فهم كما وصفهم مولانا أمير المؤمنينعليه السلام: «عَظُمَ الخالِقُ في أنفُسِهِمْ فَصَغُرَ ما دونَهُ في أعْيُنِهِمْ»[٢٢] كما كان عليه سيدنا الأستاذ العلاّمةرضي الله عنه من جمال التواضع في هيئته والخضوع لله في نفسه، فنالوا من النوالات ما نالوا ووصلوا إلى الأعالي ما وصلوا، فطوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء.

عن ابن مسكان عن أبي عبدالله عن أبيه عن علي بن الحسين عليهم السلام قال: مر موسى بن عمران على نبينا وآله وعليه السلام برجل وهو رافع يده إلى السماء يدعو الله فانطلق في حاجته فغاب سبعة أيام ثم رجع إليه وهو رافع يده إلى السماء فقال: يا رب هذا عبدك رافع يديه إليك يسألك حاجته ويسألك المغفرة منذ سبعة أيام لا تستجيب له!! قال: فأوحى الله إليه يا موسى لو دعاني حتى تسقط يداه أو تنقطع يداه أو ينقطع لسانه ما استجبت له حتى يأتيني من الباب الذي أمرته [٢٣]!!

أيها السالك إلى الله، لو اتبعت شرائط الدعاء لله سبحانه وتعالى وآدابه لوجدت أن الدعاء لا يخلو من الشواهد والآثار الروحية والنفسية التي ينشدها كل مؤمن سالك إلى الله عزَّ وجلَّ، ومن جملة هذه الآثار ما يلي:

الأثر الأول: حينما يتحد القلب واللسان في الدعاء إلى الله ويكون خالصا لله سبحانه وتعالى يشعر السالك أن العالم كله محضر الله وأنه في مشهد الله وضيافته فيشعر بالاطمئنان والراحة.

الأثر الثاني: أن الدعاء ينهى عن الفحشاء والمنكر كما هو الحال في الصلاة لأن الصلاة مناجاة مع الرب [٢٤] ووسيلة لذكر القلب [٢٥] ومَن توحَّد ظاهر صلاته بباطنها فقد وصل إلى حقيقة آثار الصلاة وهي الابتعاد عن الفواحش والمنكرات وكذلك الدعاء.

الأثر الثالث: لكل عبد ضالة لا يزال يطلبها، والإنسان حينما يصل إلى مقام الدعاء عند العارفين

فقد وجد ضالته ووصل إلى مخ العبادة فيشعر بالارتياح.

الأثر الرابع: الخلاص من الهموم والغموم والاضطرابات النفسية والروحية السابقة وعدم التأثر بالعُقَد اللاحقة، فلِمَ الخوف والحسرة والتأسف وهو يعلم أن الله سبحانه وتعالى دائم في ملكه ومن كان رازقا بالأمس فهو رازق في المستقبل!!

الأثر الخامس: حينما يدعو الإنسان بأسماء الله الحسنى وصفاته العلا ويجعلها جنبا إلى جنب كقوله مثلا: «يا عَلِيُّ يا عَظيمُ يا غَفورُ يا رَحيمُ أنتَ الرَّبُّ العَظيمُ الَّذي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شيْءٌ وهُوَ السَّميعُ البَصيرُ» أو أمثالها ويلتزم بها تدخل في قلبه روح تلك الأسماء والصفات كالقدرة والشجاعة والرحمة الخاصة، وكلما تقرب إليها تجلت له حقائق تلك الأسماء أكثر فأكثر حتى يصبح مظهرا لأسماء الله وصفاته.

ويقول العرفاء أن الدعاء لسان الاشتياق ورسالة المشتاقين، وكان سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه يقول: أما سمعتم أو رأيتم كيف يكتب العاشق رسالة حب إلى معشوقه!! كذلك المشتاق إلى زيارة جمال رب العالمين يراسل ربه بالدعاء، فالدعاء رسالة السالك العاشق المشتاق إلى سيده ومولاه ومعشوقه الحقيقي الأزلي وهو ذات الله سبحانه وتعالى.

وأما رسالة العاشقين المشتاقين في عصر الغيبة إلى مخ عالم الوجود ووسيلة الارتباط بالله سبحانه وتعالى الحجة بن الحسن المهدي (عج) فهي دعاء الفرج: «اللَّهُمَّ كُنْ لِوَلِيِّكَ الحُجَّةِ بْنِ الحَسَنِ المَهْدِيِّ صَلَواتُكَ عَلَيْهِ وعَلَى آبائِهِ الطَّاهِرينَ في هَذِهِ الساعَةِ وفي كُلِّ ساعَةٍ مِنْ ساعاتِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وَلِيًّا وحافِظاً وقائِداً وناصِراً ودليلاً وعَيْناً حَتَّى تُسْكِنَهُ أرْضَكَ طَوْعاً وتُمَتِّعَهُ فيها طَويلاً».

يا حجة الله!! يا صاحب الزمان!! أنت الرابط الحقيقي بيننا وبين الله وأنت الوجيه عند الله سَل الله بحقك أن يفتح في قلوبنا أبواب معرفته ومعرفة نبيه ومعرفة وليه وحجته!!

اللَّهم فكما كان من شأنك إلهامي الدعاء فلْيكن من شأنك الاستجابة فيما دعوتُك له والنجاة فيما فزعت إليك منه، اللَّهم إن لا أكنْ أهلاً أن أبلغ رحمتك فإن رحمتك أهلٌ أن تبلغني لأنها وسعت كلَّ شيء وأنا شيء فلْتسعني رحمتك، يا مَن لا تزيده كثرةُ العطاء إلا جودا وكرما أسألك بوجهك الكريم أن تصلِّي على محمَّد وآل محمَّد وارزقني حبَّك وحبَّ كل من أحبَّك وحبَّ كل عمل يقربني إلى حبِّك ومُنَّ عليَّ بالتوكُّل عليك والتفويض إليك والرضا بقضائك والتسليم لأمرك حتى لا أحبَّ تعجيل ما أخَّرت ولا تأخير ما عجَّلت برحمتك يا أرحم الراحمين.

الهوامش

(١) مستدرك الوسائل: ج ٥ ص ١٦٧

(٢) ورد في بعض الروايات أن الدعاء أفضل العبادات، فقد سئل الباقر عليه السلام: أي العبادة أفضل؟! فقال عليه السلام: «ما مِنْ شيءٍ أحَبُّ إلى الله مِنْ أنْ يُسْأَلَ ويُطْلَبَ ما عِنْدَه وما أحَدٌ أبْغَضُ إلى الله عَزَّ وجَلَّ مِمَّنْ يَسْتَكْبِرُ عَنْ عِبادَتِهِ ولا يَسْأَلُ ما عِنْدَه»!! وروي عن العالم عليه السلام أنه قال: «الدعاءُ أفْضَلُ مِنْ قِراءةِ القُرآنِ لأنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ قالَ: ﴿قُلْ ما يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لولا دُعاؤُكُمْ﴾!! الروايتان نقلا عن مكارم الأخلاق والآية ٧٧ من سورة الفرقان.

(٣) سورة غافر: آية ٦٠

(٤) سورة الفرقان: آية ٧٧

(٥) أصول الكافي: ج ٢ ص ٤٦٧

(٦) أصول الكافي: ج ٢ ص ٤٧٠

(٧) بحار الأنوار: ج٩٣ ص٣١٢ نقلا عن دعوات الراوندي، وعن سليمان بن عمرو قال سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول: «إنَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ لا يَسْتَجيبُ دُعاءً بظَهْرِ قَلْبٍ ساهٍ فإذا دَعَوْتَ فأقْبِلْ بقَلْبِكَ ثمَّ اسْتَيْقِنْ بالإجابَةِ» - أصول الكافي: ج٢ ص٤٧٣

(٨) أصول الكافي: ج ٢ ص ص ٤٦٨

(٩) سورة النمل: آية ٦٢

(١٠) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣١٢

(١١) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧٨

(١٢) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧٨

(١٣) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٧١

(١٤) أصول الكافي: ج ٨ ص ٤٨

(١٥) سورة فاطر: آية ١٥

(١٦) وسائل الشيعة: ج ٧ ص ٤٦

(١٧) مستدرك الوسائل: ج ٥ ص ٢٦٧

(١٨) سورة الأعراف: آية ١٨٠

(١٩) أصول الكافي: ج ٢ ص ٤٨٥

(٢٠) بحار الأنوار: ج ٩٣ ص ٣٦٨ نقلا عن توحيد الشيخ الصدوق

(٢١) أصول الكافي: ج ٢ ص ٨٤

(٢٢) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج١٠ ص١٣٣ وهي من خطبة المتقين لمولانا أمير المؤمنين عليه السلام

(٢٣) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٦٣

(٢٤) كما في قول رسول الله ﷺ: «الـمُـصَـلِّـي يُـنـاجـي رَبَّـهُ» - نقلا عن مصباح الشريعة

(٢٥) كما في قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ - سورة طه: آية ١٥

المنزل (١٣)

بدايَةُ السَّفَرِ عِنْدَ المُحِب

جاء في حديث قدسي: «عَبْدي!! خَلَقْتُ الأشْياءَ لأجْلِكَ....»[١]!!

عبارة صريحة من الله تبارك وتعالى إلى عبده أن الحق جل جلاله خلق الأشياء من العدم لأجل الإنسان، ولكن سؤال يطرح نفسه: إذا كان هدف الله في خلق الأشياء والغاية في إيجادها هو الإنسان وجعل الإنسان أشرف مخلوقاته وأبدع صنائعه من حيث النوع وسخر له جميع ما خلق في فسيح هذا الكون فما هدفه في خلق الإنسان نفسه؟!

يأتي الجواب على هذا السؤال في ذيل الحديث حيث يقول الله جل ثناؤه وعظم شأنه: «وخَلَقْتُكَ لأجْلي»!!

أيها السالك إلى الله!! أعط قلبك (لا عينيك) مجالا في النظر بدقة في إشراق هذا المقطع النوراني من الحديث القدسي وكله نور بأن الله جلَّت عظمته الذي منح الإنسان الشرف والمقام بأن يكون هدفا غائيا لخلق سائر مخلوقاته جعل ذاته المتعالية اللامتناهية غايةً لخلقه، وهذه حقيقة لابد أن تعرفها تمام المعرفة لكي تتبع السبل التي شرعها الله عزَّ وجلَّ عبر كتابه المنير وبعثة رسوله الأمينصلى الله عليه وآله وسلم وتبذل الجهد للوصول إلى هذه الغاية.

وإذا تأملنا في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإنسَ إلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[٢] وقوله في حديث قدسي: «كُنْتُ كَنْزاً مَخْفِيًّا فَأَحْبَبْتُ أنْ أُعْرَفَ فَخَلَقْتُ الخَلْقَ لِكَيْ أُعْرَفَ»[٣] لخرجنا بهذه الحقيقة العرفانية أن المراد من كلمة «لِيَعْبُدونِ» هو «ليعرفون»، فالعبادة الحقيقية لله سبحانه وتعالى ليست إلا معرفته كما قال سيد المُوَحدين وقطب العارفين مولانا أمير المؤمنينعليه السلام: «أوَّلُ الدِّينِ مَعْرِفَتُهُ»[٤] وهي الغاية التي بُعث عليها الأنبياء للوصول إلى التوحيد الخالص لله رب العالمين، ولا

تُـنال هذه المعرفة إلا بتجرد القلب والروح من العلائق الدنيوية والمظاهر المادية والحركة نحو التكامل ونيل الدرجات العالية في الكمالات ومعراج الروح إلى عالم المجردات حتى يمكن الوصول في النهاية إلى رضوان الخالق وجنانه وكمال الأنس بلقائه فيكون روح العارف ونفسه مَجلَى تجليات صفات فعل الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه، وليس للعارف الواصل لذَّة تفوق لذَّة لقاء الله تبارك وتعالى.

يقول العرفاء أن الإنسان ناقص ويشتاق إلى الكمال ولجبران نقصه يتحرك إلى الكمال وبدون هذه الحركة والسير لا يمكن الوصول إلى الكمال، والسير إلى الله سبحانه ما هو إلا حركة شوقية باطنية تنشأ في روح الإنسان وقلبه تجاه الجمال الأزلي والكمال المطلق وهو ذات الله سبحانه وتعالى.

ويقولون أيضا أن السالك إلى الله لابد أن يكون في سير صعودي دائم ومعراج ارتقائي لانهائي، فكانت أكثر الآفات خطورة في حياة السالك هي التوقف عن السير، فالتوقف عن السير والميل إلى السكون والرضا بالحياة الدنيا والاطمئنان إليها ما هو إلا السقوط والبعد عن الهدف المقصود، وقد قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ اسْتَوَى يَوْمَاهُ فَهُوَ مَغْبُونٌ ومَنْ كَانَ آخِرُ يومِهِ شَرَّهُمَا فهُوَ مَلْعونٌ ومَنْ لَمْ يَعْرِفْ الزيادَةَ في نَفْسِهِ كانَ إلَى النُّقْصانِ أقْرَبُ ومَنْ كانَ إلى النُّقْصانِ أقْرَبُ فالمَوْتُ خَيْرٌ له مِنَ الحَياةِ»[٥]!!

وعلى هذا فالسير إلى الله عزَّ وجلَّ سير معنوي وباطني تُرفَع فيه الحجب والغواشي وتُطْوَى فيه مراحل ومقامات عديدة للوصول إلى لقائه عزَّ وجلَّ وهو يختلف عن السير المكاني والزماني الذي تُطْوَى فيه المسافات والأزمنة، فالله جلَّت عظمته قريب بعيد كما وصفه سيِّد الموحِّدين وأمير المتكلِّمين علي عليه السلام في دعائه بأفضل الأوصاف فقال: «يا مَنْ قَرُبَ مِنْ خَطَراتِ الظُّنونِ وبَعُدَ عَنْ لَحَظاتِ العُيونِ»[٦]!!

ثم أن معرفة الله سبحانه وتعالى تؤدي إلى معرفة حقائق العبادات وأسرارها، يقول الإمام الحسين عليه السلام: «إنَّ اللهَ والله ما خَلَقَ العِبادَ إلاَّ لِيَعْرِفوهُ فإذا عَرَفوهُ عَبَدوهُ فإذا عَبَدوهُ اسْتَغْنَوا بعِبادَتِهِ عَنْ عِبادَةِ مَنْ سِواهُ»[٧]!! ومع معرفة الأسرار والحقائق تتجافَى أرواح السائرين إلى الله عن مضاجعها وتسافر إلى ما وراء المادة وتطرق أبواب العوالم الأخرى التي لا يمكن أن يصل إليها من جهل بربه وأخلد إلى الأرض واتَّبع هواه وتشبَّث بتراب هذا العالم الدنيء.

وأما المدخل إلى معرفة الله فهو معرفة النفس، فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»[٨]، أي من عرف نفسه بالعبودية المطلقة لله سبحانه وتعالى

فقد عرف ربه بالربوبية و «مَنْ عَجِزَ عَنْ مَعْرِفَةِ نَفْسِهِ فهُوَ عَنْ مَعْرِفَةِ رَبِّهِ أعْجَزُ»[٩]، ومعرفة النفس من وظائف القلب لا العقل فالقلب هو المسؤول الأول والأخير في معرفة النفس ولا يمكن الخوض في المعارف الإلهية للوصول إلى معرفة الله عزَّ وجلَّ إلا عن طريق القلب، ويتبين ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا....﴾[١٠]!! ثم يبين الله عزَّ وجلَّ أن موضع الجهل والغفلة هو القلب أيضا كما في قوله: ﴿....فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١١]!!

وفي هذا المقام نشير إلى جملة من الشرائط والمعدات التي لابد للسالك إلى الله من تهيئتها واستكمالها والموانع التي لابد من رفعها للدخول في طريق السفر إلى الله عزَّ وجلَّ:

أولا: توجه القلب وقصد السفر إلى الحق تبارك وتعالى وهو المنطلق الأساسي والملاك الحقيقي في السفر إليه، فالحق تبارك وتعالى لم يجعل بينه وبين عباده أي حجاب كما قال الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: «مَتَى غِبْتَ حَتَّى تَحْتَاجَ إلى دَلِيلٍ»!! بل إن العبد هو الذي صنع الحجب والموانع بينه وبين ربه، وأول حجاب هو حجاب النفس، وكما قال الشاعر الفارسي الحافظ الشيرازي:

ميان عاشق ومعشوق هيج حايل نيست
تو خود حجاب خودي حافظ از ميان برخيز

(أي يخاطب نفسه ويقول: ليس بين العاشق والمعشوق أي حائل وحجاب بل نفسك هي الحجاب فقُم وتجاوز هذا الحجاب وارفع نفسك الحائلة بينك وبين معشوقك!!)

وكذلك قيل:

بَيْنِي وبَيْنَكَ إنِّيي يُنَازِعُنِي
فَارْفَعْ بلُطْفِكَ إنِّيي مِنَ البَيْنِ

قال الشيخ الرئيس في بعض رسائله:

«الخير الأوَّل بذاته ظاهر متَجَلٍّ لجميع الموجودات ولو كان ذلك في ذاته تأثيرا لغيره وجب أن يكون في ذاته المتعالية قبول تأثير الغير وذلك خُلْف بل ذاته بذاته متَجَلٍّ ولأجل قصور بعضِ الذوات عن قبول تجلّيه محتجب فبالحقيقة لا حجاب إلا في المحجوبين والحجاب هو القصور والضعف والنقص وليس تجلّيه إلا حقيقة ذاته»[١٢]!!

ثانيا: التنبُّه من الغفلة بحضور مجالس الوعظ واتِّباع أولياء الله والاستماع إلى مواعظهم وإرشاداتهم ونصائحهم.

ثالثا: اتخاذ الشريعة سبيلا لإدراك الحقائق العرفانية والأسرار الإلهية الغيبية وذلك باتباع ولاية خاتم النبيين ﷺ وسيد الوصيين عليه السلام، وكما قال الشيخ البهائي (قده)[١٣]: «إن من سمات العارفين وصفات الأولياء الكاملين إتعاب النفس في العبادة بصيام النهار وقيام الليل وهذه الصفة ربما توهَّم بعض الناس استغناء العارف عنها وعدم حاجته إليها بعد الوصول وهو وهْم باطل إذ لو استغنى عنها أحد لاستغنى عنها سيد المرسلين وأشرف الواصلين وكان ﷺ يقوم في الصلاة إلى أن تورمت قدماه وكان أمير المؤمنين عليه السلام الذي إليه ينتهي سلسلة أهل العرفان يصلِّي كل ليلة ألف ركعة وهكذا شأن جميع الأولياء والعارفين».

رضوان الله تعالى على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان يقول: أن العارف يخجل من نفسه حينما ترفع صلاته إلى صلاة رسول الله ﷺ أو صلاة أمير المؤمنين عليه السلام أو صلاة الصديقة فاطمة الزهراء عليها السلام فيراها معيوبة ناقصة ذابلة، هنالك يقول من شدة خجلته ليت أمي لم تلدني!!

ولهذا كان يوم القيامة يوم الحسرة والندامة للسعيد والشقيِّ على السواء، فيقول السعيد: «يا ويلتَى ليتني زدت» ويقول الشقيُّ: «يا حسرتَى على ما فرَّطت»!!

رابعا: كما أن للجوارح والأعضاء فِقْهٌ فللنفس والقلب والروح أيضا فِقْهٌ خاص بها بل أكثر من الأولى فضلا وشرافة، فعلى السالك أن يدخل عالم المجاهدة ويلجم نفسه عن مخالفة أوامر الله وارتكاب نواهيه ويجتنب مرافقة أولياء الشيطان واتباع ملاعب النفس وأهوائها وعلائق الدنيا وحبائلها، فالذنب والمعصية تصنعان غلافا وصدأ على القلب مما يحول المرء عن إدراك الحق وتمييزه عن الباطل، وإذا انحرفت النفس عن جادة الصواب فهي كالمركوب الوحشي غير الملجم الذي يؤدي بصاحبه إلى التهلكة، ولذا يقول الإمام الصادق عليه السلام: «كُلُّ مُؤمِنٍ مُلْجَمٌ»[١٤]!!

وكذلك يلزم على السالك معرفة أحكام فقه النفس ومعرفة الفضائل والرذائل ومكائد الشيطان وسبل العلاج من آفات النفس وهذا ما يسمى بالمراقبة، وقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «العامِلُ عَلَى غَيْرِ بَصيرَةٍ كالسَّائرِ عَلَى غَيْرِ الطَّريقِ لا تَزيدُهُ سُرْعَةُ السَّيْرِ إلاَّ بُعْداً»[١٥]!!

خامسا: محاسبة النفس وتقييمها في كل يوم بل في كل لحظة كما في قوله تبارك وتعالى: ﴿يا أيُّها الَّذينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَدٍ....﴾[١٦]!! وكما قال سيد المرسلين ﷺ في حديثه الشريف: «حاسبوا أنفُسَكُمْ قَبْلَ أنْ تُحاسَبُوا وزِنُوها قَبْلَ أنْ توزَنُوا»[١٧]!! وقال الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «لَيْسَ مِنّا مَنْ لَمْ يُحاسِبْ نَفْسَهُ

كُلَّ يَوْمٍ فَإِنْ عَمِلَ حَسَناً اسْتَزادَ اللهَ وإنْ عَمِلَ سَيِّئاً اسْتَغْفَرَ اللهَ مِنهُ وتابَ إلَيهِ»[١٨]!! وذلك حتى يتسنى للعبد من تصفية نفسه من تبعات الذنوب والمعاصي ويتجهز ليوم قال الله تعالى فيه: ﴿وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وإن كَانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنا بِها وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[١٩]!!

سادسا: لما كانت أغلب النفوس مكدرة بوساوس الشيطان ومختلف الأوهام وكانت العقول عاجزة عن إدراك دقائق الحيل الشيطانية وغوائل المكائد الخفية وقاصرة في استنباط سبل علاج الأمراض النفسانية والروحية ومعرفة مصالحها ومفاسدها لذا كان من الصعوبة الحصول على هذا العلم نظريا قبل السير والسلوك عمليا فكان على السالك اتخاذ أحد أولياء الله العارفين والواصلين الكاملين مرشدا يرشده ويأخذ بيده إلى الصراط المستقيم ويوصله من حالة القوة والاستعداد المحض إلى الفعلية، فالوليُّ العالم بالله مَظهر من مظاهر تجليات رب العالمين ونور من أنواره وعارف بحقائق الأمور والنائب الحقيقي للأنبياء والأوصياء عليهم صلوات الله أجمعين، وقد صنَّف أمير المؤمنين عليه السلام الناس إلى ثلاثة: «عالِمٌ رَبّانِيٌّ ومُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجاةٍ وهَمَجٌ رُعاعٌ أَتْباعُ كُلِّ ناعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ لَمْ يَسْتَضِيئوا بِنُورِ العِلْمِ ولَمْ يَلْجَأُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ»[٢٠]!! فكان العالم الرباني هو الركن الوثيق الذي يلجأ إليه السالك إلى الله وإن كانت نفس السالك مائلة إلى الروحانية بأصل الفطرة من غير علم وبحث ودراية، ومن جملة الأدلة على لزوم متابعة السالك لإرشادات العالم الرباني والعارف الواصل في صراط المعرفة قول الإمام السجاد عليه السلام: «هَلَكَ مَنْ لَيْسَ لَهُ حَكِيمٌ يُرْشِدُهُ»[٢١]!!

وعلى كل حال فإن سفر السالك ليس إلا النفْر من سجن البدن والهجرة إلى الله سبحانه وتعالى، وقد يسافر السالك سفرا محدودا إلى الله من أذان الفجر إلى ذهاب الحمرة المشرقيَّة في حال الصيام (مثلا) ولكن متى يكون الوصول إلى الهدف؟!

في وقت الإفطار!!

فعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «إنَّ لِلصائِمِ فَرْحَتانِ فَرْحَةٌ عِنْدَ إفْطارِهِ....»[٢٢]، وهذه هي الفرحة الأولى للصائم بتغذية طبيعته بالغذاء المادي وتأتي في نهاية السفر المحدد زماناً.

وأما السفر غير المحدد فهو الذي يستمر من أول يوم التكليف الشرعي إلى يوم الأجل المحتوم «العبارات للعوام والإشارات للخواص»[٢٣] وهذا أيضا صيام ولكنه صيام القلب، فالقلب الذي وصفه الله تعالى بقوله: «وَسِعَنِي قَلْبُ عَبْدِي المُؤمِنِ»[٢٤] يكون صائما ما

لم يدخله شيء غير خالقه، أما إذا دخله ما سوى الله سبحانه وتعالى فقد أفطر في الزمان الذي لابد أن يكون فيه صائماً!! وكذلك صيام النفس لا بحبسه عن الذنوب والمعاصي والصبر عليها فحسب بل عن المكروهات والشبهات ومعاتبتها على قلة العبادة والذكر، وهذا صيام أخص الخواص من العباد الذين بلغوا المرقأة العليا في التوحيد الخالص لله عزَّ وجلَّ.

فمتى يكون الوصول إلى الهدف في صيام النفس والقلب؟!

يقول رسول الله ﷺ في تتمة حديثه الشريف: «.... وفَرْحَةٌ يومَ يَلْقَى رَبَّهُ»!! ولقاء الرب غذاء روحي حقيقي فيه البقاء بعد اللقاء والفناء، من هنا نعرف حقيقة قول الله عزَّ وجلَّ في حديث قدسي: «الصَّومُ لي وأنا أُجْزَى بِهِ»[٢٥]، أي أن جزاء الصوم الحقيقي هو الذات القدسية الإلهية، ومن البديهي أن معنى كون الله جلَ وعلا جزاء الصوم الحقيقي هو اتصاف الصائم بالصفات الربوبية ونيل مقام الخلافة الإلهية لا بمعنى أنه سبحانه شيء ينال كما تنال الأشياء الحسية المادية (والعياذ بالله).

كلنا نعرف – فقهيا – مفطرات صوم الظاهر ولكن ما هي مفطرات صوم الباطن؟!

كل عمل ينافي الكمال والسير إلى الله هو من المفطرات!! وعلى هذا لابد للسالك أن يحذر في سيره من الآفات والمهلكات والمفطرات حتى لا يبطل صيام نفسه فيسقط وتكون نفسه إلى النقصان أقرب منها إلى الزيادة (كما قال الإمام الصادق عليه السلام)!!

يقول السيد حيدر الآملي رضي الله عنه في باب أسرار الصوم نقلا عن بعض أهل المعرفة:

«وأما درجات أسرار الصوم فثلاثة: أدناها أن يقتصر على الكف عن المفطرات ولا يكف جوارحه عن المكاره وذلك صوم العموم وهو قناعة بالاسم، الثانية أن يضيف إليه كف الجوارح فيحفظ اللسان عن الغيبة والعين عن النظر بالريبة وكذا سائر الأعضاء وذلك صوم الخواص من أهل الله، وأما الثالثة فهو يضيف إليهما صيانة القلب عن الفكر والوساوس ويجعله مقصورا على ذكر الله تعالى ومشاهدته في مظاهره وذلك صوم خصوص الخصوص وهو الكمال المقصود بالذات»[٢٧]!!

روي أنه لما توفي أبو طالب عليه السلام اشتد البلاء على رسول الله ﷺ فعمد لثقيف بالطائف رجاء أن يؤووه، فوجد ثلاثة نفر منهم فعرض عليهم نفسه فرفضوه وقعدوا له صفين على طريقه، فلما مر رسول الله ﷺ بين صفيهم جعلوا لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوهما بالحجارة حتى أدموا رجليه، فخلص منهم وهما يسيلان دما، فعمد فجاء إلى حائط من حيطانهم فاستظل في ظل نخلة

منه وهو مكروب موجع تسيل رجلاه دما وقال: «اللَّهُمَّ إنِّي أشكو إلَيكَ ضَعْفَ قُوَّتي وقلَّةَ حيلَتي وهَواني عَلَى الناسِ» إلى أن قالﷺ: «إنْ لَمْ يَكُنْ بكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلا أبالِي!!»، فإذا في الحائط عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، فلما رآهما كرِه مكانهما لما يعلم من عداوتهما لله ورسوله، فلما رأياه أرسلا إليه غلاما لهما يدعى عدّاس معه عنب وهو نصراني من أهل نينوى، فلما جاءه قال له رسول اللهﷺ: من أي أرض أنت؟! قال: من أهل نينوى، قالﷺ: من مدينة العبد الصالح يونس بن متى!! فقال له عداس: وما يدريك من يونس بن متى؟! فقالﷺ: أنا رسول الله والله تعالى أخبرني خبر يونس بن متى، فلما أخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس (وهنا بدأ سفر النفس والروح في هذا العبد إلى الله) خرَّ عداس ساجدا لله ومعظما لرسول اللهﷺ وجعل يقبِّل قدميه وهما تسيلان الدماء، فلما بصر عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا فلما أتاهما قالا: ما شأنك سجدت لمحمَّد وقبَّلت قدميه ولم نرك فعلت ذلك بأحد منا!! قال: هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى فضحكا وقالا: لا يفتننك عن نصرانيتك فإنه رجل خدَّاع!! [٢٨]

إلهنا وسيدنا ومولانا!! بحقِّ من جعلتَه رحمةً للعالمين ونوراً للمؤمنين أخرِجنا من ظلمات الغفلة وهيِّء لنا أسباب السفر إليك وأدخل في قلوبنا نور محبتك ومحبة نبيك وآل نبيك ومعرفتك ومعرفة نبيك وآل نبيك واجعل في طريقنا مرشدا يدلنا وهاديا يهدينا، فإنك من لم تجعل له نورا فما له من نور!!

الهوامش

(١) إحقاق الحق: ج ١ ص ٣٤٠، علم اليقين (للفيض الكاشاني): ج ١ ص ٣٨١

(٢) سورة الذاريات: آية ٥٦

(٣) بحار الأنوار: ج ٨٧ ص ٣٤٤، كشف الأسرار: ج ٨ ص ٣٨٧

(٤) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٧٢

(٥) إرشاد القلوب: ج ١ ص ٨٧، عوالي اللآلئ: ج ١ ص ٢٨٤، تفسير كشف الأسرار: ج ٤ ص ٤٥٩، بحار الأنوار: ج ٧١ ص ١٧٣ نقلا عن أمالي الشيخ المفيد، والمغبون أي المخدوع

(٦) من دعاء الصباح لأمير المؤمنين عليه السلام

(٧) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٩٣

(٨) غرر الحكم ودرر الكلم (للآمدي): ج ٥ ص ١٩٤، بحار الأنوار: ج ٢ ص ٣٢

(٩) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٢٩٢

(١٠) سورة الحج: آية ٤٦

(١١) سورة الحج: آية ٤٦

(١٢) الأسفار: ج ١ ص ٤١٩

(١٣) أستاذ الحكماء بهاء الملة والدين العلامة محمد بن عزالدين حسين بن عبدالصمد بن محمد بن علي بن حسن بن محمد بن صالح الحارثي الهمداني، مشهور بـ«الشيخ البهائي» من أعلام فقهاء الإمامية وجامع العلوم العقلية والنقلية حاوي الآراء الفرعية والأصولية يرجع نسبه الشريف إلى حارث بن همدان وهو من خواص أمير المؤمنين عليه السلام، وتلامذته من فحول علماء الإمامية منهم الملا التستري - الملا خليل القزويني - الميرزا رفيع النائيني - الملا صدرا الشيرازي - المجلسي الأول - الملا محسن الفيض الكاشاني - المحقق السبزواري - الملا صالح المازندراني وغيرهم، تجاوزت مؤلفاته ٩٠ موضوعا، متبحر في علم الكيمياء، توفي في إصفهان عام ١٠٣٠ هـ أو ١٠٣١ هـ (نقلا عن سراج المعاني).

(١٤) أصول الكافي: ج ٢ ص ٢٤٩

(١٥) مرآة العقول: ج ١ ص ٣٩، بحار الأنوار: ج ١ ص ٢٠٦ نقلا عن محاسن البرقي: كتاب مصابيح الظلم باب المعرفة ص ١٩٨

(١٦) سورة الحشر: آية ١٨

(١٧) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٧٣، أمالي الشيخ الصدوق: ج ١ ص ٣٤ وص ١٠٩

(١٨) أصول الكافي: ج ٢ ص ٤٥٣، تحف العقول: ص ٣٨٣

(١٩) سورة الأنبياء: آية ٤٧

(٢٠) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٣٤٦

(٢١) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٥٨

(٢٢) بحار الأنوار: ج ٩٦ ص ٢٥١ نقلا عن معاني الأخبار

(٢٣) قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّ كِتابَ الله عَلَى أرْبَعَةِ أشْياءٍ عَلَى العِبارَةِ والإشارَةِ واللَّطائِفِ والحَقائِقِ، العِباراتُ لِلْعَوامِّ والإشاراتُ لِلْخَواصِّ واللَّطائِفُ للأوْلِياءِ والحَقائِقُ للأنْبِياءِ» - بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ٢٧٧، ج ٩٢ ص ١٠٣ وورد عن أبي عبدالله الحسين بن علي عليه السلام مثله - بحار الأنوار: ج ٩٢ ص ٢٠

(٢٤) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٣٩

(٢٥) المحجة البيضاء: ج ٢ ص ١٢٣، الكافي: ج ٤ ص ٦٣، كنز العمال: ج ٨ ص ٤٤٥

(٢٦) أسرار الشريعة: ص ٢١١ - ٢١٣

(٢٧) أسرار الشريعة: ص ٢١٠

(٢٨) بحار الأنوار: ج ١٨ ص ٧٧

المنزل (١٤)

آفَةُ السَّفَرِ الأوَّلِ عِنْدَ المُحِب

قسَّم أساطين المعرفة والعرفان الأسفار الإلهية إلى أسفار أربعة، وقد ذكر صدر المتألهين الشيرازي (قده) هذه الأسفار في كتابه المشهور «الأسفار الأربعة» على الوجه التالي:

واعلَمْ أن للسُلاَّك من العرفاءِ وأولياءِ الله أسفاراً أربعةً:

أحدُها السفرُ من الخَلْقِ إلى الحقِّ

وثانيها السفرُ بالحقِّ في الحقِّ

والسفرُ الثالثُ يقابلُ الأول لأنه من الحقِّ إلى الخَلْقِ بالحقِّ

والرابعُ يقابلُ الثَّاني من وجْهٍ لأنه بالحقِّ في الخَلْقِ [١]

ثم ذكر الحكيم الإلهي السبزواري (قده) في حاشية الأسفار ما يلي:

قال الشيخ المحقق كمال الدين عبدالرزاق الكاشي (قده): السفر هو توجُّه القلب إلى الحق تعالى، والأسفار أربعة:

الأول: هو السيرُ إلى الله من منازلِ النفسِ إلى الوصولِ إلى الأفقِ المبينِ وهو نهاية مقام القلبِ ومبدأ التجليات الأسمائية.

الثاني: هو السير في الله بالاتصال بصفاته والتحقق بأسمائه إلى الأفق الأعلى ونهاية الحضرة الواحدية.

الثالث: هو الترقي إلى عين الجمع والحضرة الأحدية وهو مقام قاب قوسين ما بقيت الإثنينية فإذا ارتفع فهو مقام أو أدنى وهو نهاية الولاية.

الرابع: السير بالله عن الله للتكميل وهو البقاء بعد الفناء والفرق بعد الجمع [٢].

وهناك تعليقات وتحقيقات أخرى في هامش «الأسفار الأربعة» على تلك المراتب للمحققين الشامخين والحكماء الإلهيين، فمن أراد مزيد الاطلاع فليراجع الكتاب وهوامشه في الباب المذكور[٣].

وحيث أننا في بداية طريق السلوك إلى الله فسوف نطرح في هذا المنزل مقامات السفر الأول بإيجاز وأما الشرح التفصيلي لبقية الأسفار فسوف نطرحها في المنازل القادمة بإذن الله ومشيته.

وأما مقامات السفر البسيط الأول فهي ثمانية:

- المقام الأول: الطلب.
- المقام الثاني: تهذيب النفس وتهذيب الأخلاق.
- المقام الثالث: ظهور الحالات والأحوال في الإنسان وباطنه.
- المقام الرابع: الشوق والاضطراب.
- المقام الخامس: العشق والمحبة.
- المقام السادس: الحيرة والسُّكْر[٤].
- المقام السابع: الفناء في الحق.
- المقام الثامن: التوحيد.

وقد ذكر مشايخ العرفان في مقام الطلب وهو المقام الأول في السفر من الخلق إلى الحق آفتين هما:

الآفة الأولى العُجْب: والعُجب صفة نفسانية ذميمة وهو استعظام النفس لما يرى فيها من صفة كمال سواء كان مخطئا في ذلك أو مصيبا وقيل أنه إعظام نعمة والركون إليها دون إضافتها إلى المنعم الحقيقي وهو ذات الله سبحانه وتعالى، ولا يستدعي العجب وجود طرف آخر ويكفي أن يكون العُجب بين الشخص ونفسه.

يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأخْسَرِينَ أعْمالاً * الَّذينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً *﴾[٥]!!

وفيما أوصَى به أمير المؤمنين عليه السلام إلى ابنه الحسن المجتبى عليه السلام: «يابُنَيَّ لا وَحْدَةَ أوْحَشَ مِنَ العُجْبِ»[٦]!!

وقال الشيخ البهائي قدس الله روحه في معنى العُجب:

«لا ريب أن مَن عَمِل أعمالا صالحة من صيام الأيام وقيام الليالي وأمثال ذلك يحصل لنفسه ابتهاجٌ فإن كان من حيث كونها عطيَّة من الله له ونعمة منه تعالى عليه وكان مع ذلك خائفاً من نقصها شفيقاً من زوالها طالبا من الله الازدياد منها لم يكن ذلك الابتهاج عُجْباً وإن كان من حيث كونها صفته وقائمة به ومضافة

إلـيـه فاســتـعـظـمـهـا ورَكَـن إلـيـها ورأى نفســه خـارجـا عن حـدِّ التقصـيـر وصـار كأنـه يمُـنُّ علـى الله سـبـحـانـه بسـبـبـهـا فـذلـك هـو الـعُـجـب»!!

قال عبدالرحمن الجامي صاحب كتاب «نفحات الأنس» إنه ما من حجاب وعائق في طريق السالك إلى الله أكثف من حجـاب الـعُجب.

وعـلى هـذا فالعجب من المَلَكات المهلكات وخطره أكبر من الكِـبْر والتكَبُّر [٧] لأن العُجْب خـافٍ في باطـن الإنسـان وهـو منشــأ الكِـبْـر، ومن اشــتغل بظاهـره ونـسي مراقبـة باطنه جعل للشـيطان سـبيلا لإلقاء وساوسه في صدره وتزيين عمله في نفسـه فيعظِّم في نفسه علمه وعبادته وطاعته وصبره وسخاوته وماله وحسبه ونسبه وغيرها من الفضائل النفسية أو المكاسب المادية إلى أن يُعجَب الإنسان بنفسه فيعيش في تلك الكثرات والحجب، هنا تقف أمامه آفة عظمى من آفات السفر الأول من الخلق إلى الحـق وفي أول مقـام من مقاماته – مقام الطلب – التي تجعل له حـدودا وهمية يظنها غايةً ومقصداً فيتوقف عن الطلب والسـعي والسـير والسفر إلى الله عزَّ وجلَّ ظنا منه أنه قد استغنى عنها وهو الهلاك لا محالة.

عن أبي عبدالله الصادقعليه السلام أنه قال: «مَنْ دَخـَــلَــهُ الـعُـجْـــبُ هَـلَـكَ»[٨]!!

وعـن أبي الحسـن مـوســى بن جعفرعليه السلام لما ســئـل عـن العجب الـذي يفســـد العمـل قالعليه السلام: «العُـجْـبُ دَرَجاتٌ منها أنْ يُـزَيَّـنَ لِـلْـعَـبْـدِ سـوءُ عَـمَلِهِ فيَراهُ حَـسَـناً فـيُـعْـجِـبُـهُ ويَـحْـسَـبُ أنـَّهُ يُـحْـسِـنُ صُـنْعاً ومنها أنْ يُـؤْمِـنَ الـعَـبْـدُ بـرَبِّهِ فـيَـمُــنَّ على الله عَـزَّ وجَلَّ ولله عَلَيه فيه المَـنُّ»[٩]!!

وقال أحد العرفاء لأن أبيت نائما وأصبح نادما أحب إلي من أنَ أبيت قائما وأصبح معجبا!!

وعـلاوة على كون الـعُجب آفـة في حد ذاته فكذلك آثاره الناتجة عنه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى كالكِبر ونسـيان الذنوب أو تناسـيها أو اسـتعظام العبادات والمنِّ على الله بفعلها فيكتفي المعجب بالقليل منها أو الاستنكاف عن سؤال من هو أعلم منه أو الاغترار بالنفس والأمن من مكر الله فلا يجني من أعماله إلا الخسران المبين كما في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أفـأمِــنـُوا مَـكْــرَ الله فَـلا يَـأمَــنُ مَـكْــرَ الله إلاَّ الْـقَـوْمُ الْخَــاســرُونَ﴾[١٠]!!

والآفَـة الثانيــة اليـأس: فالمريض إذا يئـس من الطبيب فأي شيء يطلب؟! لا شيء، بل يستسـلم للمـرض ويتوقـف عن معالجة نفسـه!! كذلك اليأس عن الوصول إلى المقصـد والغاية الذي ينتج عنه التوقف عن الحركة والسير إلى الله عزَّ وجلَّ.

وفي مقـابــل مكتـب أهل الرياء والكبر والعجـب والزهو هناك طائـفــة في العرفــان يعـرفــون بـ«الملامـتـيـين» أو «الملامـيـيـن»، ونحن لسـنا في مقام تأييد هذه الجماعـة أو عدمه ولكن لا بأس من

معرفة آرائهم، ومن جملة أرائهم:

١ - الملامة ترك السلامة، فالنفس مطبوعة على حب الذات ومجبولة على حب الرياسة والعلو على جنسها ومن كلف عن الانسلاخ عن هذا الطبع والجبلة فقد كلف أمرا عظيما، ومع هذه القوة من التمكن إذا نزلت عليه ذبابة لا يزيلها حياء من الله تعالى لأن في إزالتها راحة للنفس سريعة وسلامة معجلة وما خلق في هذه الدنيا للراحة والنعيم، فإذا قيل أن التنعم بالحلال في الدنيا مباح قالوا هذا غير ممنوع لغير العارف ولكن بالنسبة للعارف فهو مكلف بالاشتغال بشكر النعمة والشكر على نعمة شكر النعمة وهكذا حتى يؤدي حق شكر النعمة وهذا أمر ليس بهين.

٢ - تحمُّل الملامة رأس مال العاشق المُلام في سبيل المعشوق.

٣ - الاعتقاد بأن هذا المنهج - أي الملامة - يؤثر تأثيرا إيجابيا في الإخلاص في العمل والعبادة والتوحيد الذاتي والتوحيد الأفعالي والتوحيد العبادي وفي جميع أبعاد الحياة.

٤ - التمسك بالآية الكريمة: ﴿....يُجاهِدونَ في سَبيلِ الله وَلا يَخافونَ لَوْمَةَ لائِمٍ....﴾[11] ذلك بأنهم يرون أن الله تبارك وتعالى جعل عدم الخوف من لومة اللائمين مقترنا مع الجهاد في سبيله، فاستدلوا بهذه الآية على عظيم شأن هذا المقام!!

٥ - يرون أن كل من يذكر رب العالمين ويدعو إلى معرفته سبحانه وتعالى ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر يواجه لومة اللائمين، فمثلا إذا رأى أحدهم امرءا ثريا وذا مكانة رفيعة في المجتمع ولكنه فاسق متجاهر بفسقه أو يسعى إلى مفسدة ويريد أن ينهاه عن فسقه وفجوره وسعيه للفساد يصده الجاهلون أو المنتفعون به عن ذلك ويلومونه.

٦ - ويرون أنه لما كان الكثير من أهل المعاصي يخفون معاصيهم ويعملون بها في الخلوة بعيدا عن أعين الناس فالأولى أن يخفوا هم طاعاتهم عن أعين الناس، فكانوا متمكنين من أنفسهم لا يتميزون في ظاهر الطاعات عن عامة العباد ولكنهم يسترون أنفسهم وحالاتهم مع الله عن العالم السفلي أن يدركوا مرتبة ولايتهم عند الله تبارك وتعالى.

٧ - أن يكون أحدهم حسن الإيمان والباطن ويحكم عليه الناس بعدم الإيمان والتقوى خير من أن يكون ضعيف الإيمان وسيء الباطن ويحكم عليه الناس بالإيمان والتديُّن، وعلى هذا فهم مجهولو الأقدار أخفياء المقامات لا يعرفهم إلا سيدهم عزَّ وجلَّ.

يُحكَى أن أحد العرفاء كان معروفا بالشيخ تارك الصلاة ، وينقل أحد العلماء الذين كانوا ملازمين له ويقول:

كنت ذات يوم نائما والشيخ في غرفة واحدة وكنت أراقب حالاته لكي أعرف حقيقة أمره إن كان

تاركا للصلاة أم لا، وإذا بي أراه قد قام من نومه قبيل أذان الفجر بخفة وهدوء فتوضأ وشرع في صلاة الليل خفاء بخشوع وتضرع، ثم أذَّن المؤذِّن لصلاة الصبح فصلَّى صلاته وبعد الفراغ من الصلاة رجع إلى فراشه ونام ولم يشعر بي وأنا أراقبه!!

وقبل شروق الشمس بدقائق استيقظ من كان حوله والذين كانوا يلومونه بترك الصلاة وهم يتغامزون ويقولون: فليستيقظ هذا الشيخ التارك للصلاة ليصلي معنا!! فقام الشيخ من مكانه وقال إن شاء الله سأذهب إلى المدرسة وأصلي، فقاموا يستهزئون به وهم يعلمون أنه لن يصِل إلى المدرسة إلا وقد أشرقت الشمس وفات وقت الصلاة!!

لبس الشيخ وخرج من البيت بسرعة فخرجت خلفه لأرى إلى أين يذهب، فإذا به يدخل حرم الإمام الرضا عليه السلام، ورأيت حالاته وهو يزور الإمام عليه السلام ويدعو ويتوسل به، ولما أراد أن يخرج من الحرم أخذت بيده وقلت له: شيخنا، الآن عرفت أنك من أولياء الله!! فقال: وكيف تقول ذلك؟! قلت له: لا تستنكر ذلك، فقد كنت أراقبك طوال الليل ورأيت كل أعمالك التي قمت بها خفية إلى الآن، فأمسَك بيدي وقال لي: أقسمك بصاحب هذا القبر مادمت حيا لا تنقل لأحد شيئا مما رأيته مني، فهو سر بيني وبين الله!!

اللَّهم انزع العجب والرياء والكبر والبغي والبلية والفساد من أسماعنا وأبصارنا وجميع جوارحنا وخذ بنواصينا إلى ما تحب وترضى، ولا تجعل لليأس سبيلا إلى قلوبنا يا خير الحافظين وأرحم الراحمين.

الهوامش

(١) الأسفار الأربعة: ج ١ ص ١٣

(٢) الأسفار الأربعة: ج ١ ص ١٨

(٣) فأما الحكيم الإلهي محمد رضا قمشه اى (قده) فإنه رتب الأسفار إلى مراتب أربعة نوردها إجمالا كالتالي: السفر الأول السفر من الخلق إلى الحق برفع الحجب الظلمانية والنورية التي بين السالك وبين حقيقته التي معه أزلا وأبدا وإن شئت قلت بالترقي من مقام النفس في مقام القلب ومن مقام القلب في مقام الروح ومن مقام الروح إلى المقصد الأقصى والبهجة الكبرى فإذا وصل السالك إلى المقصود برفع الحجب المذكورة (بطي العوالم الثلاثة النفس والقلب والروح) يشاهد جمال الحق ويفنى ذاته فيه فإذا أفنى السالك ذاته فيه تعالى ينتهي سفره الأول ويكون وجوده حقانيا وفي مقام الفناء في الذات ثلاثة مقامات السر والخفي والأخفى وهي مقامات السفر الثاني وقد يعتبر في مقام الروح العقل نظرا إلى تفصيل شهود المعقولات فتصير المقامات (في السفر الأول والثاني) سبعة مقام النفس مقام القلب مقام العقل مقام الروح مقام السر مقام الخفي ومقام الأخفى ثم عند انتهاء السفر الأول يأخذ السالك في السفر الثاني وهو السفر من الحق إلى الحق بالحق وإنما يكون بالحق لأنه صار وليا ووجوده وجودا حقانيا فيأخذ في السلوك من موقف الذات إلى الكمالات واحدا بعد واحد حتى يشاهد جميع كمالاته فيعلم الأسماء كلها إلا ما استأثره عنده فيصير ولايته تاما ويفنى ذاته وصفاته وأفعاله في ذات الحق وصفاته وأفعاله فبه يسمع وبه يبصر وبه يمشي وبه يبطش والسر فناء ذاته وهو منتهى السفر الأول ومبدأ السفر الثاني والخفاء هو الفناء في الألوهية والأخفى هو الفناء عن الفناءين فيتم دائرة الولاية وينتهي السفر الثاني ويأخذ في السفر الثالث فالسفر الأول عبور عن عالم الناسوت والملكوت والجبروت والسفر الثاني عبور عن عالم اللاهوت والسفر الثالث أي من الحق إلى الخلق بالحق ويزول فيه السكر والمحو ويحصل له الصحو التام ويبقى ببقاء الله ويسلك في مراتب الأفعال ويسافر في عوالم الجبروت والملكوت والناسوت ويشاهد هذه العوالم بأعيانها ولوازمها وينبئ عن معارف ذات الحق وصفاته وأفعاله وأما السفر الرابع فهو من الخلق إلى الحق بالحق فيشاهد الخلائق وآثارها ولوازمها فيعلم مضارها ومنافعها في العاجل والآجل يعني في الدنيا والآخرة فيكون نبيا بنبوة التشريع - الأسفار ج ١ ص ١٣

وأما الحكيم العلامة الميرزا حسن النوري (قده) فله في حاشيته على كتاب الأسفار تعليقة نوجزها فيما يلي: اعلم أن الإنسان مادام لم يشرع في سلوكه العلمي والنظري يشاهد الكثرة دائما ويغفل عن مشاهدة الوحدة فإذا شرع في سلوكه العلمي من الآثار إلى المؤثر تضمحل الكثرات عنده شيئا فشيئا إلى الوحدة الصرفة الحقة الحقيقية بحيث لا يشاهد الكثرة أصلا ولا يشاهد إلا الوحدة ويستغرق في مشاهدتها عن مشاهدتها وهذه بمنزلة السفر الأول المشار إليه في الكتاب، فالسفر الأول من الكثرة إلى الوحدة، إذا وصل السالك إلى عالم الوحدة واحتجب عن عالم الكثرة حينئذ يستدل السالك بالسلوك العلمي من ذات الحق

ووحدته على أوصافه وأسمائه وأفعاله مرتبة بعد مرتبة، وهذه المرتبة بمنزلة السفر الثاني، وربما انشرح صدر السالك عن الضيق والتزاحم وحلت عقود العجز عن لسانه بحيث يشاهد الكثرة في الوحدة والوحدة في الكثرة ويصير جامعا لكلتا النشأتين وبرزخا بين المقامين فحينئذ يصير قابلا لكونه معلما للناقصين ومرشدا لضعفاء العقول والنفوس، وهذه المرتبة بمنزلة السفر الثالث، وفوق هذه المرتبة مرتبة أخرى أعلى وأكمل وأدق وأتقن وهي الاستدلال على وجود الحق ووجود غيره بالحق بحيث لا يكون الوسط في البرهان على وجوده ووجود غيره ويسمى هذا الاستدلال والبرهان باللم وطريقة الصديقين، وهذه بمنزلة السفر الرابع من الأسفار المذكورة في الكتاب – الأسفار: ج ١ ص ١٦ – ص ١٧.

(٤) ذكرنا في المنزل (٢) – الإخلاص عند المحب – كيفية حضور جمال السالكين الشيخ الميرزا جواد آقا الملكي التبريزيرضي الله عنه في درس الشيخ الأستاذ الإمام الأكبر الآخوند ملا حسينقلي الهمدانيرضي الله عنه وكيف كان يرى تلامذة الآخوند من الطلبة والعلماء السالكين إلى الله والعرفاء خارجين من درسه وقد بدت عليهم حالات السُّكْر وحينما سأل في ذلك قيل له أن نَفَس الآخوند الهمداني وتأثيره في ضمائرهم يجعلهم لساعات طويلة في حالة من السُّكْر، إذ كان هذا السكْر سُكْرا دائما، وذكر السيد الهنديرضي الله عنه في قصيدته الكوثرية أن أحسن الأوقات لحالة السكر هو قبيل الفجر، وعلى هذا الأساس كان أحسن الأوقات لدروس العرفان والعرفانيات عند سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائيرضي الله عنه هو قبيل الفجر.

(٥) سورة الكهف: آية ١٠٣ – ١٠٤

(٦) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٢٧٦

(٧) الكِبْر أن يرى الإنسان نفسه باطنا فوق الغير دون صدور أي فعل على الجوارح أما إذا ظهر ذلك من الباطن إلى الظاهر وعلى الجوارح فيسمى ذلك تكَبُّرا.

(٨) أصول الكافي: ج ٢ ص ٣١٣

(٩) أصول الكافي: ج ٢ ص ٣١٣

(١٠) سورة الأعراف: آية ٩٩

(١١) سورة المائدة: آية ٥٤

المنزل (١٥)

الوَرَعُ عِنْدَ المُحِب

قال الإمام الصادق عليه السلام: «إنَّا لا نَعُدُّ الرَّجُلَ مُؤمناً حَتَّى يكونَ بجَميعِ أمْرِنا مُتَّبِعاً مُريداً ألا وإنَّ مِن اتِّباعِ أمْرِنا وإرادَتِهِ الوَرَعَ فتَزَيَّنوا بِهِ يَرْحَمْكُمُ اللهُ وكِيدُوا أعْداءَنا بِهِ يُنْعِشْكُمُ اللهُ»[1]!!

وقال عليه السلام أيضا: «عَلَيْكُمْ بالوَرَعِ فإنَّهُ لا يُنالُ ما عِنْدَ اللهِ إلاَّ بالوَرَعِ»[2]!!

وقد ذكر العرفاء وعلماء علم الأخلاق في الورع معانٍ كثيرة منها:

المعنى الأول: حفظ القلب عن التشتُّت، فالورِع من يحفظ قلبه من السلوك في اتجاهات مختلفة حفاظاً له من الضياع والبعاد والاغتراب عن الله تبارك وتعالى بعد القرب والوصال.

المعنى الثاني: اجتناب الشبهات والمكروهات والوقوف عندها فضلا عن المحرَّمات، وغالبا ما يطلق على ترك الشبهات بجميع جوانبها من مأكل وملبس وقول وفعل خوفا من الوقوع في المحرمات، ومن حامَ حول الحِمَى أوشك أن يقع فيه، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: «مَنْ اتَّقَى الشُّبُهاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأ لدينِهِ»[3]، وقال صلى الله عليه وآله أيضا: «لا وَرَعَ كَالوُقوفِ عِنْدَ الشُّبْهَةِ»[4]!! وجاء عن الإمام الحسن بن علي المجتبى عليه السلام وهو يعظ جنادة بن أبي أمية: «واعْلَمْ أنَّكَ لا تَكْسِبُ مِنَ المالِ شَيْئاً فَوْقَ قُوتِكَ إلاَّ كُنْتَ خازِناً فيها لِغَيْرِكَ واعْلَمْ أنَّ في حَلالِها حِسابٌ وفي حَرامِها عِقابٌ وفي الشُّبْهاتِ عِتابٌ»[5]!! وعن أبي عبدالله الصادق عليه السلام أنه حينما سئل عن الورع من الناس قال: «الَّذي يَتَوَرَّعُ عَنْ مَحارِمِ اللهِ ويَجْتَنِبُ هؤلاءِ الشُّبْهاتِ وإذا لَمْ يَتَّقِ الشُّبْهاتِ وَقَعَ في الحَرامِ وهُوَ لا يَعْرِفُهُ»[6]!!

يقول العارف الحقاني والسالك الصمداني بابا طاهر الهمداني المشهور بالعريان رضي الله عنه في الورع:

«الورعُ رفع الطَّمَع عن كلِّ الشبهاتِ»، ويقول أيضا: «مَنْ تورَّعَ بالحقيقة وجَدَ الدنيا حراماً والآخِرَةَ شُبْهةً ووجَدَ الحَقَّ مُفْرَداً لَمْ يَمْضِ مع الحَرام ولَمْ يقِفْ معَ الشبهاتِ»، ويقول أيضا: «الوقوفُ مَعَ الشُّبْهاتِ يُمْسِكُ سَيْرَ القَلْبِ ويَحْبِسُ الازْدِيادِ».

والمعنى الثالث: وهو أشد معاني الورع وأقواها، وهو أن القلب لما كان يتجه في كل لحظة إلى تعلق من تعلقات الدنيا كان الورع هو الإعراض عما سوى الله خوفا من صرف ساعة من العمر لا يزداد فيه السالك قربا من الله جل شأنه[٧].

ويقسِّم العارف الكبير المولى محمَّد بيدآبادي (قده) الورع إلى أقسام أربعة:

الأول: ورع التائبين، وهو عبارة عن ترك الكبائر من الذنوب وعدم الإصرار على الصغائر مع ملازمة الإنصاف والمروة.

الثاني: ورع الصالحين، وهو عبارة عن الابتعاد عن الشبهات خوفا من الوقوع في المحرمات.

الثالث: ورع المتقين، وهو عبارة عن ترك أكثر المحللات والمباحات خوفا من الوقوع في الشبهات والمكروهات.

الرابع: ورع الصدِّيقين، وهو عبارة عن الإعراض عن كل ما سوى الله تعالى والإدبار عن الأغيار وأخذ الحيطة في عدم صرف لحظة من العمر في ما يؤدي إلى الرياء والبعد عن الله تبارك وتعالى[٨].

وقد ورد عن مولانا زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام: «إنَّ لِلزُّهْدِ دَرَجاتٌ وأعْلَى دَرَجَةِ الزُّهْدِ أدْنَى دَرَجَةِ الوَرَعِ وأعْلَى دَرَجَةِ الوَرَعِ أدْنَى دَرَجَةِ اليَقينِ وأعْلَى دَرَجَةِ اليَقينِ أدْنَى دَرَجَةِ الرِّضا»[٩]!!

وعلى هذا فالورع على قسمين ورع ظاهري وورع باطني، والورع الظاهري ما يظهر على الأعضاء والجوارح وهو الابتعاد عن المحرمات امتثالا لأوامر الله وخوفا من عقابه وتجنب الشبهات تحاشيا عن عتابه، أما الورع الباطني فهو اجتناب القلب عن كل ما يجذبه بعيدا عن الله سبحانه وتعالى ويشغله عنه.

وللورع مرتبة رفيعة دون سائر الأعمال لا سيما في شهر رمضان وهو كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله شهر عند الله أفضل الشهور وأيامه أفضل الأيام ولياليه أفضل الليالي وساعاته أفضل الساعات، فعن أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة النبي صلى الله عليه وآله في فضل شهر رمضان بعدما ذكر صلوات الله عليه فضائل الأعمال فيه كالصيام والصلاة والدعاء والصدقة وتلاوة القرآن وصلة الأرحام وحسن الخُلق قال: قمت فقلت

يا رسـول الله ما أفضل الأعمال في هذا الشـهر؟! فقالﷺ: يا أبا الحسـن أَفْضَـلُ الأَعْمالِ في هذا الشَّهْرِ الوَرَعُ عَنْ مَحارِمِ الله عَزَّ وَجَلَّ[١٠]!!

وهنـا لفتـة عرفَانيـة ونكتـة دقيقة ينبغـي التنبُّه لها وذلـك أن غالبية النـاس يركـزون اهتمامهم على التكاليـف الإيجابيـة وأدائها كالصـلاة والصوم والصدقـة وغيرها ولكن رسـول اللهﷺ يركز هنا على التكليـف السـلبي وجانـب النفي والبعد والاجتناب وهـو الورع عما حرّم الله سـبحانه وتعالى، ويبين في حديثـه الشريف أن فضيلة الورع تفوق سـائر الفضائل، ولذا يرى جميـع العرفاء – عند جميع الفرق الإسلامية – أن منزل الورع من أهم منازل السالكين والسائرين إلى الله سبحانه وتعالى.

يُحكَى أن الشيخ أحمد الأردبيلي المشهور بالمقدس (قده)[١١] استأجر حمارا – وكان وسيلة ركوبه في ذاك الزمان – ليسـافر به إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسـين عليه السلام، وما أن ركب الحمار وسـار به قليلا جاءه رجل وقال له: مولانا لو تفضلتم وتكرمتم وأنتم في طريقكم إلى كربلاء أن تأخذوا معكم هذه الرسالة وتوصلوها إلى فلان في كربلاء، فأخذ الشـيخ الرسـالة ووضعها في جيبه ثم نزل عن الحمار وأرجعه إلى صاحبه والرجل ينظر إليه، ثم توجه الشيخ إلى كربلاء ماشيا!!

تعجـب الرجـل من تصرف الشـيخ فأخذ يجري خلفه وهو يقول: شـيخنا ومولانا – وكان مرجعا عـلى الإطـلاق في النجـف الأشرف آنذاك – لمـاذا نزلتم عـن الحـمار وأرجعتموه إلى صاحبـه؟! فقال الشيخ: لأني كنت قد اتفقت مع صاحب هذا المركب أن أركبه وحدي ووجدت أن هذه الرسالة زائدة على بنود الاتفاق بيني وبينه فإذا أدركني الأجل في أثناء الطريق كيف أجيب رب العـالمين إذا سـألني: يا شـيـخ أحمـد أنسـيت ما اشـترط عليك صاحب المركب أن تركبه وحدك؟ كيف أضفت من عندك رسالة على بنود القرار دون علمه؟ (والمؤمنون عند شروطهم)!!

ثم قال الشيخ: ولما كان قضاء حاجة المؤمن واجب رأيت أن أرجع المركب إلى صاحبه وأسير ماشيا إلى كربلاء!!

أيهـا السـالك إلى الله!! لا تتعجب مما تسـمع عن حـالات أولياء الله، هل كانت الرسـالة أثقل وزنا أم مثقـال ذرة؟! أما قـرأت قوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[١٢]، نعم قد تكـون البداية صعبة ولكن متى ما صارت حسنات الصفات ومحامد الأخلاق مَلَكَة صارت الأمور يسيرة سهلة.

حينما رأى الشـيخ المقدس الأردبيلي (قده) أن زيارة الإمام الحسين عليه السلام عمل مستحب ولم يقْدِم على عمل محرَّم في سبيل عمل مستحب هل كان ذلك إلا من الورع!! وهل كان الورع إلا من الإيمان بالمعاد والخوف من الله سبحانه وتعالى الذي ينتج عنه دوام الحضور مع الحـق وعدم الغفـلة ومراقبـة النفس

الأمَّـــارة بالسـوء والحيـــاء مـن الله عزَّ وجلَّ فيما لا يرضيـه!! كل ذلك لم يكن لـولا الدخول في طريق معرفة الله سبحانه وتعالى والتقرب إليه.

وأما مقامات الورع فهي ثلاثة:

– المقام الأول: الورع في الطعام

– المقام الثاني: الورع في المنطق واللسان

– المقام الثالث: الورع في القلب

أمـا الـورع في الطعـام فهو التفتيش في الاقتصاد والأموال والثروة، فـإذا كانت من وراء معاملة ما إشـاعة فحشـاء أو تفشـيّ حرام يجب اجتنابها، ويجب على السـالك التفتيش والفحص على أمواله أن تكون مخمسة ومزكاة ويراعي دفع الحقوق والكفارات الواجبة، وتعد هذه المرتبة من المراتب النازلة في الورع وأما المراتب العالية منها فهي تعتمد على مراتب السـير والسـلوك إلى الله منها الورع في اجتناب الشـبهات مـن الأكل والمـال، فعن أمـير المؤمنين عليه السلام في كتاب لـه إلى عثمان بن حنيـف الأنصاري وهو عامله على البصرة وقد بلغه أن دُعِي إلى وليمة قوم من أهلها: «أَمَّا بَـعْدُ يا ابْنَ حُـنَـيْفٍ فَقَدْ بَلَغَـنِي أَنَّ رَجُلاً مِنْ فِتْيَةِ أَهْـلِ الـبَـصْـرَةِ دَعـاكَ إِلَـى مَـأْدُبَـةٍ فـأَسْـرَعْـتَ إِلـيها تُـسْتَطابُ لَـكَ الأَلْـوانُ وتُـنْـقَـلُ إِلَـيْـكَ الـجِـفـانُ ومـا ظَـنَـنْـتُ أَنَّـكَ تُـجِـيبُ إِلَـى طَـعامِ قَـوْمٍ عـائِـلُـهُـمْ مَـجْـفُـوٌّ وغَـنِـيُّـهُـمْ مَـدْعُـوٌّ فَـانْـظُـرْ إِلَـى مـا تَـقْـضِـمُـهُ مِـنْ هـذا الـمَـقْـضَـمِ فـما اشْـتَـبَـهَ عَـلَـيْـكَ عِـلْـمُـهُ فـالْـفِـظْـهُ وما أَيْـقَـنْـتَ بِـطِـيـبِ وُجـوهِـهِ فَـنَـلْ مِـنْـهُ أَلاَ وإِنَّ لِـكُلِّ مَـأْمـومٍ إِمـامـاً يَقْـتَـدِي بِـهِ ويَـسْـتَـضِيءُ بنورِ عِـلْمِـهِ أَلاَ وإِنَّ إِمـامَـكُمْ قَـدْ اكْـتَـفَى مِـنْ دُنْـيـاهُ بِـطِـمْـرَيْـهِ ومِـنْ طَـعْـمِـهِ بِـقُـرْصَـيْـهِ أَلاَ وإِنَّـكُمْ لا تَـقْـدِرونَ عَـلَـى ذلِـكَ ولـكِـنْ أَعِـيـنـونِـي بِـوَرَعٍ واجْـتِـهـادٍ وعِـفَّـةٍ وسَـدادٍ»[١٣]!! وكذلك في وصفـه عليه السلام للمتقين حيث يقول: «وَمَلْبَسُهُمُ الاقْـتِـصـادُ»[١٤]!!

وآفـة المقـام الأول الـطـمـع فالطمع يسـتلزم ارتكاب الشـبهـات والمحرمـات، وقـد سـئل أمير المؤمنين عليه السلام: ما ثبات الإيمان؟! فقال عليه السلام: الورع، فقيل له: ما زواله؟! فقال عليه السلام: الطمع [١٥]!!

وأمـا الورع في اللسـان فهـو مـراقبـة الحق في المنطق وحفـظ اللسـان عـما حرم الله، وقد قيل أن الورع في المنطـق أشـد منه في الذهـب والفضـة، وقال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام: «الكَـلامُ في وثـاقِـكَ مـا لَمْ تَـتَـكَلَّـمْ بِـهِ فَـإِذا تَـكَلَّمْتَ بِـهِ صِـرْتَ في وثـاقِـهِ فَـأَخْـزِنْ لِسـانَـكَ كَمـا تَـخْـزِنُ ذَهَـبَـكَ ووَرِقَـكَ فَـرُبَّ كَلِمَةٍ سَـلَبَتْ نِـعْـمَـةً وجَلَـبَتْ نِـقْـمَـةً»[١٦]!! وآفات اللسـان كثيرة منها فضـول الـكلام وكثرته والمـزاح الخارج عن حد الـشرع والخوض في الباطل والمراء والجدال والسـب

والكذب والغيبة وغيرها.

وكما أن الذم ليس بمرغوب فكذلك المدح بالباطل غير مرغوب، ورضوان الله تعالى على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان يقول أن أكثر العرفاء يركزون في كتاباتهم ودروسهم على آثار الذم ولا يركزون على آثار المدح في حين أن خطر المدح في اللسان أكبر من خطر الذم.

وآفة المقام الثاني حب الكلام.

وأما الورع في القلب فهو تجريده عما سوى الله، وهو المقام الأرفع من مقامات الورع، وفيما أوحى الله إلى عيسىعليه السلام: «يا عيسَى لِيَكُنْ لِسانُكَ في السِرِّ والعَلانِيَةِ واحِدٌ وكذلِكَ فَلْيَكُنْ قَلْبُكَ وبَصَرُكَ واطْوِ قَلْبَكَ ولِسانَكَ عَنِ المَحارِمِ»[١٧].

وآفة المقام الثالث الإبقاء في النفوس، وعدم الخروج من حظوظ النفس ومشتهياتها، ليس بنعيم الدنيا فحسب بل في العبادات الظاهرية التي تبطن الرياء والعجب والكبر وغيرها من الأغراض النفسية والمصالح الدنيوية، وكلها عوامل تعيق السير إلى الله تعالى.

ونختم المنزل بحديث نوراني شريف لصادق آل محمَّدعليه السلام الإمام جعفر بن محمَّدعليه السلام هو خلاصة ما ذكرناه في هذا المنزل حيث يقول:

«أغْلِقْ أبْوابَ جَوارِحِكَ عَمَّا يَرْجِعُ ضَرَرُهُ إلى قَلْبِكَ ويَذْهَبُ بِوَجاهَتِكَ عِنْدَ الله وتَعْقِبُ الحَسْرَةَ والنَّدامَةَ يَوْمَ القِيامَةِ والحَياءَ عَمَّا اجْتَرَحْتَ مِنَ السَّيِّئاتِ، والمُتَوَرِّعُ يَحْتاجُ إلَى ثَلاثَةِ أصولٍ الصَّفْحُ عَنْ عَثَراتِ الخَلْقِ أجْمَع وَتَرْكُ خَوْضِهِ فيهِمْ واسْتِواءُ المَدْحِ والذَّمِّ، وأصْلُ الوَرَعِ دَوامُ المُحاسَبَةِ وصِدْقُ المُقاوَلَةِ وصَفاءُ المُعامَلَةِ والخُروجُ مِنْ كُلِّ شُبْهَةٍ ورَفْضُ كُلِّ عَيْبَةٍ ورَيْبَةٍ ومُفارَقَةُ جَميعِ ما لا يَعْنيهِ وتَرْكُ فَتْحِ أبْوابٍ لا يَدْري كَيْفَ يُغْلِقُها ولا يُجالِسُ مَنْ يُشْكِلُ عَلَيْهِ الواضِحُ ولا يُصاحِبُ مُسْتَخْفِيَ الدِّينِ ولا يُعارِضُ مِنَ العِلْمِ ما لا يَحْتَمِلُ قَلْبُهُ ولا يَتَفَهَّمُهُ مِنْ قائِلٍ ويَقْطَعُ مَنْ يَقْطَعُهُ عَنِ الله»[١٨]!!

الهوامش

(١) أصول الكافي: ج ٢ ص ٧٨، «كِيدُوا أعْداءَنا به» أي حاربوهم به لتغلبوا أو تدفعوا به كيدهم، وفي بعض النسخ «كَبِّدوا» أي أوقعوهم في المشقة لأنه يصعب عليهم ورعكم و «ينعشكم الله» أي يرفعكم في الدنيا والآخرة.

(٢) أصول الكافي: ج ٢ ص ٧٦

(٣) بحار الأنوار: ج ٢ ص ٢٥٩

(٤) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٢٢

(٥) بحار الأنوار: ج ٤٤ ص ١٣٩

(٦) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٠٣ نقلا عن معاني الأخبار

(٧) جاء في كنز العمال ج ٣ ص ١٨٤: «الدُّنْيا حَرامٌ عَلَى أهْلِ الآخِرَةِ والآخِرَةُ حَرامٌ عَلَى أهْلِ الدُّنْيا والدُّنْيا والآخِرَةُ حَرامٌ عَلَى أهْلِ الله»!!

(٨) رسالة في سير وسلوك العارف المولى محمد بيدآبادي(قده) (بالفارسية): ص ٤٢ نقلا عن شرح منازل السائرين للشيخ عبدالرزاق الكاشانيﷺ الحاشية ص ٥٤

(٩) أصول الكافي: ج ٢ ص ٦٢

(١٠) بحار الأنوار: ج ٤٢ ص ١٩٠

(١١) السالك الأوحدي والفقيه السرمدي مولانا أحمد بن محمد بن محمد الأردبيلي الأصل والولادة النجفي المسكن والمدفن الموصوف بـ«العالِمِ الربَّاني» المعروف بـ«المقدس الأردبيلي» أو «المحقق الأردبيلي» جليل القدر عظيم الشأن قدسي السمات وملكوتي الصفات بلغ الغاية القصوى في العلم والفقاهة والفضل والزهد والورع والتقوى والعبادة حتى صار مضربا للأمثال، وقد تشرف بلقاء الحجة (عج) كما ذكر ذلك العلامة الجزائري (قده) حيث قال أنه كلما كانت تستشكل عليه مسألة يذهب إلى ضريح مولى الكونين أمير المؤمنينؑ ليلا ويأخذ منه الجواب وفي أحيان كثيرة يرسله إلى مسجد الكوفة ويقول له أن ابني المهدي (عج) موجود الآن هناك فاذهب إليه واسأله عن مسألتك، وكان معاصرا للشيخ البهائي (قده) والميرزا محمد الأسترآبادي (قده) وتلمَّذ عند بعض تلامذة الشهيد الثاني (قده)، وكان مرجعا مطلقا ورئيسا للحوزة العلمية في النجف الأشرف آنذاك، ومن تأليفاته: إثبات الواجب، أصول الدين، زبدة البيان، شرح إرشاد الأذهان، حاشية شرح إلهيات التجريد، وتفسير آيات الأحكام وغيرها، وقد توفي المقدس الأردبيلي في شهر صفر عام ٩٩٣ أو ٩٩٤ هـ ومرقده الشريف يقع في إيوان الحرم المطهر لأمير المؤمنينؑ – مقتبس ومترجم من كتاب سراج المعاني تأليف السيد ناصر الميبدي.

(١٢) سورة الزلزلة: آية ٧ – آية ٨

(١٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٦ ص ٢٠٥، الطِّمر: الثوب الخَلِق وجعلهما اثنين لأنهما إزار

ورداء

(١٤) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٠ ص ١٣٢

(١٥) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٠٥ نقلا عن أمالي للشيخ الصدوق

(١٦) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٩ ص ٣٢٢

(١٧) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٩١

(١٨) بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٣٠٧ نقلا عن مصباح الشريعة

المنزل (١٦)

السِّرُّ عِنْدَ المُحِب

اعلم أيها السالك إلى الله أن مبحث السر من أمهات المباحث العرفانية وهو يشمل سرَّ الحال وسرَّ الروح وسرَّ القلب وسِرَّ السرِّ.

وللسر عند العرفاء معاني ومفاهيم كثيرة نذكر جملة منها:

المعنى الأول:

إن الله تبارك وتعالى حينما خلق الأشياء في عالم الوجود من الماديات والمجردات باقتضاء الآية المباركة: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[1] على أحسن قانون ونظام جعل في كل شيء مما خلق سرا باطنا، فالله سبحانه وتعالى خلق السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما من إنسان ونبات وجماد وملائكة وخلق العقل والنفس والروح وسائر الكائنات بكلمة ﴿كُنْ﴾ الوجودية وهي أمضى كلمات الله وأصل لتكوين غيرها من الكلمات الصادرة عن إرادة كلمة ﴿كُنْ﴾ والتي قال فيها أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة يوم الفطر: «الَّذي بكَلِمَتِهِ قامَتِ السَّماواتُ السَّبْعُ وقَرَّتِ الأَرَضونَ السَّبْعُ وثَبَتَتِ الجِبالُ الرَّواسي وجَرَتِ الرِّياحُ اللَّواقِحُ وسَارَ في جَوِّ السَّماءِ السَّحابُ وقامَتْ عَلَى حُدودِها البِحارُ فتبارَكَ اللهُ رَبُّ العالَمينَ»[2]، وعنه عليه السلام: «يَقولُ لِما أرادَ كَونَهُ كُنْ فيَكونُ لا بصوتٍ يُقْرَعُ ولا بِنداءٍ يُسْمَعُ وإنَّما كلامُهُ سبحانهُ فِعْلٌ مِنْهُ أنشَأَهُ ومِثْلُهُ لَمْ يَكُنْ مِنْ قَبْلِ ذلكَ كائِناً ولو كانَ قَديماً لكانَ إلهاً ثانياً»[3]، وجعل الله في كل مخلوق من هذه المخلوقات سرا بل أسرارا، فلا مطمع لأحد في معرفة علوم الغيب والملكوت الأعلى ودقائق أسرار الموجودات وحكمة وجودها وغوامض أسرارها إلا لمن ارتضاه الحق في معرفته ومعرفتها، ولا يُكشَف غطاؤها ولا تتجلي عن جلابيب أستارها إلا لمن أفاض الحق تعالى على قلبه

من أنوار فيضه وجوده فاستوعب فهْم الحقائق الإلهية والمعارف الربانية ووصل إلى المراتب العليا من الكمالات المعنوية.

ومن جملة هذه الأسرار ارتباط الأرواح بعضها ببعض قبل انفصالها عن أبدانها وارتباطها بالأرواح المنفصلة والمجردة، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر حكاية نبين من خلالها كيف يمكن للعارف الكامل الواصل أن يطرق أبواب أسرار عالم الوجود ويعرف مكنونات الضمائر وخفايا الصدور بإرادة الله جلت قدرته وعظم شأنه:

كان الشيخ محمَّد تقي الآملي رضي الله عنه[٤] يعيش في النجف الأشرف، فعزم ذات يوم على مغادرة النجف والتوجه إلى إيران، فجمع ثيابه وأثاث منزله وجمع كتبه وتقريراته - وهي رأس مال كل عالـم - ولكنه كان متحيرا كيف يحمل تلك الكتب والتقريرات وفيها آيات قرآنية؟ أيحملها كلها على صدرِه أم يضعها مع أثاثه؟ وأين يضعها أثناء نومه؟ وبينما هو متحير في أمره إذا برجل يطرق باب بيته، فتح الشيخ الباب فإذا بجمال السالكين العالم الرباني والعارف الصمداني السيد علي القاضي رضي الله عنه - أستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في العرفان والأخلاق في النجف الأشرف - واقف بالباب، فسلم عليه الشيخ وأدخله البيت ثم قال السيد للشيخ: شيخنا، أولا أنصحك أن لا تغادر النجف فإنها ليست في مصلحتك، ثانيا حينما تريد أن تنام ضع الكتب والمصحف الشريف فوق رأسك لا تحت قدميك!!

تعجب الشيخ من أمر السيد ولسان حاله يقول: كان ذلك سر بيني وبين الله ولم يطَّلع عليه أحد، فمن أين عرف السيد أني أريد السفر إلى إيران؟! وكيف عرف أني في حيرة من أمري أين أضع الكتب والقرآن وقت النوم؟!

فأخذ الشيخ يلحُّ على السيد أن يعلمه كيف عرف ذلك كله وهو لم يخبر أحدا به، فبين له شيئا من ذلك السر (ولولا كون الشيخ من أهل الصفاء والأنوار ومن أهل العرفان والأسرار ومن أولي البصائر والأبصار لما باح له السيد بذلك) وقال: لقد استفدت ذلك من وادي السلام!!

أيها السالك إلى الله!! مقبرة وادي السلام في النجف الأشرف مدفن أولياء الله ومحل أسرار أهل الله وكثير من العرفاء والسالكين إلى الله استفادوا من هذا المكان المقدس لاسيما السيد علي القاضي رضي الله عنه الذي كان من عادته ومنهجه التجول لساعات بين القبور، وقد استفاد منه ذلك سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه.

واعلم أن أكثر الحجب التي تحجبنا عن معرفة الحقائق وكشف الأسرار سببها حب الدنيا والتعلق بمظاهرها الخادعة وزينتها الفانية وأمانيها الكاذبة، ولعل زيارة القبور تؤثر كثيرا على روح الإنسان في رفع الموانع والحجب بين قلبه وروحه وأسرار عالم الوجود.

وعلى هذا فالإنسـان إذا أصبح من أهل الحق يرى الحق، وأسرار عالم الوجود كلها حقائق لا يصل إلى كنههـا إلا أهـل الحق، والعرفاء هم أهـل الحق الذين يبحثون دائما عن الحـق، والسر حق جعله الله تعـالى في الأشـياء حين خلقها، وبالتالي فالعارف يبحث على الدوام عـن الأسرار والحقائق بينما يكتفي العابد بالظواهر.

المعنى الثاني:

كـما أن القلـب محـل الإدراك والـذوق والمعرفـة بـالله وبكل ما يشـمله علـم الباطن والـروح محل الحـب والمحبـة (وإن كان الحب أيضا ينسـب إلى القلب أحيانا) فكذلك الـسر فهو لطيفة من اللطائف الروحانيـة ومحل المشـاهدات ومركز التأمل في الله والاتصال الروحي، فالسـالك إلى الله إذا وصل إلى مقام من مقامات الشهود والمشاهدة فهذا يعني أنه قد وصل إلى سر من الأسرار.

المعنى الثالث:

أن الـسر ليـس من الأعيـان بل من المعاني، فهو أمــر معنوي وحالـة مسـتـورة بين العبد والـرب ولا يطَّلـع عليـه أحد غيرهما، وسرُّ السرِّ أعلى مرتبة من السر حيث أنها ليسـت بـين العبــد والرب بل عند عـــالِـم السـر والخفــيـات وحده، ويسمى أيضا مقام «الأخفى».

ورضوان الله تعالى على روح سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي رضي الله عنه الذي كان يستند دائما في مبحث السر على هذه الكريمة المباركة: ﴿وَإِن تَـجْـهَـرْ بِـالْـقَـوْلِ فَـإِنَّـهُ يَـعْـلَـمُ الـسِّـرَّ وَأَخْـفَـى﴾[٥] فالسر ما بين الحق وخلقه، وأخفى ما يستر عن الخلق عينه فلا يعلم الأخفى إلا هو وانفرد به دون ما سواه.

عن محمَّد بن مسـلم قال سـألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى﴾ قال عليه السلام: «السِّـرُّ مـا كَـتَـمْـتَـهُ فـي نَـفْـسِـكَ وأخْـفَـى مـا خَـطَـرَ ببـالِـكَ ثُـمَّ أنْـسَـيْـتَـهُ»[٦]!!

المعنى الرابع:

أن مرتبة السر دون الروح وفوق القلب، أي أن السر بين الروح والقلب.

المعنى الخامس:

جعل العرفاء مراتب باطن الإنسـان سـبعا هي على التوالي: الطبع والنفس والقلب والروح والسر والخفي والأخفى، وعلى هذا فالروح أشرف من القلب والسر أشرف من الروح.

المعنى السادس:

قد تبقى في روح الإنسـان معاني غامضة لا يسـيطر عليها العقل ولا يطَّلع عليها ولا يفهمها، هذه المعاني الروحية المستترة عن العقل هي التي تعرف بالسر، وتعرف أيضا بسرِّ الروح.

يُحكَـى أن أحـد أوليـاء الله رأى في منامـه أنه التقى برجل قد توفي من زمن فسـأله عـن أحوال عالم

الآخـرة ومقاماتها فقـال الرجل: كيف أصف لك أحـوال الآخرة ومقاماتها بألفـاظ وعبارات وأمثلة قـاصرة عن بيانها واسـتيعابها!! فإن مقاييـس ومعادلات عالم البرزخ تختلف عـن مقاييس ومعادلات عالم الدنيا!!

المعنى السابع:

قـد تكـون هناك معاني في قلب الإنسـان يكـون الوقوف عليهـا وذكرها وإيضاحها وبيانها بلسـانه صعبا عسيرا، هذا النوع من السر يعرف بسرِّ القلب.

ولابد من الإشـارة هنا أن هناك فوارق بين الفلسـفة والعرفان أهمها أن الفلسفة تقوم على الأصول العقلية المحضة أما العرفان فهو إلى جانب الاستدلالات العقلية فهو يرى جانب الإلهامات القلبية وما يدركه العارف من الحقائق بعين القلب ولا شك أن القلب أخص من العقل وعلى هذا فالفلسفة التي تركز على تفسـير الحقائق عقليا محدودة بمحدودية الماديات والمحسوسـات وأما العرفان فهو يركز على القلب ذي السـعة اللامتناهية والذي وسـع الحق تبارك وتعالى الذي لا يسعه شيء كما قال عزَّ وجلَّ في حديث قدسي: «لَـمْ يَـسَـعْـنِـي سَـمـائِـي ولا أَرْضِـي ووَسِـعَــنِـي قَـلْـبُ عَـبْـدِيَ الْمُـؤمــنِ»[٧]!!

ولـذا نجد أن الكثير من الفلاسـفة - الذين يعتمدون في فهم الوجود عـلى العقل وقانونَ العلية لا عـلى الروح والقلب والعرفان - هم متحيرون ومحرومون من مدركات الأنبياء عليهم السـلام وماتوا على ذلك.

أيهـا السـالك إلى الله لابد أن لا يقتصر تركيـزك على العقل دون الروح والقلـب أو تعتقد بالحقائق الفلسفية المحضة دون الحقائق العرفانية والقلبية والروحية والكشف والشهود فكثير من الأمور يعجز العقل عن فهمها ووصفها وهي من شأن الروح والقلب ومن أسرار الروح وأسرار القلب.

المعنى الثامن:

أن مـن مقامات الأسرار الإلهية سر الحال، والسـالك إلى الله بمقـدار ما يمكنه أن يعرف مراد الحق ومقصود الحق فيه كان له الحال، بمعنى آخر إذا يريد السـالك أن يبحث عن إرادة الحق وهو ذات الله سـبحانه وتعالى فهو في حال خاص، هذا الحال الذي وصل به إلى شيء من إرادة الله يسـمى بسر الحال والوصول إلى مراد الحق لا يحصل إلا بتوفيق من الله عزَّ وجلَّ.

وعلى السالك إلى الله في هذا المقام أن يلتفت إلى نقطتين أساسيتين هما:

١ - يقـول الله تبـارك وتعالى في كتابه: ﴿سُـبْـحـانَ الَّــذي أَسْرَى بِـعَـبْـدِهِ لَـيْــلاً....﴾[٨]، فالله سـبحانه اختـار الليل دون النهار ليسري بعبده إلى ما وراء العـالم المادي لمَا في الليل من أسرار ليريه من آياتـه الكـبرى فتمثلت له حقائق الأشـياء، ولذا فمن الأسرار الإلهية العظمـى أن يكون معراج الروح

ليلا وذلك بعد إتمام مقام العبودية!! فكما أن الله تعالى جعل الغيب لنفسه فقد جعل الليل لأهله حتى تسترهم ظلمة الليل عن أعين الأغيار فلا يشهد أحد فعلهم في خلوتهم مع الله وحضورهم التام معه وهو القائل سبحانه لنبيه موسى بن عمران عليه السلام في حديث قدسي: «يا ابْنَ عِمْرانَ كَذبَ مَن زَعِمَ أنَّهُ يُحِبُّني فإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنّي أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبيبِهِ»[٩]!!

يُحكَى أن عارفا محققا لقيه بعض إخوانه فقال له: يا أخي اذكرني في خلوتك بربك، فأجابه العارف: إذا ذكرتك فلستُ معه في خلوة!!

وكيفَ تَرَى لَيْلَى بعَيْنٍ تَرَى بها
سِواها وما طَهَّرْتَها بالمَدامِعِ
وتَلْتَذُّ مِنْها بالحَديثِ وقدْ جَرَى
حَديثُ سِواها في خُروقِ المَسامِعِ[١٠]

والخلوة كما يقول العرفاء هي محادثة السر مع الحق، فإذا لزم العبد الخلوة مع الله تعالى وفرغ نفسه عن كل علاقة وأعرض عن كل شاغل وجلس على باب الملك المتعال فقيرا لا يملك لنفسه شيئا هنالك ينكشف لقلبه من أنوار الغيوب بعد الستر ويمنحه الله

تعالى من العلوم اللدنية ويهبه من الأسرار الإلهية كما وهب الخضر عليه السلام وقال: «.... وَعَلَّمْناهُ مِن لَدُنَّا عِلْماً»[١١]!!

ذُكِر التقية يوما عند علي بن الحسين عليه السلام فقال: «والله لَوْ عَلِمَ أبو ذَرٍّ ما في قَلْبِ سَلْمانَ لَقَتَلَهُ ولَقَدْ آخَى رَسولُ الله صَلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسَلَّمَ بَيْنَهما فَما ظَنُّكُمْ بسائِرِ الخَلْقِ إنَّ عِلْمَ العالِمِ صَعْبٌ مُسْتَصْعَبٌ لا يَحْتَمِلُهُ إلاَّ نَبِيٌّ مُرْسَلٌ أو مَلَكٌ مُقَرَّبٌ أو عَبْدٌ مُؤمِنٌ امْتَحَنَ اللهُ قَلْبَهُ لِلإيمانِ»[١٢]!!

يقول أحد مشايخ العرفان لو لم يكن كتمان السر لازما ولو كانت أسرار التوحيد قابلة لفهم الجميع لم يكن لقول الرضي من حفدة علي بن أبي طالب صلى الله عليه وسلم معنىً إذ قال:

يا رُبَّ جَوْهَرِ عِلْمٍ لَوْ أبوحُ بِهِ
لَقيلَ لي أنْتَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الوَثَنا
وَلاسْتَحَلَّ رِجالٌ مُسْلِمونَ دَمي
يَرَوْنَ أقْبَحَ ما يَأتونَهُ حَسَنا[١٣]

فالسادات الأبرار هم العارفين بعلم الأسرار.

٢ - قد تمتلئ الحوزات العلمية سواء بالنجف الأشرف أو قم المقدسة بأهل العلم من الفقهاء والأصوليين والفلاسفة وعلماء علم الكلام وغيرهم ولكن قلَّما يوجد معلم الأخلاق الرباني الذي يأخذ على عاتقه تربية السالكين إلى الله والعاشقين في لقاء الله والفناء في الله [١٤]،

فالنفوس البشرية في سيرها الروحاني التكاملي على صراط الحقيقة بحاجة إلى تربية أستاذ ليعتلي بها إلى ذرى معارج الحقائق والمعارف، وعلى السالك إلى الله أن يبذل الجد والجهد في البحث عن عالم رباني وعارف واصل كامل يتمتع بقلب نيِّر ومقام روحاني ومعنوي رفيع يرشده إلى الطريقة المثلى في السير والسلوك إلى الله حتى يهديه الله إلى سبيله كما قال عز من قائل: ﴿وَالَّذِينَ جاهَدُوا فِينا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنا...﴾[١٥]!! ومتى ما وُجد مثل هذا المرشد عليه أن يرافقه ويجالسه ويستفيد مما أفاض الله تعالى عليه من غوامض العلوم وبواطن الأسرار بعدما سلك سبيل الرياضة والمجاهدة وتهذيب النفس وتصفيتها، وقد لا يفضي إليه المرشد بسرِّه ولا يبوح له ما يضمره بمكنون صدره فهو غير مأذون بذلك ومتعهد بالالتزام القطعي بكتمانها عن الأغيار بل قد تُسلب منه المقامات إن أفشى بها في غير محلها وقد تؤدي إلى الضلال والانحراف إلا أنه - وحسب مراتب المسترشد ومقاماته - يشير إلى بعض منها أو يحدد له أُطُرها كالذي يكتفي بالإشارة إلى وجود كنز في جبل ما دون تحديد مكان الكنز حتى يقوم السالك بالتحقيق والبحث والسعي ومن ثم يصل إلى الكنز.

رضوان الله على روح العارف الكبير سيدنا الأستاذ العلامة الطباطبائي الذي كان يلِحُّ عليه أحد تلامذته أن يبوح له ببعض الأسرار ولكن السيد﵁ كان يرفض بشدة ويقول له: أنت لم تصل في تهذيب النفس إلى المقام الذي يجعلني أبوح لك ببعض الأسرار لأنك رجل عصبي المزاج وقد تفقد السيطرة على نفسك حين الغضب فتفشيها!!

وقد قال أحد العرفاء (بالفارسية): «عارف سَرْ ميدهد وسِر نميدهد»[١٦]!!

فالسر حق ممنوع ظهوره من الخدور واجب كتمانه في الصدور إلا عن أهله، فما كل ما يدرى يقال ولا كل ما يشهد يذاع، ونعم ما قيل في هذا المقام أن «صدور الأحرار قبور الأسرار»!!

اللَّهم صلِّ على محمَّد وآل محمَّد وأصلح سريرتي وأطِب علانيتي واجعل هواي في تقواك وخير أيامي يوم ألقاك واكفني ما أهمّني وما لم يهمّني وما أنت أعلم به مني في أمر دنياي وآخرتي وألحقني بالذين هم خير مني وارزقني مرافقة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا إله الحق رب العالمين.

الهوامش

(١) سورة يس: آية ٨٢

(٢) مصباح المتهجد: ص ٦٠٤، من لا يحضره الفقيه: ج ١ ص ٣٢٥ - ص ٣٢٦

(٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٣ ص ٨١

(٤) الشيخ محمد تقي ابن الشيخ محمد الآملي آملي الأصل طهراني المسكن من فحول وأكابر علماء الإمامية في هذا العصر، فقيه أصولي محقق مدقق جامع المعقول والمنقول حاوي الفروع والأصول، ولد في طهران عام ١٣٠٤ هـ وأكمل فيها المقدمات والسطوح ثم هاجر إلى النجف الأشرف عام ١٣٣٩ هـ ومكث فيها ١٤ عاما واستفاد من محضر السيد أبو الحسن الإصفهاني والميرزا النائيني والمحقق العراقي في الفقه والأصول، له مؤلفات في المعقول والمنقول، ويحكى أنه كان ملتزما بذكر الصلوات على محمد وآل محمد أربعة عشر ألف مرة صبيحة كل يوم، وهذا شيء يسير من حالات هذا الشيخ النوراني والعارف الصمداني رضوان الله تعالى عليه.

(٥) سورة طه: آية ٧

(٦) بحار الأنوار: ج ٤ ص ٤٩ نقلا عن معاني الأخبار، وكذلك في مجمع البيان مع ذكر كلمة «أَخْفيتَه» بدلا عن «كَتَمْتَه».

(٧) بحار الأنوار: ج ٥٨ ص ٣٩

(٨) سورة الإسراء: آية ١

(٩) بحار الأنوار: ج ١٣ ص ٣٢٩، ج ٧٠ ص ١٤ نقلا عن أمالي الشيخ الصدوق، وتمام الحديث كالآتي: عن المفضل قال سمعت مولاي الصادقعليه السلام يقول: كان فيما ناجى الله عز وجل به موسى بن عمرانعليه السلام أن قال له: «يا ابْنَ عِمْرانَ كَذَبَ مَنْ زَعِمَ أنَّه يُحِبُّني فَإذا جَنَّهُ اللَّيْلُ نامَ عَنّي أَلَيْسَ كُلُّ مُحِبٍّ يُحِبُّ خَلْوَةَ حَبيبِهِ!! ها أنا ذا يا ابْنَ عِمْرانَ مُطَّلِعٌ عَلَى أحِبَّائي إذا جَنَّهُم اللَّيلُ حَوَّلْتُ أبْصارَهُمْ مِنْ (في) قُلوبِهِمْ ومَثَّلْتُ عُقوبَتي بَيْنَ أعْيُنِهِم يخاطِبوني عَنْ المُشاهَدَةِ ويُكَلِّموني عَن الحُضورِ يا ابْنَ عِمْرانَ هَبْ لي مِنْ قَلْبِكَ الخُشوعَ ومِنْ بَدَنِكَ الخُضوعَ ومِنْ عَيْنَيْكَ الدموعَ في ظُلَمِ اللَّيْلِ وَادْعُني فَإنَّكَ تَجِدُني قَريباً مُجيباً».

(١٠) تنسب هذه الأبيات إلى قيس بن الملوَّح العامري المشهور بمجنون ليلى من ديوانه: ص ١٠٩ ط بمباي ونقلها الشيخ النراقي في كتابه «الخزائن» ص ١٣٠

(١١) سورة الكهف: آية ٦٥

(١٢) بصائر الدرجات: ج ١ باب ١١ ص ٧، أصول الكافي: ج ١ ص ٤٠١، وفي بيان هذا الحديث الشريف يقول العلامة المجلسي في «بحار الأنوار» ج ٢٢ص ٣٤٣: قولهعليه السلام «ما في قَلْبِ سَلْمانَ» أي من مراتب معرفة

الله ومعرفة النبي والأئمة صلوات الله عليهم فلو كان أظهر سلمان شيئا من ذلك لكان لا يحتمله ويحمله على الكذب وينسبه إلى الارتداد أو العلوم الغريبة والآثار العجيبة التي لو أظهرها له لحملها على السحر فقتله أو كان يفشيه ويظهره للناس فيكون سببا لقتل سلمان على الوجهين، وقيل لقتل ذلك العلم أباذر أي كان لا يحتمله عقله فيكفر بذلك أو لا يطيق ستره وصيانته فيظهره للناس فيقتلونه، وقال السيد المرتضى رضي الله عنه في بعض فوائده حيث سئل عن هذا الخبر: ومن أجود ما قيل في تأويله أنه إذا اطلع على ما في قلبه وعلم موافقة باطنه لظاهره وشدة إخلاصه له اشتد ضنه به ومحبته له وتمسكه بمودته ونصرته فقتله ذلك الضن أو الود وتكون فائدة هذا الخبر حسن الثناء على الرجلين.

(١٣) تنسب الأبيات إلى مولانا سيد العابدين وإمام الساجدين علي بن الحسين عليه السلام ويسبق هذين البيتين بيتان آخران هما:

إنِّي لأكْتُمُ مِنْ عِلْمي جَواهِرَهُ
كَيْ لا يَرَى الحَقَّ ذو جَهْلٍ فَيَفْتَتِنا
وقَدْ تَقَدَّمَ في هذا أبو حَسَنٍ
إلَى الحُسَيْنِ وأوصَى قَبْلَهُ الحَسَنا

ونسب العلامة الأميني رضي الله عنه هذه الأبيات إلى الإمام عليه السلام في كتابه «الغدير» ج٧ ص٣٥ - ص ٣٦ نقلا عن تفسير الآلوسي ج ٦ ص١٩٠ وكذلك مقدمة «الوافي» و «الأصول الأصيلة» للفيض الكاشاني رضي الله عنه ص ١٦٧، وفي بيان إقامة العذر لأهل الطريق في تكلمهم في العبارات المغلقة على غيرهم نقل الإمام الغزالي وغيره عن الإمام زين العابدين عليه السلام هذين البيتين وقال: المراد بهذا العلم الذي يستحلون به دمه هو العلم اللدني الذي هو علم الأسرار.

(١٤) كان بحث الحكمة والأخلاق والفلسفة والتفسير والعرفان رائجا وفعّالا في الحوزات العلمية المختلفة، وكان المتكلمون الشيعة يرقون أعلى مراقي التفوق والتقدم في تلك المجالات طيلة أكثر من ألف عام، وتخرَّج من هذه الحوزات أكابر العلماء وأعاظم الفقهاء أمثال هشام بن الحكم والسيد المرتضى والشيخ المفيد والخواجه نصير الدين الطوسي والعلامة الحلي والميرداماد وصدر المتألهين الشيرازي والقاضي نورالله التستري ثم السيد مهدي بحر العلوم والآخوند الخراساني والآخوند الملا حسينقلي الهمداني والسيد أحمد الكربلائي والميرزا محمد حسن النائيني والشيخ محمد حسين الغروي الكمباني والملا مهدي النراقي والميرزا محمد حسن الشيرازي والشيخ محمد باقر الاصطهباناتي والسيد أحمد الخونساري والحاج الشيخ محمد علي شاه آبادي والحاج الميرزا أبو الحسن الرفيعي القزويني والسيد حسين بادكوبه اى والسيد الأستاذ العلامة محمد حسين الطباطبائي وأخيه الحاج السيد محمد حسن الإلهي التبريزي، وغيرهم من فحول أكابر علماء الإمامية وأعيانها.

وكان المرحوم السيد عبدالهادي الشيرازي يقول متأسفا: حين قدمت للدراسة إلى النجف الأشرف كانت هناك اثنا عشر حوزة علمية تدرس فيها الأخلاق والعرفان، بينما لا توجد منها الآن حوزة علمية

واحده!!

ونقل الفيلسوف الكبير آية الله الشيخ مرتضى المطهري (قده) عن آية الله السيد رضي الشيرازي أنه قال: في إحدى سفراتي إلى العتبات المقدسة سألت أحد المراجع العظام لماذا لا تبدأون درس التفسير في الحوزة؟ قال: ليس ذلك ممكنا مع وضعنا الحالي!! قلت: ولماذا كان ذلك ممكنا للعلامة الطباطبائي حين جعل التفسير درسا رسميا في الحوزة؟ فقال: كان ذلك تضحية بنفسه!!

(١٥) سورة العنكبوت: آية ٦٩

(١٦) أي أن العارف يفدي بنفسه ولا يفدي بسرِّه.

المنزل (١٧)

الحُرِّيَّةُ عِنْدَ المُحِب

وصلنا في نهاية المنزل السابق إلى الكلمة العرفانية: «صدور الأحرار قبور الأسرار» وستكون هذه الكلمة مبدأ سيرنا في هذا المنزل حتى نصل إلى معنى الحرية وحقيقتها عند العارفين والسالكين إلى الله.

نشير في بداية الأمر إلى بعض العلامات الرئيسية لفهم معنى الحرية:

العلامة الأولى:

أن لا يكون العبد بقلبه رقَّ أيٍّ من المخلوقات وأن يعلم أن الإرادة والمشيئة كلها بيد الله سبحانه وتعالى وأنه لا يعلو على سلطانه شيء وهو صاحب الأمر والنهي ومالك النفع والضر والكل مفتقر إليه وهو غني عن العالمين وأن الكل متوجه إليه يوم القيامة وممتثل بين يديه عبدا مملوكا صفر اليدين لا يملك شيئا مما ملَّكه الله تعالى إياه في الحياة الدنيا، ولما كان افتقار الناس إلى الله تعالى افتقارا ذاتيا لا محيص لهم عنها كما في قوله جل جلاله: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ واللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾[1] كذلك العبودية لله تعالى فهي صفة ذاتية للعبد يستحيل نفيها والعتق منها، يقول الحق تبارك وتعالى: «إن كُلُّ مَن فِي السَّماوات والأَرْضِ إلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً»[2]، فالعبد عبد لله حر عن ما سوى الله.

وقد كان من وصايا أمير المؤمنين عليه السلام لابنه الحسن عليه السلام أنه قال: ﴿لا تَكُنْ عَبْدَ غَيْرِك وقَدْ جَعَلَكَ اللهُ حُرًّا﴾[3]!!

يقول العارف الحقاني بابا طاهر الهمداني رضي الله عنه: «مَنْ يَرى الخَلْقَ فلابُدَّ له مِنْ تَعَبُّدِ الخَلْقِ» ومن تعبَّد الخلق فقد برئ منه الحق، فلا يخرج من رق الخلق وما يتبعه من الرياء لهم إلا من

استغرق في شهود الحق فلا يرى أحدا سواه.

العلامة الثانية:

سقوط التمييز عن القلب، أي أن القلب لا يفرق بين الأشياء ولا يفضل بعضها على بعض وكلها عنده على حد سواء ذهبها وحجرها، وقد قال لرسول الله ﷺ بعض أصحاب الصُفَّة: قد عزفت نفسي يا رسول الله عن الدنيا فاستوى عندي ذهبها وحجرها، فقال ﷺ: صِـرْتَ حُـرًّا [٤]!!

وقال أبو عبدالله الصادق عليه السلام: «الحُرُّ حُرٌّ عَلَى جَمِيعِ أَحْوالِهِ إنْ نابَتْهُ نائِبَةٌ صَبَرَ لَها وإنْ تَداكَتْ عَلَيْهِ المَصائِبُ لَمْ تَكْسِرْهُ وإنْ أُسِرَ وَقُهِرَ وَاسْتُبْدِلَ بالِيُسْرِ عُسْراً كَما كانَ يوسُفُ الصِّدِيقُ الأمِينُ صَلَواتُ الله عَلَيْهِ لَمْ يُضَرِّرْ حُرِّيَّتَهُ إنْ اسْتُعْبِدَ وقُهِرَ وأُسِرَ ولَمْ تَضُرِّرْهُ ظُلْمَةُ الجُبِّ ووَحْشَتُهُ وَما نالَهُ أنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِ فَجَعَلَ الجَبَّارَ العاتِيَ لَهُ عَبْداً بَعْدَ إذْ كانَ لَهُ مالِكاً» [٥]!!

العلامة الثالثة:

قيل أن حقيقة الحرية هي كمال العبودية، وكمال العبودية في إقامة حقوقها لله تعالى والانعتاق عن عبودية الشهوات النفسانية وأسْر الوساوس الشيطانية واتباع السبل الباطلة، وقد قال الله تبارك وتعالى في ذمِّ عبيد أهواء النفس وحظوظها: ﴿أفرَأيتَ مَنِ اتَّخَذَ إلَهَهُ هَواهُ وأضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وختَمَ عَلَى سمْعِهِ وقلْبِهِ وجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَن يَهْديهِ مِن بَعْدِ الله أفَلا تَذَكَّرونَ﴾[٦]، وقال رسول الله ﷺ: «أبْغَضُ إلهٍ عُبِدَ في الأرْضِ عِنْدَ الله الهَوَى» [٧]، وقد تكون العبودية للدنيا كما ورد عن عيسى عليه السلام أنه قال: «لا تَتَّخِذوا الدُّنيا رَبًّا فتَتَّخِذُكُمْ عَبيداً» [٨]، وقد تكون للشيطان كما قال تعالى في النهي عن اتباع الشيطان واتخاذه إلها ومعبودا: ﴿ألَمْ أعْهَدْ إلَيْكُمْ يا بَني آدَمَ أن لا تَعْبُدوا الشَّيْطانَ إنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبينٌ﴾[٩]!! وقد تكون لزينة الحياة الدنيا من مال وذهب وفضة، ففيما رواه القرآن الحكيم من قصة بني إسرائيل وعبادتهم العجل لدليل على نفوذ حب المال في قلوبهم حتى أصبحت أحب الأشياء إليهم، فقد صاغ لهم السامري من حليهم عجلا وكادهم به لعلمه أن قلوبهم أشربت حب المال والذهب والحلي فصارت تابعة لها فاستهواهم بذلك وسخر قلوبهم لعبادته!! وإنما سمي المال مالا لكونه بالذات يميل بالقلوب إليه بالعبادة.

وعلى هذا قيل أن: «كُلُّ ما شَغَلَكَ عَن رَبِّكَ فَهُوَ صَنَمُكَ» وأبغض الأصنام صنم النفس كما قيل» النَّفْسُ هي الصَّنَمُ الأكبَرُ»!!

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ولا تَدْعُ مَعَ الله إلهاً آخرَ لا إلهَ إلاّ هُو....﴾[١٠]، فكلما خلص العبد في عبوديته لرب العالمين وأقام حقوقها ولزم آدابها فهو في الحقيقة قد اقترب إلى أوج الحرية والتحرر

من قيود النفس وأغلال الشيطان ونال مقام العزة والكرامة في الدنيا والآخرة والمؤمن الحق مَن حَصَر عبوديته في الله وحده ولم يشرك بعبادته أحدا قولا وفعلا سرا وعلانية، وقد تكلم أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك وقال: «إلهي كَفَى بي عِزًّا أنْ أكونَ لَكَ عَبْداً وكفَى بي فَخْراً أنْ تكونَ لي رَبًّا أنتَ كَمَا أريدُ فاجعلْني كَمَا تُريدُ»[١١]!!

سأل عنوان البصري أبا عبدالله الصادق عليه السلام: يا أبا عبدالله ما حقيقةُ العبوديَّةِ؟! قال عليه السلام: ثلاثةُ أشياءٍ: أنْ لا يَرَى العَبْدُ لنفسِهِ فيما خَوَّلَهُ اللهُ مُلْكاً لأنَّ العبيدَ لا يكونُ لَهُمْ مُلْكٌ يَرَوْنَ المالَ مالَ الله يَضعونَهُ حيثُ أمَرَهُمُ اللهُ بِهِ، ولا يُدَبِّرُ العَبْدُ لنفسِهِ تَدْبيراً، وجُمْلَةُ اشتغالِهِ فيما أمَرَهُ اللهُ تعالَى بِهِ ونَهاهُ عَنْهُ، فَإذا لَمْ يَرَ العَبْدُ فيما خَوَّلَهُ اللهُ مُلْكاً هانَ عَلَيْهِ الإنفاقُ فيما أمَرَهُ اللهُ تَعالَى أنْ يُنْفِقَ فيهِ، وإذا فَوَّضَ العَبْدُ تَدْبيرَ نفسِهِ عَلَى مُدَبِّرِهِ هانَ عَلَيهِ مَصائِبُ الدُّنْيا، وإذا اشْتَغَلَ العَبْدُ بما أمَرَهُ اللهُ ونَهاهُ عَنهُ لا يَتَفَرَّغُ مِنهُما إلَى المِراءِ والمُباهاةِ مَعَ الناسِ، فَإذا أكْرَمَ اللهُ العَبْدَ بهذِهِ الثَّلاثَةِ هانَ عَلَيْهِ الدُّنْيا وإبليسُ والخَلْقُ ولا يَطْلُبُ الدُّنْيا تكاثُراً ولا تفاخُراً ولا يَطْلُبُ ما عِنْدَ الناسِ عِزًّا وعُلُوًّا ولا يَدَعُ أيامَهُ باطِلاً، فهذا أوَّلُ دَرَجَةِ التُّقَى....»[١٢]!!

فاحذر أيها السالك من مخاطر حب النفس وتعلقاتها واتباع أغراضها وأهوائها وهي ألد أعدائك وأقربها إليك كما نطق بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حيث قال: «أعْدَى عَدُوِّك نَفْسُكَ الَّتي بَيْنَ جَنبَيْكَ»[١٣]، وإنما صارت النفس عدوة للإنسان لأنها تميل إلى الصفات الربوبية كالكبر والتعظيم وطلب المدح والتعبد وغيرها فتميل بذلك عن التوحيد الخالص لله رب العالمين، وهذا أمر في غاية الدقة والخفاء لا ينجو منه إلا أقل القليل كما قال تعالى في كتابه: ﴿وَمَا يؤْمِنُ أكثَرُهُمْ بِالله إلاَّ وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾[١٤]، فالمؤمنون بوجود الله كثيرون ولكن القليل منهم يؤمن بتوحيد الله سبحانه وتعالى توحيدا خالصا.

العلامة الرابعة:

علاوة على عدم شعور العارف الحر بالتكليف والعناء والكد والمشقة في العبادة فإنه يفهم روح العبادة وتشتد رغبته فيها وينشرح صدره لها ويزيد حرصه في طلبها ويجد في قلبه طيبا ولذة وحلاوة وأنسا وسعادة وبهجة، بل إذا مُنع عن ذلك لأي سبب أو عائق لاغتم لذلك واعتبرها من أعظم العقوبات عليه، وهذا كمال العبودية لله سبحانه وتعالى ومقام الخلَّص من عباد الله من الأنبياء والصديقين الذين عملوا لله بأتم لوازم العبودية وأكملها، وقد قال الحق تبارك وتعالى: «يا عِبادي الصِّدِّيقينَ تَنَعَّموا بِعِبادَتي في الدُّنيا فإنَّكم تتنعَّمونَ بها في الآخِرَةِ»[١٥] فالصدِّيقون المقربون يرون في عبادة ربهم أعظم اللذات الروحانية وأسماها!!

قال أحد المشايخ: «وأما أحوالهم بعد موتهم فعلى قدر ما كانوا عليه في الدنيا من التفرغ لأمر ما معين أو أمور مختلفة على قدر ما تحققوا به في التفرغ له وهم في الآخرة على قدر أحوالهم في الدنيا.... فمن كان في الدنيا عبدا محضا كان في الآخرة ملكا محضا فلا أعز في الآخرة ممن بلغ في الدنيا غاية الذل في جناب الحق والحقيقة».

وقد قال بعضهم وكان محبا للصلاة: يا رب إن كنت أذنت لأحد أن يصلي في قبره فاجعلني ذلك، فرؤي وهو يصلي في قبره!!

ومر رسول الله ﷺ ليلة إسرائه بقبر موسى عليه السلام فرآه وهو يصلي في قبره ثم عرج به إلى السماء وذكر الإسراء وما جرى له فيه مع الأنبياء ورأى موسى عليه السلام في السماء السادسة وهو يصلي في قبره!!

نقل أحد العلماء حكاية قال فيها: ذهبت ذات يوم مع آية الحق الشيخ حسن علي الإصفهاني المعروف بالنخدكي رضي الله عنه إلى إحدى المقابر لقراءة الفاتحة فتوقف الشيخ عند إحدى القبور وقال لي: انظر ماذا تسمع من هذا القبر؟! وبإشارة منه سمعت صوتا من داخل القبر يقول: لا إله إلا الله!! فقال الشيخ: إن صاحب هذا القبر كان في الدنيا من أصحاب القلوب والأذكار وفي ذلك العالم أيضا هو مشغول بذكر الله!!

العلامة الخامسة:

خدمة الفقراء إلى الله ومجالسة المساكين، فما لم يكن الإنسان حرا كيف يمكنه خدمة هؤلاء؟!

لقد كان أمير المؤمنين عليه السلام يديم على خدمة الفقراء وكذلك الأئمة المعصومون عليهم السلام، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيِّدُ الْقَوْمِ خادِمُهُمْ»[١٦]!! وكان زين العباد علي بن الحسين عليه السلام ليخرج في الليلة الظلماء فيحمل الجراب على ظهره وفيه الصرر من الدنانير والدراهم وربما حمل على ظهره الطعام أو الحطب حتى يأتي باباً باباً فيقرعه ثم يناول من يخرج إليه وكان يغطي وجهه إذا ناول فقيرا لئلا يعرفه، فلما توفي عليه السلام فقدوا ذلك فعلموا أنه كان علي بن الحسين عليه السلام، ولما وضع على المغتسل نظروا إلى ظهره وعليه مثل ركب الإبل مما كان يحمل على ظهره إلى منازل الفقراء والمساكين[١٧]!!

العلامة السادسة:

الخروج من الدنيا اختيارا قبل أن يُخرَج منها اضطرارا، وقد قال أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه: «أَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيا قُلوبَكُمْ مِنْ قَبْلِ أنْ تُخْرَجَ مِنها أبْدانُكُمْ»[١٨]!!

والحياة الدنيا زائلة والكل يموت لا محالة «كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتَ....»[١٩] ولكن متى يخاف الإنسان الموت؟! حينما يكون قلبه متعلقا بشئون الدنيا، ومن تعلَّق قلبه بشيء كان له عبدا، فكلما اشتدت التعلقات وتعددت الارتباطات بالدنيا كان الفراق عنها بالموت أصعب والألم عليه أشد

فيشعر بالكدر والضيق: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ....﴾[٢٠]، في حين أن العبد السالك إلى الله يموت اختيارا قبل أن يموت اضطرارا لأنه قد فرَّغ قلبه من حب الشهوات النفسانية وقطع عنه حبائل اللذات الفانية والأماني الباطلة الردية وكان الله سبحانه وتعالى مقصوده ومعبوده ولم يتخذ سواه إلها وربا: ﴿.... أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾[٢١]!!

متى يقال أن العبد أصبح حرا؟!

حينما يعتقه مولاه فيكون حرا لوجه الله!! كذلك الذي يخرج من رق الدنيا ويتخلص من قيود النفس وولايتها هنالك يكون حرا لوجه الله، وقد قال مولانا أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك: «ألا حُرٌّ يدَعُ هذِهِ اللُّماظَةَ لأهلِها»[٢٢] أي الدنيا، وكذلك قال عليه السلام: «ولألفَيْتُمْ دُنياكُمْ هذِهِ أزْهدُ عِنْدي مِنْ عَفْطَةِ عَنْزٍ»[٢٣]، وفي حديث حفص بن غياث قال قال أبو عبدالله عليه السلام: «يا حَفْصُ، ما أنزَلْتُ الدُّنيا مِنْ نَفْسي إلاَّ بمَنْزِلَةِ المِيتَةِ إذا اضْطَرَرْتُ إلَيْها أكَلْتُ مِنْها»[٢٤]!!

ويجدر بالذكر هنا أن يعرف السالك إلى الله المعيار الحقيقي والميزان الواقعي في التمييز بين امتلاك الشيء والتعلق به حتى يفرِّق بين كون الإنسان صاحب مال وثروة وجاه ومقام وكونه من أهل الدنيا وهو الطريق الأساسي لنفوذ الشيطان، فالمناط في تعريف أهل الدنيا هو التعلق بشئوناتها، فقد يمتلك الإنسان بيتا أو سيارة أو أثاثا فاخرا أو مقاما اجتماعيا رفيعا وغير ذلك ولكنه لا يجد في نفسه وقلبه أي تعلق بهذه المظاهر ولا يكون فرحا بامتلاكها ولا محزونا لفقدها بل متحررا من أسرها وقيودها ﴿لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ ولا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ....﴾[٢٥]، وعلى هذا يكون هو مالكا للمال لا المال مالكه.

ويمكن التعبير عن الحرية بطلاق الدنيا والتجافي عن دار الغرور كما في قول مولانا أمير المؤمنين عليه السلام المشهور: «يا دُنْيا غُرِّي غَيْري فَقَدْ طَلَّقْتُكِ ثَلاثا لا رَجْعَةَ فيها»[٢٦]!!

وقال العرفاء إن لكل شيء في عالم الوجود نهاية وغاية، والإنسان بما أنه شيء من الأشياء فإن نهايته بلوغه ومن ثم تبتدىء مسئولياته ودوره في الحياة وغايته حريته، والعارف إذا أصبح حرا فقد عرف نفسه بالعبودية التامة للمولى عزَّ وجلَّ ومن عرف نفسه بالعبودية فقد عرف ربه بالربوبية وهي غاية العرفان.

وللحرية مقامات ثلاثة:

المقام الأول: حرية عامة من رق الشهوات.

المقام الثاني: حرية خاصة من رق المرادات.

المقام الثالث: حرية خاص الخاص من رق الرسوم والآثار.

ومع التدرج في المقامات الثلاثة والوصول إلى مقام الحرية المطلقة عن الأغيار وتحقُّق العبودية المحضة للرب المتعال يُعطَى العارف أمانة نيابة الحق ويكون من أصحاب مقام التصريف والتصرف في العالم وأصحاب القوة الحاكمة على طبائع النفوس ويكون كل شيء في عالم الوجود تحت إرادته واختياره وتنكشف له حقائق الأشياء ولا تشتبه عليه الأمور ولا يخطئها.

ومصداق قولنا حكاية نوردها في هذا المقام:

دُعِي آية الله العظمى الشيخ عبدالكريم الحائري اليزدي (قده) [٢٧] ذات يوم مع جمع من تلامذته إلى حديقة فلبَّى الدعوة وذهب مع تلامذته إلى الحديقة وكانت مليئة بأشجار العنب.

جلس الشيخ وتلامذته في جانب من الحديقة وكان بيده كتاب للمطالعة، ثم طلب شيئا من العنب ولكن حينما أتوا إليه بصحن من العنب وقدموه له قال الشيخ: لا أشتهي، وأخذ يكمل مطالعة الكتاب!! تعجب الحاضرون من تصرف الشيخ فقالوا له: مولانا، أنتم أمرتم وتفضلتم بذلك!! فقال: بلى، ولكني الآن لا أشتهي أكل العنب!! ومع إصرار الحاضرين على معرفة سبب هذا الموقف من الشيخ أخذ الشيخ يستفسر عن بعض الأمور الشرعية ويسأل صاحب الحديقة إن كان يؤدي زكاة أموالها وخمسها، وكذلك أخذ يسأل عن أرض الحديقة والمياه التي تسقى بها الأشجار مِلكا أو غصبيا وغير ذلك من الأسئلة الشرعية، وكان صاحب الحديقة يجيب على ذلك كله بالإيجاب، فقال الشيخ: إني كنت أشتهي العنب قبل قليل والآن لا أشتهيه فلابد أن يكون هناك سبب لذلك!! فأقبل رجل كان يعمل في الحديقة وقال: مولاي أتأذنون لي أن أقول لكم شيئا؟! قال: تفضل، قال: في الحقيقة أنكم تفضلتم وطلبتم العنب الحلو وعنب حديقتنا حامض لم ينضج بعد ولما رأيت عالما جليلا وشخصية محترمة مثلكم يطلب عنبا اضطررت أن أذهب إلى حديقة جارنا وأقطف من أشجارها عنبا وآتي به إليكم ثم أستأذن من صاحبها فيما بعد!!

وقد قال بعض العرفاء: «ألا ترى أهلَ الورعِ إذا حماهم اللهُ من أكلِ الحرامِ من بعضِ علاماتِه أن يتغيَّرَ في نظرِه ذلك المطعومُ إلى صورةٍ محرَّمةٍ عليه فيراه دماً أو خنزيراً مثلا فيمتنعُ من أكلِه فإذا بحثَ عن كسبِ ذلك الطعامِ وجدَه مكتَسَباً على غيرِ الطريقةِ المشروعةِ في اكتسابه، فلأهلِ الله تعالى أعينٌ يبصِرون بها وآذانٌ يسمعون بها وقلوبٌ يعقلون بها وألسنةٌ يتكلَّمون بها غير ما هي هذه الأعينِ والآذانِ والقلوبِ والألسنةِ عليه من الصورةِ»!!

أيها السالك إلى الله عليك بالسعي والاجتهاد في صقل مرآة قلبك لتنفض عنه غبار التعلقات وتكون على الدوام في محضر رب العالمين وفي خدمته ممتثلا لأوامره منتهيا بنواهيه، فبالحرية التامة من

رق الأغيـار تصـل إلى محض العبودية لله عزَّ وجلَّ، واسـتعن في ذلك بالله سـابغ النعمة وهو المسـتعان وعليه التكلان.

الهوامش

(١) سورة فاطر: آية ١٥

(٢) سورة مريم: آية ٩٣

(٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٦ ص ٩٣

(٤) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١١ ص ٢١٥، وقيل أن السائل هو حارثة بن مالك النعماني

(٥) أصول الكافي: ج ٢ ص ٨٩

(٦) سورة الجاثية: آية ٢٣

(٧) إحياء العلوم ج ١ ص ٨٥، المحجة البيضاء: ج ١ ص ٨٥ رواه الطبري من حديث أبي أمامة

(٨) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٣٢٧

(٩) سورة يس: آية ٦٠

(١٠) سورة القصص: آية ٨٨

(١١) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ٢٥٥

(١٢) بحار الأنوار: ج ١ ص ٢٢٤ نقلا عن الشيخ البهائي قدس الله روحه.

(١٣) المحجة البيضاء: ج ٥ ص ٦،كنوز الحقائق: ص ١٤، غوالي اللآلئ: ج ٤ ص ١١٨، بحار الأنوار: ج ٧٠ ص ٦٤، يقول بعض العرفاء أن العبودية انقياد لأحكام الربوبية والأحكام إما أوامر تطلب من النفس فعل ما تريد تركه أو نواهٍ تطلب منها ترك ما تريد فعله وهي كلها مكاره للنفس وحبسها عليها حقيقة العبودية.

(١٤) سورة يوسف: آية ١٠٦، ويقول السيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية المباركة أن المراد بالشرك في الآية بعض مراتبه الذي يجامع بعض مراتب الإيمان وهو المسمى باصطلاح فن الأخلاق بالشرك الخفي!! ويقول رضي الله عنه: أن تلبس الإنسان بالإيمان والشرك معا مع كونهما معنيين متقابلين إنما يكون من جهة كونهما من المعاني التي تقبل في نفسها القوة والضعف.... فترى من يدعي الإيمان بالله يخاف وترتعد فرائصه من أي نائبة أو مصيبة تهدده وهو يذكر أن لا قوة إلا بالله ويلتمس العزة والجاه من غيره وهو يتلو قوله تعالى إن العزة لله جميعا وعلى هذا القياس.

(١٥) أصول الكافي: ج ٢ ص ٧٣

(١٦) من لا يحضره الفقيه: ج ٤ ص ٣٧٨

(١٧) بحار الأنوار: ج ٤٦ ص ٦١ نقلا عن الخصال للشيخ الصدوق

(١٨) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١١ ص ٣

(١٩) سورة آل عمران: آية ١٨٥، سورة الأنبياء: آية ٣٥، سورة العنكبوت: آية ٥٧

(٢٠) سورة سبأ: آية ٥٤

(٢١) سورة يوسف: آية ٣٩

(٢٢) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ٢٠ ص ١٧٣، اللماظة: ما تبقَّى في الفم من الطعام.

(٢٣) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٢٠٢، وعفطة عنز ما تنثره من أنفها.

(٢٤) بحار الأنوار: ج ٧٨ ص ١٩٣ نقلا عن تفسير على بن إبراهيم

(٢٥) سورة الحديد: آية ٢٣

(٢٦) بحار الأنوار: ج ٤٠ ص ٣٢٢، شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١٨ ص ٢٢٤

(٢٧) آية الله العظمى الحاج الشيخ عبدالكريم بن محمد جعفر المهجردي الميبدي اليزدي الحائري (قده) من أعاظم العلماء والمراجع ومن أكابر مدرسين الإمامية، كان مشهورا بآية الله المؤسس، ولد عام ١٢٧٦ هـ في قرية مهجرد إحدى قرى ميبد الواقعة في مدينة يزد، حضر دروس كبار الأساتذة والعلماء الأجلاء أمثال الميرزا الشيرازي الأول (آية الله العظمى الميرزا محمد حسن الشيرازي - صاحب فتوى التنباكو المتوفى عام ١٣١٢ هـ) والميرزا الشيرازي الثاني (آية الله العظمى الميرزا محمد تقي الشيرازي ١٢٧٠ - ١٣٣٨هـ) والشهيد الشيخ فضل الله النوري والسيد محمد كاظم اليزدي والشيخ محمد كاظم الخراساني، انتقل عام ١٣٤٠ هـ من مدينة أراك إلى قم وأسس فيها الحوزة العلمية المقدسة واستفاد منه كثير من المجتهدين والأفاضل المعاصرين منهم آية الله العظمى السيد محمد حجترضي الله عنه وآية الله العظمى السيد صدر الدين الصدررضي الله عنه - والد الإمام السيد موسى الصدر - والسيد أحمد الخونساري والسيد شهاب الدين المرعشي والسيد محمد رضا الكلبايكاني والحاج السيد رضا الزنجاني والآخوند ملا علي الهمداني والسيد محقق داماد - وهو صهره - والسيد محمد تقي الخونساري، وقد ترك مؤلفات قيمة في الفقه والأصول، وتوفي عام ١٣٥٥ هـ، وحسب قول تلميذه السيد الصدر أن تاريخ وفاته يطابق هذه الجملة «لدى الكريم حلَّ ضيفا عبدُه» - مقتبس من سراج المعاني ص ٦٨

والحديث في إخلاص هذا الرجل العظيم يطول وقد كانت لكاتب هذا المقال روابط متينة مع ابنه الشيخ مرتضى الحائريرضي الله عنه الذي كان بدوره مرجعا من مراجع التقليد ومجتهدا جامعا للشرائط وتوفي عام ١٤٠٦ هـ في قم وكذلك ابنه الثاني العلامة العبقري والفيلسوف الدكتور الشيخ مهدي الحائري اليزدي الذي توفي عام ١٤٢٠هـ وهو عالم متبحر في الفلسفة والعرفان والفقه والأصول ويقول: أرى - حسب تحقيقاتي - أنه - أي ابنه الثاني - من أعظم فلاسفة الشرق والغرب في عصرنا هذا، وكنت قد سافرت مع ابنه الأول إلى مشهد الإمام الرضاعليه السلام كرارا، وفي إحدى هذه الأسفار كان السيد عبدالباقي ابن السيد العلامة الطباطبائي وصهر الشيخ مرتضى الحائري مرافقا لنا، وكان الشيخ الحائري يقول لنا في أثناء الطريق نقلا عن والده: والله لم أسع لحظة واحدة من عمري للوصول إلى مقام المرجعية ولكن حينما فرضت عليَّ قبلتها، ونصيحتي لك أن لا تسعى للحصول على هذا المقام الخطير وإن فرضت عليك فلا تقبلها وافتح المجال للآخرين لتحمل مسؤولية المرجعية أمام الله!! فانظر كيف يريد الوالد الأستاذ في هذا المكتب التعليمي والتهذيبي أن يهذب ولده ويعطيه درسا في الأخلاق والإيمان والتقوى حتى إذا وصل يوما إلى مقام المرجعية يعرف ابنه كيف يتحمل مسؤولية هذا المقام العظيم.

المنزل (١٨)

السُّكُونُ عِنْدَ المُحِب

السكون خلاف الحركة وهو حالة نفسانية في قلب العارف والسالك إلى الله ويعني الشعور بالهدوء والاطمئنان في ظل رب العالمين وكنف عنايته وصونه لا يشوبه تحيُّر ولا ارتياب ولا تشويش، والإنسان في حالاته الطبيعية حينما يقف في ظل بناية أو تحت ظل شجرة أو مظلة يعلم الفرق بين هذه الظلال المختلفة، كذلك العارف والسالك إلى الله الذي يعيش في ظل عناية الحق تبارك وتعالى يشعر بالأمن والطمأنينة بالله سبحانه ويسكن قلبه لما اطمأن إليه ويفرِّق بين ظله سبحانه والظلال الأخرى، والله سبحانه وتعالى ما أمرنا بقوله: ﴿.... فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً﴾[1] إلا لنسكن به ويكون هو سبحانه المتصرف في أمر عبده.

وقد صنَّف الخواجه نصير الدين الطوسي(قده) في ذيل تفسير الآية المباركة: ﴿....ألا بِذِكْرِ الله تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[2] السكون إلى صنفين:

الصنف الأول: سكون خاص بأهل النقصان ومنشأه الغفلة وهو مقدَّم على السلوك.

الصنف الثاني: سكون خاص بأهل المعرفة والكمال ومنشأه اليقظة وهي حالة يحصل عليها العارف بعد السلوك، فالسالك إلى الله حينما يسلك طريق الحق ويشعر بكمال المطلوب فإن الحالة الحاصلة من الوصول إلى الكمال واليقين يقال لها السكون.

على هذا فهناك نوعان من السكون سكون أهل النقصان وسكون أهل الكمال، وتُعرَف الحركة بين السكونين بالسلوك إلى الله، بمعنى أن السالك في سلوكه إلى الله يكون بين السكون الأول والسكون الثاني.

وأما السلوك أو الحركة فهي من لوازم الشوق والمحبة الصادقة، لأن الشوق حركة روحانية للقاء

المحبوب، ولولا الحركة الشوقية لا يمكن الانتقال من السكون الأول إلى السكون الثاني، وعلى السالك إلى الله أن لا يتوقف أثناء السير بل يستمر في سلوكه إلى أن يطمئن بالوصول إلى السكون الحقيقي الصادق المقارن للوصول إلى الحق تبارك وتعالى، ولذا قيل: لَو سَكَنَ المُحِبُّ هَلَكَ.

على سبيل المثال حينما يتعلق قلب رجل بامرأة جميلة ويدخل حبها في قلبه لا يهنأ له عيش ولا يحلو له نوم ويبيت طوال ليله في التفكر والخيال!!

عَجَبٌ لِلْمُحِبِّ كَيْفَ يَنامُ
كُلُّ نَوْم عَلَى المُحِبِّ حَرام

والحب المجازي ليس عارٍ عن الشوب والشين لأنه ينبع من أهواء وميول شهوانية وحيوانية في حين أن العشق الحقيقي لا يكون إلا بعد التجرد الكامل من الأهواء والميول الشهوانية وتبعاتها.

أو كالماء الجاري الذي يستمر في جريانه أو نزوله من سفح الجبل إلى أن يصل إلى المقصد فيستقر على خبت [٣] أو يدخل في البحر.

يقول مولانا جلال الدين الرومي:

اگر تو یار نداری چرا طلب نکنی
وگر به یار رسیدی چرا طرب نکنی

يعني بذلك أن الإنسان يعيش بين طلب وطرب، فالطلب بداية السلوك، والطرب عند الوصول إلى المقصد.

وقد أشار مولانا جلال الدين الرومي إلى معاني العشق الإلهي الحقيقي والصادق بأبيات من الشعر (بالفارسية) فقال:

عشق هائی کز پی رنگی بود
عشق نبود عاقبت ننگی بود
شاد باش ای عشق پر سودای ما
ای دوای جمله علتهای ما
ای تو افلاطون وجالینوس ما
ای دوای نخوت وناموس ما
نیست بیماری چو بیماری دل
عاشقی پیداست از زاری دل

علـــت عــاشـــق زعلـتـهـا جـــــــداست
عــشـــق اصـطـرلاب اســرار خـــــداست

فالعبـد المسـكين في هـوى المحبوب المجـازي المحكوم عليـه بالـزوال والفناء يكون عديـم القرار دائـم القلـق قليل الصبر كثـير الاضطراب تظهر عـلى ملامحه آثار الفقد والبعاد ولا يشـعر بالسـكون والاطمئنـان إلا بعد الوصول إلى محبوبه فكيف بالعشـق الحقيقي الأبدي للجمال المطلق وهو ذات الله سبحانه وتعالى وأثره على العارف المحب العاشق!!

ولا شـك أن الأمثلة والتشـبيهات التـي نذكرها إنما هي أمثلة في الحب المجـازي وظواهر الطبيعة، ولكـن حينـما تكون الألفاظ قـاصرة عن التعبير عن دقائـق المعاني العرفانية وعاجـزة عن الوصول إلى الحقائق، وإدراكها لا يكون إلا عن طريق الإشـارة والرمز والمجاز، نرى أن نبين تلك المعاني والحقائق بالإشارات والرموز وأمثلة الظاهر.

وأما السـكينة فيقول السـيد العلامة الطباطبائي رضي الله عنه أن السكينة نوع خاص من الطمأنينة النفسانية لـه نعت خـاص وصفة مخصوصة وهي مرتبة عالية من مراتب الروح في القلب وموهبة إلهيـة كما هي مبينـة في الآيــة المباركة: ﴿هُـوَ الَّـذي أنــزَلَ الـسَّــكِـيـنـــَـةَ فِــي قُـلُــوبِ الْمُؤْمِـنِـيـــنَ لِـيَـزْدَادُوا إيـمَـانـاً مَعَ إيـمَـانِـهِـمْ﴾[٤]، وهي حالة نفسـانية حاصلة من سـكون النفس وثباتهـا إلى ما آمنت به ولـذا علـل ذلك بقوله «لِيَزْدَادُوا إيماناً»، والسـكينة عطية إلهية بدليـل اختصاصها في الآيات الكريمة بكلمـة الإنزال أو التنزيل من عند الله سـبحانه وتعالى، وقد ذكر سـيدنا الأسـتاذ العلامـة الطباطبائي أن نزول السـكينة يحتاج إلى حالة قلبية طاهرة وهي الصدق والنزاهة عن إبطان نية مخالفة الله سـبحانه ورسـوله صلى الله عليه وآله وسلم ويقال: «أن المسـتفاد من آيات السـكينة أن نـزولـها (أي السـكينة) متوقـف على طـهارة قـلبـيـة وصـفـاء نـفـسي ســابـق» بدليل قوله ﴿مَعَ إيمانِهِمْ﴾ في الآية المذكورة أي تنزيه سـاحة العبد مـن المعـاصي وارتكاب المحارم واسـتعداد قلبي من الإيـمان والطهارة، وكذلك في قولـه ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِـهِـمْ﴾ مـن الآية: ﴿لَـقَـدْ رَضِــيَ اللهُ عَـنِ الْمُؤْمِـنِـيـــنَ إذْ يُـبَـايِــعُـونَـكَ تَـحْـتَ الشَّـــجَـرَةِ فَـعَـلِـمَ مَـا فِـي قُـلُـوبِـهِـمْ فَـأنـزَلَ السَّـكِـيـنـَـةَ عَـلَـيْـهِـمْ....﴾[٥]!!

وإضافـة إلى المعنـى الظاهري للسـكينة وهو سـكون القلب وعـدم اضطرابه يذكر السـيد العلامة الطباطبائـي رضي الله عنه في معنى السـكينة أنهـا: «روحٌ إلـهـيٌّ أو تسـتـلـزِم روحـاً إلـهـيًّـــا مـن أمْـــر الله تعـالـى يـوجــب سَـكـيـنـةَ الـقـلْـب واسْـتـقْـرارَ النـفْـس وربْـطَ الـجَـأش».

فالعـارف والسـالك إلى الله تعـالى يحصل على مقام السـكون بعـد الوصول إلى الحـق تبارك وتعالى واليقـين بأنه جلت عظمته هو السـند القـوي والركن الوثيق وبالتالي ينقطع عن كل الأسـباب ويزول

عن قلبه كل شـك وارتياب وخوف وحزن، وخير مصداق لهذا القول قصة يوسف الصديق عليه السلام الذي كان في كل أحواله تحت الولاية الإلهية والتربية الربوبية فكان سـاكن القلب سـواء كان في غيابة الجب أو في أوج العز وسرير المُلك حيث لم تؤثر على قلبه النوائب فلم يشعر بالخوف أو الحزن.

والسكون في الاصطلاح العرفاني على ثلاثة مقامات:

- المقام الأول: سكون الطبع
- المقام الثاني: سكون العافية
- المقام الثالث: سكون الحقيقة

فسكون الطبع لأهل العقل والتمييز أي أن مِن طبع السالك العاقل السكون.

وسـكون العافية لأهل السـلامة بالإشارات الغيبية، أي أن الإنسـان يشعر بسلامة النفس والقلب من العيب والريب بإشارات غيبية ومبدأ هذه الإشارات هو غيب الغيوب.

وأما سـكون الحقيقة فهو للبالغين من أهل المعرفة (فأهل المعرفة على أقسـام وقسـم منهم البالغون أو الواصلون).

ويطرح بعض العارفين لكل مقام آفة ولكن البعض يطرح آفة مشتركة بين المقامات الثلاثة ويقولون أن آفة السكون الحرص على جمع حطام الدنيا وحرامها[٦]، والحرص أقوى شعب حب الدنيا والركون إليها وكما قيل أن آخر ما خرج من قلب العارف والسالك إلى الله حب الدنيا والحرص والطمع.

يُحْكَـى أن جماعة ضلوا طريقهم وتاهوا في الصحـراء وأصابهم الجوع والعطش، وبينما هم يقطعون طريق الصحراء بتعب ومشقة إذا بخيمة في وسط الصحراء، فاتجهوا إليها فرأوا امرأة عجوز جالسة في وسـط الخيمة، سـلموا عليها وطلبوا منها شـيئا من الطعام والماء فأدخلتهم الخيمة وقدمت لهم الطعام والماء.

وبعد دقائق راحت العجوز تنظر خارج الخيمة يمينا وشمالا كأنها تنتظر أحدا، فسألها أحدهم: هل تنتظريـن أحدا؟! قالت: نعم، أنتظر ابني يرجع ليقوم بواجبات الضيافة، وبينما كنا جالسـين في الخيمة نتحدث إذ أقبل رجل على ناقة ويجـر معه ناقـة أخـرى، فقـامت العجوز وهي تقول: هذه ناقـة ابنـي ولكـن أيـــن ابنـــي!! إني لا أراه راكبـا على ناقتـه!! فسـألت الرجـل في ذلك وهي في غاية السـكون والهدوء فقال لها: هذه ناقة ابنك، فقالت: ما الخبر؟! قال: نفرت الناقة وهاجت وسـقط ابنك في البئر ومات!!

فالتفتـت المـرأة العجـوز إلى ضيوفها وقالـت: لا تهتموا بالأمر، سـوف أطلب من هـذا الرجل أن يسـاعدني في الضيافـة وتهيئـة الطعام!! وبعد تناول الطعام سـألتهم إن كانوا يحفظون شـيئا من القرآن

فقرأ أحدهم هذه الآية المباركة: ﴿وَلِنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَراتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إذا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إنَّا لله وإنَّا إلَيْهِ راجِعُونَ *﴾[٧] فقالت: إنْ كان الناس كلهم آئلين إلى الموت والفناء فابني واحد منهم وسوف يؤجرني ربي بخير منه، وأما إذا كانوا أحياء مخلدين في هذه الدنيا فكيف يموت رسول الله ﷺ وهو أعز الخلق وأكرمهم عند الله!!

ثم رفعت رأسها إلى السماء وقالت: اللّهم إني قد فعلت ما أمرتني فأنجز لي ما وعدتني.

ولله تبارك وتعالى في آياته مواعيد للعارفين والسالكين إلى الله وأولئك الذين يصبرون لله بأن يفتح لهم أبواب الخير والرحمة والمغفرة والرضوان.

الهوامش

(١) سورة المزمل: آية ٩

(٢) سورة الرعد: آية ٢٨

(٣) الخبت: ما اتسع من بطون الأرض أو ما اطمأن من الأرض.

(٤) سورة الفتح: آية ٤

(٥) سورة الفتح: آية ١٨

(٦) الصفات تكون مذمومة حينما يكون متعلقها ومصرفها مذموم لأن الصفات النفسية جِبِلِّية ذاتية ولازمة لها في أصل خلقتها ومن المحال عدمها في نشأة الدنيا ولما لم يمكن تبدلها بيَّن لها الله تعالى مصارف مشروعة فإذا صرفت في الوجوه الشرعية كانت محمودة أما إذا صرفت بخلاف ذلك كانت مذمومة، وعلى هذا فالصفات التي علق الذم بها إنما علق الذم بمصارفها لا بأعيانها فالخوف من غير الله مذموم ولكن الخوف من الله ومن إتيان المعصية محمود والتكبر في حد ذاته مذموم ولكن إذا كان التكبر بالله على من تكبر عن أمر الله فهو محمود ولا يذم الإنسان بالحرص إنما يذم بصرف الحرص على حطام الدنيا وحرامها، وقد نبه رسول الله ﷺ على أن الحرص على الخير والإسراع إليه تقربا إلى الله تعالى هو المطلوب.

(٧) سورة البقرة: آية ١٥٥ – آية ١٥٦

المنزل (١٩)

المَكْرُ عِنْدَ المُحِب

قبل الورود في بحث المكر وما يتعلق به لابد أن نشير إلى حقيقة هامة وهي:

أن هناك أسماء وصفات إلهية أمر الحق تبارك وتعالى عباده الاجتهاد في التخلق بها والظهور بها على الحد المشروع والمحمود ليجزيهم عليها أحسن الجزاء كالرحمة والرأفة والكرم واللطف والإحسان وأسماء وصفات أخرى نهاهم عن التخلق بها كالكبر والمكر والقهر والانتقام وغيرها لما بها من الذم لمن تسمى بها، وحينما ترد بعض الأسماء والنعوت الإلهية في القرآن الكريم وتنسب إلى الكافرين أو المنافقين أو الظالمين وغيرهم من أعداء الله بصورة ذم أو استهزاء أو سخرية فهذا يعني أنها أسماء ونعوت خاصة بالله عزَّ وجلَّ ولابد للعبد أن يعتزلها ويتجنب ضررها كقوله عزَّ وجلَّ: ﴿.... كَذلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾[١] وقوله: ﴿.... فَلَبِئْسَ مَثْوَى المُتكَبِّرينَ﴾[٢] وقوله سبحانه: ﴿وَإِذا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾[٣]، فالتكبر والتجبر صفتان جلاليتان ينفرد بهما الحق تقدست أسماؤه ولا يشركه فيهما أحد ولا ينبغي للعبد أن يزاحم ربه في الاتصاف بهما على الإطلاق وليستا كسائر الصفات التي قد يتحلَّى بها العبد عرَضا ومجازا فتكون فيه صفة محمودة وممدوحة، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى في الحديث القدسي: «الفَخْرُ رِدائي والكِبْرِياءُ إزاري مَن نازَعَني في شيءٍ مِنْهما عَذَّبته بناري»[٤].

ومن الصفات المقصورة على الحق سبحانه والمحجورة على الخلق صفة المكر، والمكر - كما قيل - إخفاء مُرادٍ في غير مُرادٍ لتوهُّم أنَّه هو المُراد[٥].

والمكر ضربان مكر محمود ومكر مذموم، وأما بيان ذلك:

١ - المكر المحمود:

وهو ما كانت نسبته إلى الحق تبارك وتعالى وهي تختلف عن نسبتها إلى الخلق فإنه ليس كمثله شيء، ولو لم يكن بعض المكر محمودا لما وصف الله تعالى نفسه بالمكر والخداع والاستدراج، فهو القائل سبحانه وتعالى: ﴿.... وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[٦]!!

وقد قال بعض مشايخ العرفان في معنى المكر أنه: «إرداف[٧] النعم مع المخالفة وإبقاء الحال مع سوء الأدب وإظهار الآيات والكرامات من غير أمرٍ ولا حدٍّ»، فالمكر يشمل حال الكافر والمؤمن والجاهل والعارف، وعلى هذا قسم المكر حسب طوائف الناس إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: خاص بالعموم من الناس، وهو ما يستتر خلف بسط النعم للعبد وتواليها وتتابعها على أثر مخالفته للشرع وذلك بإمهاله لا إهماله واستدراجه بالصحة والسلامة وطول العمر وتظاهر النعمة وكلها تنتهي إلى الشقاء، والمكر في الإنعام أخفى منه في الابتلاء وذلك لشدة حب الذات وفرط الأنانية ولزوم الدعوى والتشبه بالربوبية ورؤية الإنسان النعمة من باب الاستحقاق لا من باب الفضل والمنة، ولذا ذُيِّلت آيات المكر بعدم الشعور والعلم والمعرفة.

وقد سئل الإمام الرضا عليه السلام عن قوله عزَّ وجلَّ ﴿سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ﴾ وقوله ﴿يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ وقوله ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ﴾ و قوله ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ فقال عليه السلام: «إنَّ اللهَ لا يَسْخَرُ ولا يَسْتَهْزِئُ ولا يَمْكُرُ ولا يُخادِعُ ولَكِنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُجازيهِمْ جَزاءَ السُّخْرِيَةِ وجَزاءَ الاسْتِهْزاءِ وجَزاءَ المَكْرِ والخَديعَةِ تعالَى اللهُ عَمَّا يَقولُ الظَّالِمونَ عُلُوًّا كَبيراً»!![٨]

فالله تبارك وتعالى إذا أراد أن يأخذ عبدا يأخذه من حيث مورد غروره، فإن كان مغرورا بعلمه يأخذه الله تعالى بعلمه كبلعم الباعور وإن كان مغرورا بقوته وقدرته وكثرة جنوده وحشوده يأخذه الله تعالى بقوته وقدرته كفرعون، وكذلك في المكر والخداع فالله سبحانه وتعالى يأخذ الإنسان من حيث هذا المورد فيمكر به بالعقوبة والعذاب.

وقد يكون المكر بزوال النعم مع موافقة الشرع وأداء العبادات وفعل الطاعات ابتلاء من الله لعباده: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ....﴾[٩] فاحذر أن تيأس من روح الله: ﴿.... إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الكافِرونَ﴾[١٠]!!

القسم الثاني: خاص بالسائرين إلى الله وأصحاب الأحوال والمقامات، وهو يخفى في البقاء على الحال والتلذذ به مع إساءة الأدب مع الحق فيتخيل للسالك أنه لو لم يكن على صراط الحق لتغير عليه حاله وما هو في الحقيقة إلا نقصان الحظ من حقائق الغيب وربما هو تعجيل للعطية والانقلاب إلى دار الآخرة صفر اليدين، أما إذا كان الحال والمقام يزيد في التقرب والترقي مع حفظ أدب المحضر

فهذا ليس بمكر بل عناية من الله عز وجل، فعلى السالك إلى الله أن يعرف أن الهدف ليس ركوب بحر الأحوال والمقامات والسلوك إلى الله تعالى والتوقف فيه والذي يؤول في الخاتمة إلى الغرق والهلاك بل الهدف عبور هذا البحر والوصول إلى غاية الغايات ومنتهى التحركات وهو الحق تبارك وتعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنتَهَى﴾[١١].

القسم الثالث: وهو المكر في خاص الخاص من العارفين فيُمكَرون بإظهار شيء من الكرامات وخرق العادات [١٢] دون أمر إلهي.

ولا ينبغي للعبد أن يأمن مكر الله طرفة عين أبدا فمكره خفي لا يُشعَر به: ﴿وَمَكَرْنَا مَكْراً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾[١٣] ولا يُعلَم به: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمونَ﴾[١٤] وإذا كاد فإن كيده متين: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[١٥]، ومَن أمِن مكر الله فقد لحق بأصحاب الهلكة والحرمان وأهل الخيبة والخسران ﴿.... وَلا يَأْمَنُ مَكْرَ الله إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾[١٦]، ولا يخفى على السالك المؤمن أن الأمن من المكر في حد ذاته مكر إلهي وعاقبته العذاب والخسران المبين.

فعلى السالك إلى الله بعد الوصول إلى مقام السكون والطمأنينة واليقين والأنس بالله أن لا يحسب أنه وصل إلى الغاية والكمال فيألف المقام وقتا بعد وقت ويركن إليه ويقف عنده فإن لله جلت عظمته في كل حال مكر خفي ومستور لا يأمنه أحد، وللعصمة من المكر الإلهي لابد من لزوم العبودية في كل حال والعلم بالميزان الإلهي المشروع.

ومن دعاء الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه أفضل صلوات المصلين (المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي): «إلهي لا تُؤَدِّبْني بعُقوبَتِكَ ولا تَمْكُرْ بي في حيلَتِكَ»، وكما نعلم يقينا أن لله عزَّ وجلَّ عقوبات كما نقول في دعائنا: «أيْقَنْتُ أَنَّكَ أرْحُ الراحِمينَ في مَوْضِعِ العَفْوِ وَالرَّحْمَةِ وَأشَدُّ المُعاقِبينَ في مَوْضِعِ النَّكالِ وَالنَّقِمَةِ»، وعلي بن الحسين ﷺ يبين مصداق عقوبة رب العالمين بقوله: «لا تَمْكُرْ بي في حيلَتِكَ»، وعلى هذا فالمفهوم الحقيقي لمكر رب العالمين هو عقابه وعذابه.

٢ - المكر المذموم:

وهو المنسوب إلى الخلق والمشار إليه في القرآن بالمكر السيء، فالمكر السيء رذيلة أخلاقية من رذائل القوة العاقلة وخصلة مذمومة وهو الاستعانة بطرق ووسائل خفية لإصابة الآخرين بالمكروه والأذى من حيث لا يشعرون أو صرف الغير عما يقصده بحيلة، وقد نهى عنها رسول الله ﷺ بقوله: «مَن كانَ مُسْلِماً فلا يَمْكُرُ ولا يَخْدَعُ فإنّي سَمِعْتُ جَبْرَئيلَ ﷺ يقولُ إنَّ المَكْرَ والخَديعَةَ في النَّارِ»[١٧] وكذلك قوله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ماكَرَ مُسْلِماً»[١٨]!!

وللمكر ألفاظ مترادفة كالخدعة والحيلة والنكر والدهاء، والمكر وإن كان بأنواعه المختلفة يتميز

بالخفاء إلا أنه ذو مراتب كثيرة حسب درجات الخفاء، فقد يكون فيه شيء يسير من الخفاء فيشعر به الغير ويفهمه بأدنى إشارة وقد يصل إلى أعلى مراتب الخفاء بحيث لا يتفطن إليه الأذكياء وهذا ما يطلق عليه بالمكر الخفي.

ولكن كيف يمكن التعرف على المكر الخفي؟!

كما أن الإنسان يرى عيوبه الظاهرية وأمراضه الجسدية بعينيه أو بواسطة المرآة أو عن طريق الآخرين وكلها وسائل ظاهرية كذلك لمعرفة العيوب الباطنية والأمراض الخفية لابد من معرفة النفس، فالنفس الإنسانية بطبعها تميل إلى المكر والحيلة لولا لجام الإيمان والتقوى كما في قول أمير المؤمنين عليه السلام: «لولا أنَّ المَكْرَ والخَديعَةَ في النَّارِ لَكُنْتُ أمْكَرَ النَّاسِ»[١٩]!! وقوله عليه السلام: «لَوْلا الدِّينُ والتُّقَى لَكُنْتُ أدْهَى العَرَبِ»[٢٠]!! فالمكر والخداع ليسا من صفات الأولياء الصالحين وإن كانوا أعقل خلق الله ويعلمون خفايا الأمور وبواطنها، وأظهر مثال على ذلك حينما كان الناس ينسبون معاوية إلى الدهاء والعقل لما كانوا يرون منه من إصابة أهدافه بالمكر والغدر والحيلة وهم لا يشعرون وينسبون أمير المؤمنين عليه السلام بضعف الرأي والسياسة فبين عليه السلام أنه أعرف بتلك الحيل والمكائد ولكنها لما كانت مخالفة لأوامر الله ونهيه امتنع عنها، وقد سئل الإمام الصادق عليه السلام في معنى العقل فقال: «ما عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ واكْتُسِبَ بِهِ الجِنانُ» فقيل له: فالذي كان في معاوية؟! فقال عليه السلام: «تِلْكَ النَّكْراءُ وتِلْكَ الشَّيْطَنَةُ وهِيَ شَبِيهَةٌ بالعَقْلِ ولَيْسَتْ بعَقْلٍ»[٢١]!!

نستنبط من هذه الرواية مدى خطورة المكر وآثاره على الآخرين وأنه من المهلكات ومن عمل الشيطان وجنوده المتصفين بهذه الصفة الرذيلة بل هي من أظهر صفاتهم، وإثمه أعظم من إثم إيذاء الغير وإصابته بمكروه علانية لأن في هذه الحالة يكون الطرف الآخر مستعدا ومحتاطا لمواجهة المعتدِي عليه وقد يدفع شره عن نفسه، وأما في حالة المكر والخديعة يكون الطرف الآخر في غفلة عما يجول في نفس الماكر له من خبث ولؤم فلا يأخذ في هذا المقام حذرا ولا حيطة ظنا منه بحسن نيته ومحبته له فيصاب بالمكروه والأذى من حيث لا يشعر.

وقد يكون الإنسان عاجزا عن البحث عن وسائل للمكر والحيلة فيستخدم الغير لهذا الغرض الدنيء حتى ينال من الآخرين بتلك الوسيلة.

ولعلاج المكر طريقان:

الطريق الأول: إذا عرف الإنسان أن المكر المذموم من أظهر صفات الشيطان والماكر المتصف بهذه الرذيلة النفسانية يكون من حزب الشيطان ومن محبيه ومواليه من حيث يعلم أو لا يعلم كما قال تعالى: «اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِياؤُهُمُ الطَّاغُوتُ

يُخْرِجونـَهُـمْ مِـنَ النـُّورِ إِلَى الظُّلُـماتِ....»[٢٢] وأنه يحشر يوم القيامة في زمرة الشياطين ويكون مأواه جهنم وبئس المصير حينئذ ينصرف كلية عن اتباع أساليب المكر والحيلة في إيذاء الآخرين!!

الطريق الثاني: أن يعلم الإنسان أن المكر يعود على نفسه في الدنيا قبل جزاء الآخرة كما ورد في الآيات القرآنية كقوله عزَّ وجلَّ ﴿....وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إلاَّ بـأَهْلِهِ....﴾[٢٣] وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يُخَادِعونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾[٢٤]، وكما ورد في الروايات عن أمير المؤمنين عليه السلام: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فيهِ كُنَّ عَلَيْهِ الـمَكْرُ والنَّكْثُ والبَغْيُ»!!

وعن الصادق جعفر بن محمَّد عليه السلام أن عيسى بن مريم عليه السلام توجه في بعض حوائجه ومعه ثلاث نفر من أصحابه فمر بلبنات ثلاث من ذهب على ظهر الطريق فقال عيسى عليه السلام لأصحابه: إن هذا يقتل الناس، ثم مضى، فقال أحدهم إن لي حاجة فانصرف ثم قال الآخر إن لي حاجة فانصرف ثم قال الآخر لي حاجة فانصرف فوافوا عند الذهب ثلاثتهم فقال اثنان لواحد اشتر لنا طعاما فذهب يشتري لهما طعاما فجعل فيه سمًّا ليقتلهما كي لا يشاركاه في الذهب وقال الاثنان إذا جاء قتلناه كي لا يشاركنا فلما جاء قاما إليه فقتلاه ثم تغذيا فماتا فرجع إليهم عيسى عليه السلام وهم موتى حوله فأحياهم بإذن الله تعالى ذكره ثم قال: ألم أقل لكم إن هذا يقتل الناس!![٢٥]

أيها السالك إلى الله!! بعدما عرفت أن المكر ذنب خفي من ذنوب القلب وعرفت آثاره السلبية على النفس وطرق علاجه لابد من العزم على تركه شيئا فشيئا حتى يطهر منه قلبك تماما وذلك بمحاسبة نفسك أدق المحاسبة ومراقبتها أشد المراقبة حتى لا يجد المكر سبيلا للنفوذ إلى قلبك ثانية.

وأما العرفاء الواصلون وأصحاب السر فهم في خوف دائم من هذه الرذيلة الخفية والعظيمة وخاصة إذا كان مكرا مع الله عزَّ وجلَّ لأنه متى ما نفذ إلى القلب نبت فيه وتشعبت جذوره حتى يصير مَلَكة ثم يصعب بعد ذلك إزالته ولا يكون مصيره إلا الخسران المبين في الدنيا والآخرة.

اللَّهم لا تجعل ما سترت من العيوب والعورات وأخَّرت من تلك العقوبات مكرا منك واستدراجا لتأخذني به يوم القيامة وتفضحني بذلك على رؤوس الخلائق واعف عني في الدارين كلتيهما يا رب فإنك غفور رحيم.

اللَّهم بحق محمَّد وآل محمَّد لا تؤمنا مكرك ولا تنسنا ذكرك ولا تكشف عنا سترك ولا تحرمنا فضلك ولا تحل علينا غضبك ولا تباعدنا من جوارك ولا تنقصنا من رحمتك ولا تنزع منا بركتك ولا تمنعنا عافيتك وأصلح لنا ما أعطيتنا وزدنا من فضلك المبارك الطيب الحسن الجميل ولا تغير ما بنا من نعمتك ولا تؤيسنا من روحك ولا تُهِنَّا بعد كرامتك ولا تضلنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

الهوامش

(١) سورة غافر: آية ٣٥

(٢) سورة النحل: آية ٢٩

(٣) سورة الشعراء: آية ١٣٠

(٤) بحار الأنوار: ج ٢٣ ص ٢٦٦، وورد عن النبي ﷺ أنه قال حاكيا عن الله تعالى: «العَظَمَةُ إزاري والكِبْرِياءُ رِدائي فَمَنْ نازَعَني فيهما قَصَمْتُهُ» - منية المريد: ص ٣٣٠ نقلا عن إحياء علوم الدين: ج ١ ص ٤٠، ج ٣ ص ٢٩٠ وسنن ابن ماجة: ج ٢ ص ١٣٩٧ وتنبيه الخواطر: ج ١ ص ١٩٨

(٥) شرح كلمات بابا طاهر (لعين القضاة الهمداني) - باب المكر والاستدراج

(٦) سورة آل عمران: آية ٥٤، سورة الأنفال: آية ٣٠

(٧) الإرداف: التتابع

(٨) بحار الأنوار: ج ٣ ص ٣١٨ نقلا عن التوحيد ومعاني الأخبار للشيخ الصدوق

(٩) سورة محمد: آية ٣١

(١٠) سورة يوسف: آية ٨٧

(١١) سورة النجم: آية ٤٢

(١٢) يقسم العرفاء الكرامة إلى قسمين: كرامة حسية وكرامة معنوية، فالحسية منها كالمشي على الماء واختراق الهواء وطي الأرض والكلام على الخواطر والإخبار عن المغيبات واستجابة الدعاء في الحال وقد يدخل في هذا القسم المكر الخفي، وأما الكرامة المعنوية فهي خافية عن العوام ولا يعرفها إلا الخواص من العباد وهي أن تحفظ عليه آداب الشريعة والتوفيق في مراعاة حقوق الله والمحافظة على أداء الواجبات في أوقاتها والمسارعة إلى الخيرات وإزالة الرذائل من الصدر وطهارة القلب من الصفات المذمومة وتحليته بالمراقبة وكلها كرامات معنوية لا يدخلها المكر والاستدراج.

(١٣) سورة النمل: آية ٥٠

(١٤) سورة الأعراف: آية ١٨٢

(١٥) سورة الأعراف: آية ١٨٣

(١٦) سورة الأعراف: آية ٩٩

(١٧) بحار الأنوار: ج ٧١ ص ٣٨٧ نقلا عن عيون أخبار الرضا وأمالي الشيخ الصدوق

(١٨) أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٣٧

(١٩) أصول الكافي: ج ٢ ص ٣٣٦

(٢٠) شرح نهج البلاغة (لابن أبي الحديد): ج ١ ص ٢٨

(٢١) محاسن البرقي: ص ١٩٥

(٢٢) سورة البقرة: آية ٢٥٧

(٢٣) سورة فاطر: آية ٤٣

(٢٤) سورة البقرة: آية ٩

(٢٥) بحار الأنوار: ج ١٤ ص ٢٨٤ نقلا عن أمالي الشيخ الصدوق

المنزل (٢٠)

الحَرَكَةُ عِنْدَ المُحِب

يصنِّف العرفاء الحركة حسب ما يثيرها إلى سبعة أنواع: حركة طبيعية، وحركة نفسية، وحركة روحية، وحركة وجدية، وحركة قلبية، وحركة سرية، وحركة غيبية.

النوع الأول: الحركة الطبيعية

يقول الحكيم الإلهي صدر المتألهين الشيرازي (قده) في تعريف الحركة الطبيعية: إن الحركة في الأمور الطبيعية هي كل خروج من القوة إلى الفعل في أي مادة كان على التدريج [١]، وإن لجميع الطبائع حركة معنوية غريزية إلى الباري جل ذكره لأنه الوجهة الكبرى [٢].

النوع الثاني: الحركة النفسية

النفس هي عين الشيء وذاته، أو هي مجموعة لطائف تركيبات البدن، وتسمى هذه المجموعة بالروح الحيواني [٣] أو النفس الناطقة، ولما كانت النفس بمعنى الذات فالحركة النفسية منبعثة عن ذات المتحرك.

ولكل إنسان روح علوي [٤] تنبثق منه الأنوار والإشراقات، فإذا أشرقت أنوار الروح العلوي على الروح الحيواني فهواه الروح الحيواني ومال إليه وتحرك نحوه هنالك تسمى هذه الحركة بالحركة النفسانية.

ويقول العرفاء وعلماء النفس أن الله سبحانه وتعالى خلق الهوى في مقابل الروح وخلق الشهوة في مقابل العقل وجعل في النفس صورة القبول لجميع الواردات ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [٥]، ولهذا كانت النفس محل التغيير والتطهير ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [٦]، فإن أجابت منادي الهوى وتحركت إليه كان التغيير وإن أجابت منادي الروح وتحركت إليه كان التطهير.

وآفة الحركة النفسية هي السّماع والأغاني التي تجعل الروح الحيواني مضطربا فلا يلتفت إلى إشراقات أنوار الروح العلوي، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾(٧) واللغو كما فسره بعض أهل التفسير هو الغناء والملاهي.

عن عاصم بن حميد قال قلت لأبي عبدالله الصادقﷺ: جعلت فداك إني أردت أن أسألك عن شيء أستحيي منه، قالﷺ: سلْ، قال: هل في الجنة غناء؟! قالﷺ: «إنَّ في الجَنَّةِ شَجَراً يَأمُرُ اللهُ رِياحَها فَتَهِبُّ فَتَضْرِبُ تِلْكَ الشَّجَرَةِ بأصْواتٍ لَمْ يَسْمَعْ الخَلائقُ بِمِثْلِها حُسْناً»!! ثم قالﷺ: «هذا عِوَضٌ لِمَنْ تَرَكَ السِّماعَ في الدُّنْيا مِنْ مَخافَةِ الله»(٨)!!

النوع الثالث: الحركة الروحية

وحيث أن الروح لطيفة من العالم العلوي والجمال الأزلي كانت حركته عند تذكر الملكوت والجنة وجمال الآخرة أو عند مشاهدة أثر منها فينجذب إليه.

النوع الرابع: الحركة الوجدية

وللوجْد معان ومفاهيم كثيرة نبين بعضا منها:

المعنى الأول: أنه حال وهبي يأتي على قلب السالك بعناية ربانية من حيث لا يشعر وبلا جهد ولا تكليف.

المعنى الثاني: أنه كالبرق الخاطف يدخل في قلب الإنسان ويظهر في ملكوته ثم يختفي ولا يمكث كثيرا، وقيل في هذا المعنى أن «الوجْدُ لهبٌ نوريٌّ يشتعل من شهودِ عارضٍ مقلقٍ أي كشفٍ دفعيٍّ الوجود يبدو بغتةً فيقلِق صاحبه» وقيل أيضا أن: «الوجْدُ نور من أنوار الأحوال المشوِّق مقلِقٌ داعٍ إلى الترقـِّي في الأحوال والمواهب سواء كان ذلك الأثر أثراً صوريًّا حسيًّا - كما في الكشف الصوري المثالي - أو معنىً معقولا - كما في الكشف المعنوي العقلي - أو نورا من أنوار الذات الأزلية - كما في التجلي الأسمائي»، ولذا قيل أن الواجد في الحركة الوجدية بين حالتين لا يخلو من إحداهما وهما الظلمة والنور.

المعنى الثالث: - وهو أقوى المعاني - بأن الوجد سر من الأسرار الإلهية بين الرب والعبد فلا تسعه العبارات والألفاظ حتى تبين مفهومه وبالتالي مفهوم الحركة الوجدية، فالسالك إلى الله لا يشعر بالوجد في قلبه إلا بعد انقطاعه عن كدر الأغيار، ومن هنا كان سرا بينه وبين الله تبارك وتعالى، وقيل أيضا أن الوجْد ما يصادف القلب من الأحوال المفنية له عن شهوده وشهود الحاضرين، وقيل أن الوجْد انقطاع الأوصاف عند سِمَة الذات بالسرور أو بالحزن.

و«الـوجـود» شـهود الحـق في حال الوجد أي أن الوجود حال يعقب حـال الوجد، والوجد حال موت إرادي[٩] أو الفناء عن النفس وعن كل ما يتصل بها ويكون حجابا بين العبد وربه، وأما الوجود فهو حالة بقاء مع الرب أو صحو بعد المحو[١٠].

وأما «الـتـواجـد» فهـو اسـتدعاء الوجـد والاجتهاد في تحصيله وتكسُّبه - وشـتان بـين الموهبة والاكتسـاب - أو إظهـار حالـة الوجد من غير وجد، وهي حالة مذمومـة لا يخلو صاحبه من الكذب والريـاء لأن حقيقـة الوجـد في مفاجأته على قلب السـالك بغتة ومصادفة في حـين أن التواجد يتطلب الوقت والزمان لتحصيله.

فالحركة الوجدية في مصطلح أهل العرفان هي نور ينقذف في القلب ويتأجج لهبه عند شهود عارض مقلق، وهو كما قال الشيخ الكاشاني في كتابه القيم «شرح منازل السائرين» على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: وجْد يعرض بغتة يتنبه له شـاهد السـمع أو شـاهد البصر أو شـاهد الفكر فتذهب عنه الغفلة.

الدرجـة الثانية: وجد يسـتفيق له الروح لأنه أعلى مرتبة مـن العقل بلَمْع نورٍ أزليٍّ أي نور من أنوار الوجه الباقي الذي هو الذات الإزلية فلا يدركه إلا الروح بنور الأزل في مقام المشاهدة.

الدرجـة الثالثـة: وجد يخطف العبد من يد الكونين أي يفنيه من شـهود الدنيا والآخرة ويجذبه عن تصرفهما فيه وحكمهما عليه بأن يجعلهما في شهوده عدما صرفا ولا شيئا محضا ويخلِّص حقيقته من دَرَن الحظ فيصفى باطنه ومعناه[١١].

وآفـة الحركـة الوجدية هـي نفس الواجـد، فالأنوار الإلهيـة والنفحـات الرحمانية دائمـة الإشراق والتجـلي فـإن حدثـت وكانت هنـاك فرجة في الحجـب النفسـانية ودخل مـن خلالها شيء مـن أنوار الفيوضـات والإمـدادات العلوية ووصل إلى قلب السـالك هنالـك تحصل له حالة الوجـد، أما إذا لم يكـن الأمـر كذلك ترتد الأنوار ولم يدخـل شيء منها إلى القلب، ومن هنا كانـت أقوال بعض العرفاء بـأن الوجد كالـبرق الخاطف يظهر ثم لا يلبث أن يختفي وذلك لوجود الحجب النفسـانية بين الواجد والموجود.

يقول الشـاعر الفارسي والعارف الكبير الحافظ الشيرازي:

«تـو خـود حـجـاب خـودى حـافـظ از مـيـان بـرخـيـز»

أي أن النفس في حد ذاتها غشاوة لابد من رفعها من البَيْن، فكما أن في النفس آيات الله تبارك وتعالى: ﴿سَـنُرِيهِمْ آيَاتِنَـا فِـي الآفَـاقِ وَفِـي أَنفُـسِـهِـمْ....﴾[١٢] فإنها في الوقت نفسه حجاب بين العبد وربه في قبول الإشراقات والتجليات.

النوع الخامس: الحركة القلبية

ومثارها ذكر الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[١٣] أي أنهم كانوا ساكنين فحرَّكهم ذكر الله تعالى.

النوع السادس: الحركة السرية

ومثارها مشاهدة أسماء الحق جل وعلا وصفاته وهي أجَلُّ نورا وأقوى أثرا من سابقتها من المراتب، فإذا خرج العبد السالك إلى الله من بيت الطبع والنفس مهاجرا إلى الله فقد يشاهد التجليات الإلهية ويفنى عن رؤية نفسه وكل ما سوى الله تبارك وتعالى، وإذا تمكن في المقام واستقام صار شهوده تحققا وصار مظهرا من مظاهر أسماء الله تعالى ويكون الحق سمعه وبصره ويده كما ورد في الحديث القدسي المعروف بحديث قرب النوافل حيث يقول الباري عزَّ وجلَّ: «ما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَيَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّافلَةِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإذا أحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذي يَسْمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الَّذي يُبْصِرُ بِهِ ويَدَهُ الَّتي يَبْطِشُ بها ورِجْلَهُ الَّتي يَمْشِي بها إنْ دَعاني أَجَبْتُهُ وإنْ سَأَلَني أعْطَيْتُهُ»[١٤]!! وهذه أولى مراتب مقام الولاية، وتختلف المراتب في هذا المقام حسب اختلاف تجليات الأسماء الإلهية وشهودها، وأتمها الولاية الأحمدية المطلقة وفيها تجلي الاسم الأعظم المستجمع لجميع صفات الكمال وباقي الأسماء رشحات الاسم الأعظم وتجلياته.

النوع السابع: الحركة الغيبية

ما لم يصل الواجد إلى مقام الفناء في الله تبارك وتعالى لا يمكنه أن يشرع في الحركة الغيبية، فالواجد في مقام الوجد يشعر بنور خاطف في قلبه ثم لا يلبث أن يختفي، مَثَل ذلك كمثل نور الشمس حينما يخترق النافذة بهبوب نسيم ريح لطيف يرفع الستار وقتا ثم يرجع الستار إلى موضعه عند سكون الريح ويختفي النور، كذلك حينما ترتفع الحجب النفسانية يظهر النور ولكن سرعان ما ترجع إلى ما كانت عليه، إلى الوقت الذي يتفانى السالك إلى الله في أصل الوجود بعد غلبة نور الشهود أي بعد احتراق الواجد وفنائه في الوجود ومن ثم تبدأ الحركة الغيبية وهي رؤية الغيب والعلم بالله بلا حجاب وهي أتم مقاما من المشاهدة[١٥].

وتختلف الرؤية عن النظر، فيقول المرء نظرت إلى الهلال ولم أره، أي أن النظر مقدمة موصلة للرؤية، وقد قال المولى عزَّ وجلَّ في كتابه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ....﴾[١٦] ولم يقل: رب أشهدني، لأن الحق مشهود غير غائب عن الأنبياء والأولياء، وقال مولانا الإمام الصادق عليه السلام في دعائه: «وأرِني الحَقَّ حَقًّا حَتَّى أتَّبِعَهُ والباطِلَ باطِلاً

حَـتـَّى أَجْـتـَنِـبَـهُ»(١٧)، فالملاك هنا هو الرؤية.

وكثير من الناس – بما فيهم العرفاء والسالكين إلى الله في بعض المقامات النازلة – ينظرون ولكنهم لا يـرون فيتوقفـون عند النظر دون الرؤيـة، ولذا يمكن القول أن المقام في الحركـة الغيبية لا يعلمه إلا أهل الرؤية لا أهل المشاهدة فضلا عن أهل النظر وغيرهم، وهذا مقام من يقول ما رأيت إلا الله، وهذا مولى الموحدين وقطب العارفين أمير المؤمنين علي عليه السلام حيث يقول: «مـا رَأَيْـتُ شـيـئـاً إلا رَأَيـتُ اللهَ قَـبْـلَـهُ ومَـعَـهُ وبَـعْـدَهُ»(١٨)!!

دلـــي كـــز معـــرفـــت نـــور وصـفـــا ديـــد
بـهـــر چـيـــزى كـــه ديـــد اول خـــدا ديـــد(١٩)

وكثير من العارفين والسـالكين إلى الله حينما يقرأون آيات الجنة في القرآن الكريم تنكشـف أمامهم الحجـب فكأنهم يرون الجنة ويسـمعون أصوات أصحاب الجنـة، أو حينما يقرأون آيات الجحيم كأنهم يرون النار ويسمعون شهيق أهل النار، هذا هو مقام الرؤية.

عن عبد الرحمن بن غنمة قال: دخلنا على معاذ وهو قاعد عند رأس ابن له وهو يجود بنفسه، فما ملكنا أنفســنا أن ذرفت أعيننا وانتحب بعضنا، فزجره معاذ وقال: مه!! فـوالله لعلم الله برضاي لهذا أحب إلي من كل غزوة غزوتها مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فإني سمعته يقول: «مَـنْ كانَ لَـهُ ابْـنٌ وكانَ عليه عَزيـزٌ وبِهِ ضَـنَينٌ وماتَ فَـصَـبَـرَ عَلَى مُـصـيـبـتِهِ واحْـتَـسَـبَهُ أَبْـدَلَ اللهُ الـمَـيِّـتَ داراً خَـيْـراً مِـنْ دارِهِ وقَـراراً خَـيْـراً مِـنْ قَـرارِهِ وأَبْـدَلَ الـمُـصـابَ الـصَّـلاةَ والـرَّحْـمَـةَ والـغُـفْـرانَ والـرِّضْـوانَ»!! فما برحنا حتـى قـضى الغلام حين أخذ المنادي لصلاة الظهر، فرُحنا نريد الصلاة، فما جئنا إلا وقد غسَّـله وكفَّنه وجاء رجل بسريره غير منتظر لشهود الإخوان ولجمع الجيران، فلما بلغنا ذلك تلاحقنا وقلنا: يغفر الله لك يا أبا عبدالرحمن،

هـلا انتظرتـنـا حتى نفرغ من صلاتنا ونشـهد ابن أخينا، فقال: أُمِرنا أن لا ننتظر موتانا سـاعة ماتوا من ليل أو نهار، قال: فنزل في القبر ونزل معه آخر فلما أراد الخروج ناولته يدي لأنتشطه من القبر فأبى وقال: ما أدع ذلك لفضل قوتي ولكن أكره أن يرى الجاهل أن ذلك مني جزع واسترخاء عند المصيبة، ثم أتى مجلسه ودعا بدهن فادهن وبكحل فاكتحل وببردة فلبسها وأكثر في يومه ذلك من التبسم ينوي بـه مـا ينوي، ثم قال: إنا لله وإنا إليه راجعون في الله خلف عـن كل هالك وعزاء من كل مصيبة ودرك لكل ما فات(٢٠).

كان معاذ في حالته تلك يعيش في مقام الحركة الغيبية وقد غلب على قلبه نور الشـهود فكان واجدا متفانيـا في الوجود واصلا إلى مقام الرؤية، هو يقول إني سـمعت ولكنـه في الحقيقة كان يرى ما لا يراه

الآخرون فكانوا لا يرون ويبكون، فالإنسان ما لم يرَ في مقام الشهود كيف يسكن فؤاده عند مصيبة فقد الأولاد وموت الأحبة!! كالذي يأكل طعاما لذيذا وشرابا طيبا فيقدر على وصفه والحكاية عنه بخلاف من لم يذق الطعام اللذيذ والشراب الطيب ولا يتمكن من وصفه وصفا ذوقيا!!

الهوامش

(١) الأسفار الأربعة: ج ٧ ص ٢٨٤

(٢) الأسفار الأربعة: ج ٣ ص ٢٤٢

(٣) الروح الحيواني هو الجسم اللطيف البخاري المنبعث من القلب الساري في جميع الجسد.

(٤) يقول صدر المتألهين الشيرازي في أسفاره نقلا عن صاحب العوارف والمعارف: أن الروح العلوي السماوي من عالم الأمر والروح الحيواني البشري من عالم الخلق وهو محل الروح العلوي ومورده، وهذا الروح الحيواني جسماني لطيف حامل لقوة الحس والحركة، ولورود الروح الإنساني على هذا الروح تجنس (أي صار الروح الحيواني جنسا آخر) وباين أرواح الحيوانات واكتسب صفة أخرى فصارت نفسا محلا للنطق والإلهام، قال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها﴾ فتسويتها بورود الروح الإنساني عليها واقتطاعها عن جنس أرواح الحيوانات فتكونت النفس بتكوين الله من الروح العلوي في عالم الأمر وسكن الروح العلوي إلى الروح الحيواني وصيَّره نفسا - الأسفار الأربعة: ج ٨ ص ٣٢٠ - ص ٣٢١

(٥) سورة الشمس: آية ٧

(٦) سورة الشمس: آية ٨

(٧) سورة المؤمنون: آية ٣

(٨) بحار الأنوار: ج ٨ ص ١٢٦، ج ٧٩ ص ٢٤١ نقلا عن تفسير علي بن إبراهيم القمي

(٩) الموت الإرادي - الحاصل للعارفين بالله قبل الموت الطبيعي - موجب للقاء الحق تبارك وتعالى حسب التجليات الأسمائية أو الصفاتية أو الذاتية وعلى قدر قوة الاستعداد والتوجه إلى الله وهو الذي أشار إليه سيد البشرﷺ بقوله: «موتوا قبلَ أنْ تَموتوا»!!

(١٠) المحو: رفع أوصاف العادة وإزالة حكم العلة لا عينها ونفي أثرها في المعلول ومن العادة الركون إلى الأسباب والعلل، والصحو: رجوع إلى الإحساس بعد غيبة القلب بوارد قوي عن علم ما يجري من أحوال الخلق.

(١١) شرح منازل السائرين (للكاشاني): ص ٢٣١ - ص ٢٣٣

(١٢) سورة فصلت: آية ٥٣

(١٣) سورة الحج: آية ٣٥

(١٤) مستدرك الوسائل: ج ٣ ص ٥٨، محاسن البرقي: ٢٩١

(١٥) يقول العرفاء أن المشاهدة هي رؤية الأشياء بدلائل التوحيد (أي مشاهدة الخلق في الحق) ورؤية التوحيد في الأشياء (أي مشاهدة الحق في الخلق) وحقيقتها اليقين من غير شك (أي مشاهدة الحق بلا الخلق)، وقيل أن المشاهدة علم بالأخبار والرؤية علم يعطيه الحق لعبده عناية منه بلا إخبار.

(١٦) سورة الأعراف: آية ١٤٣

(١٧) بحار الأنوار: ج ٨٦ ص ١١٩

(١٨) علم اليقين: ج ١ ص ٤٩، الأسفار الأربعة: ج ١ ص ١١٧

(١٩) أي أن القلب الذي تجلى له بالعرفان نور الحق وصفائه كلما يرى شيئا فهو في الحقيقة يرى الله قبل أن يرى ذلك الشيء!!

(٢٠) الأنوار النعمانية: ج ٣ ص ٢١٤ - ص ٢١٥

فهرس المحتويات

منازل العرفان

مؤلفات السيّد الدّيباجيّ الالكترونية

١ - سيماء الأولياء وكراماتهم (ج٢)
٢ - حقوق الإنسان في الإسلام
٣ - حقوق المرأة في الإسلام
٤ - السيدة خديجة‹ع›: مقاومة، إيثار، أسطورة
٥ - نفحات الرحمن في منازل العرفان (ج١)
٦ - نفحات الرحمن في منازل العرفان (ج٢)
٧ - القصص القرآنية (ج١)
٨ - القصص القرآنية (ج٢)
٩ - القصص القرآنية (ج٣)
١٠ - القصص القرآنية (ج٤)
١١ - القصص القرآنية (ج٥)
١٢ - التوحيد، دراسة معاصرة، الحلقة الأولى من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٣ - النبوة، دراسة معاصرة، الحلقة الثانية من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٤ - العدل، دراسة معاصرة، الحلقة الثالثة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٥ - الإمامة، دراسة معاصرة، الحلقة الرابعة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٦ - المعاد يوم القيامة، دراسة معاصرة، الحلقة الخامسة من سلسلة دراسات في أصول الدين
١٧ - منتقى الدرر في سيرة المعصومين الأربعة عشر‹ع› (ج١)
١٨ - منتقى الدرر سيرة المعصومين الأربعة عشر‹ع› (ج٢)
١٩ - منتقى الدرر سيرة المعصومين الأربعة عشر‹ع› (ج٣)
٢٠ - الفتنة العظمى، سلسلة دراسات تأريخية
٢١ - مظاهر الفرقة بين المسلمين وعلاجها
٢٢ - الإمام المهدي‹ع›: الحقيقة المنتظرة
٢٣ - حوار حول الإمام المهدي (عج)
٢٤ - العباس بن علي‹ع› بطل النهضة الحسينية
٢٥ - زينب الكبرى‹ع›: بطلة الحرية
٢٦ - الحج: أحكاماً وفلسفة ودعاء
٢٧ - أجوبتنا على مسائلكم الدينية
٢٨ - رسالة عقائدية (ردّ على كتاب الشيعة والتصحيح للدكتور الموسوي)
٢٩ - الروضة المنتخبة
٣٠ - أجود المناظرات (تحت إشراف المؤلف)
٣١ - القصص الهادفة من سيرة المعصومين الأربعة عشر
٣٢ - أنصار الإمام الحسين‹ع›
٣٣ - فضائل ومناقب علي‹ع› وفاطمة‹ع› في مسانيد أهل السنة (ج١)
٣٤ - فضائل ومناقب علي‹ع› وفاطمة‹ع› في مسانيد أهل السنة (ج٢)
٣٥ - قصص المثنوي
٣٦ - خطر الأفيون
٣٧ - زيارة الإمام الرضا سلام الله عليه